

مطبوعات المركز العام
للإخوان المسلمين
بالتاهرة

الرسالة للمحمد ص

وهي ثمانى محاضرات فى السيرة النبوية ورسالة الاسلام

السيد سليمان اليندوى

Princeton University Library



32101 074224708

مطبوعات المركز العام
للأخوان المسلمين
بالقاهرة

al-Risalah al-Tamhidiyah

الرسالة التحمدية

وهي ثماني محاضرات في السيرة النبوية ورسالة الإسلام

ألقاها في جامعة مدراس بالهند

Nadvi, Syed

Sulaiman

السيد سليمان الندوي

كبير علماء مسلمي القارة الهندية في هذا العصر

القاهرة

١٣٧٢

المطبعة السلفية

٢١ شارع الفتح بجزيرة الروضة * القاهرة

قلها من اللغة الاوردية

محمد ناظم الندوي

مدير الجامعة العباسية في بهاولبور

مقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد رسول الله الى الخلق ، برسالة الخير والحق ،
وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بحمل أعباء رسالته الى يوم الدين

وبعدُ فان الأخوة التي عقدها الاسلام بين أهله من أعظم ينابيع القوة
للحق وأوليائه . والخطوات الأولى لتحقيق هذه الأخوة التعارف ثم التعاون .

وقد كان كابوس الاستعمار - الذي جثم به طغيان الغرب على صدر الشرق مدّة
غفلته عن مصادر قوّته - قد أقام الحدودَ والسدودَ والتبؤدَ ليحول بين المسلمين

و بين أن يتعارفوا فيتعاونوا فيتمكنوا من تجديد أواصر الأخوة الاسلامية بينهم .
فلما أراد الله بالمسلمين خيراً ، وكان سبيلُ المسلمين الى أن يزيوا ذلك

الكابوسَ عن صدورهم بتجديد قواهم أطولَ من أن يصبروا الى أن يبلغوا
نهاياته ، فقد يسّر سبحانه لهم طريقاً آخر أقصر ، وهو أن يحصل بأس

المستعمرين بينهم ، فيحقق زوال ذلك الكابوس بإضعاف الطغاة الذين تحكّموا
في الأرض وسلبوا أهلها حريّتهم وإنسانيتهم . وإن الحريين العالميتين الأولى

والثانية قد شلت كل منهما من قوى الغرب ما مهدّ الله به السبيل الى قيام
دولتين إسلاميتين عظيمتين في الشرق الاسلامي ، وهما دولة باكستان ودولة

إندونيسيا ، كما أقام للعروبة في مهدها وفي أوطانها حكومات لم تكن من قبل .
وإذا أحسن المسلمون شكرهم لله على هذه النعمة بحسن استعمالها ، وإذا قام فيهم

العاملون على إرجاع شعوب الاسلام الى ربها بعد أن نسيت مكانها منه ،

2414
3/66
83

2414
3/66
83

2414
3/66
83

7-21-54
Cambridge

يوشكُ أن يعود إلى الشرق الإسلامي ما فقدته من قوته وحيويته وعظمته
وطاعته لله باقامة الحق والنهوض من مزلق الباطل
ومن أعلام الشرق الإسلامي الذين جعلهم الله في عصرنا من ورثة
الانبياء في مهمتهم والعمل برسالتهم علامة مسلمي الهند وشيخ علمائها مولانا
السيد سليمان الندويّ برك الله للمسلمين في حياته ووقفهم للانتفاع بعلمه .
وقد رأى وفد الاخوان المسلمين الذي شهد مؤتمر الشعوب الاسلامية في
كراتشي في شهر شعبان من العام الماضي أن من وسائل توثيق الأخوة الاسلامية
وتحقيق التعارف الاسلامي والتعاون بين المسلمين على الخير أن تُلَقَّحَ ألباب
الشباب في كل أمة إسلامية بعلوم الأئمة الأعلام في الأمم الشقيقة الأخرى ،
لتتحطم بذلك تلك الحدود والسدود والقيود ، ويتلمذ الشباب الاسلامي كله
على اختلاف أوطانه وأمه ، لأئمة المسلمين كلهم على اختلاف أوطانهم وأممهم .
و بدافع من هذه العقيدة التمس وفد الاخوان المسلمين في ذلك المؤتمر من أستاذنا
العلامة السيد سليمان الندوي أن يأذن له بنشر ما يختاره من مؤلفاته بين الناطقين
بالضاد من شباب المسلمين ، فاستجاب حفظه الله لهذه الرغبة وقدم له هذا
الكتاب النفيس الذي يمتاز على كل ما نشر بالعربية من الكتب العصرية في
السيرة المحمدية بما تعرّض له من مقارنات وملاحظات وتوجيهات قد نبخسها
حقها إذا حاولنا التعريف بها في هذه المقدمة ، فنترك ذلك للقارىء ، فانه سيجد
من هذا الخير أضعاف ما نستطيع الإشارة اليه هنا لو أردنا ذلك
وهذه البحوث التي استعرضها السيد سليمان الندوي في هذا الكتاب
ألقتها في ثمانى محاضرات على جماهير من شباب المسلمين والطلبة الجامعيين

منهم ومن غيرهم . وكان سبب إقامتها أن جامعة مدراس كانت قد أباحت لبعض أعيان المسيحية من الأمريكيين وغيرهم إلقاء محاضرات في البحوث التي وقفوا حياتهم عليها ، فأراد بعض مسلمي مدراس أن يساهم المسلمون أيضاً في مثل هذا من الناحية التي يؤمنون بها ويرجون تعميم خيرها . فدعوا استاذنا لإلقاء هذه المحاضرات ، وكان لها وقع عظيم في النفوس . والسيد سليمان الندوي مع سعة علمه ، ومشاركته في أهم المعارف البشرية ، ومعرفته بلغات متعددة ، ومنها العربية ، فإنه معدود من أئمة البلاغة باللغة الأوردية التي هي « من أوسع اللغات الهندية نطاقاً ، وأوفرها ثروة ، وأعذبها بياناً ، وأقربها إلى العربية صوتاً وخطاً ، وهي تسمى أرقى اللغات العالمية » كما يقول الاستاذ الفاضل السيد محمد ناظم الندوي رئيس الجامعة العباسية ومترجم هذه المحاضرات النفيسة بالعربية . ونحن بتقديمنا هذا الكتاب من مؤلفات كبير علماء مسلمي الهند إلى قراء العربية من مسلمي مصر وغيرهم ، نحاول أن نساهم في تحقيق أخوة الاسلام التي أرادها الله للمسلمين ، وذلك بأن يتذوق شبابنا حلاوة الحكمة من لسان هذا العلامة الحكيم ، وأن ينتقل قارئنا بروحه إلى الجمع المبارك الذي ألقى فيه السيد سليمان الندوي هذه المحاضرات ، فيتصور أنه كان من شهود إقامتها ، وأنه يستمع إلى ما جاء فيها من حقائق كأنه صادر من صوت هذا الامام الجليل ، ليكون لنا كما هو لآخواننا مسلمي القارة الهندية ، ونكون نحن معهم لأن الله ربط بيننا وبينهم آصرة الآخوة بالرسالة المحمدية ، رسالة الانسانية العليا . ومن الله نستمد العون

محمّد الديرية الحبيب

دار الفتح
بجزيرة الروضة * بالقاهرة
١٢ ربيع الأول ١٣٧٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة المصنف

هذه ثمانى خطب فى ثمانى نواح من السيرة النبوية ، على صاحبها الصلاة والتحية ، ألقيتها سنة ١٣٤٤ باللغة الأوردية - لغة عامة الهند - على جماعات من شباب المسلمين وطلبة الكليات فى مدينة مدارس بالهند ، فاستمع لها الحاضرون بأذان صاغية ، وتلقاها المستمعون بقلوب واعية ، وقرؤها الصحف والمجلات بكلمات مشجعة ، وامتدحها أهل الفضل بالثناء والإطراء ، جزاهم الله خيرا . وكان ذلك بما شجعتنى على طبعها ونشرها ، فطبعت ونشرت مرات ، وأدخلت فى مناهج التعليم فى بعض الولايات . ثم نقلها بعض المترجمين الى الانكليزية فعمّ نفعها . وقد أحييتُ أن أنقلها الى العربية لتردّ البضاعة إلى أهلها ، فلم يتيسر لى ذلك لكثرة المشاغل . فرغبتُ الى بعض أصحابى أن يكفونى مئونة النقل ، فاستجاب لذلك الأخ الصالح الأديب الفاضل محمد ناظم الندوى استاذ اللغة العربية بدار العلوم لندوة العلماء سابقا وشيخ الجامعة العباسية فى بهاولپور الآن ، فأتمّ ذلك فى عدة أشهر من سنة ١٣٦٦ وحالت دون طبعها حوادث سياسية حدثت بالهند . فلما سكنت الزعازع ، وأتيح لى الاتصال ببعض الاخوان من الاخوان المسلمين ، سألتونى أن أقدم اليهم بعض مؤلفاتى لتتشر على أبناء العربية بمصر ، فليبت دعوتهم ، وأهديت اليهم هذه الخطب لتكون مقدمة لأخواتها . وأسأل الله تعالى أن ينفع بها شباب المسلمين ، ويجعلها وسيلة لى يوم الدين .

المحاضرة الأولى

في أنه سيرة الأنبياء عليهم السلام

هي الأسوة الحسنة للبشر

هذا العالم — وإذا سميناها المتحف الأعظم ، لم نعد الحق ، ولم نرتكب الشطط — يتحوى على أنواع من المخلوقات : ففيه ما شئت من جماد بديع الألوان ، غريب الهيئات . وما يقع عليه نظرك من نبات بين أخضر ناضر ، وأصفر فاقع ، وأحمر قان ، إلى غير ذلك من شتى الألوان . وفيه ما يخطر أو لا يخطر على بالك من حيوان لو حاول أحدنا أن يحصى أنواعه لأعباه ذلك . ومن أنواعه نوع عجيب يفوق سائر الأنواع في هيئته ، ويفضل عليها بعمله ونشاطه ، وهو الإنسان .

هذا إذا نظرنا إلى العالم بعين من لا يتبصر بحكمة ولا يتدبر بعلم . أما الحكيم الذي بنعم النظر في الأشياء ، والعالم الذي يحسن التأمل في ملكوت الله ، فيبدو لهما من الفوارق بين المخلوقات ما يميز به كل نوع عن غيره ، ويكتشفان في كل شيء الخصوصية التي يمتاز بها ولا توجد في الأشياء الأخرى لأن الباري العظيم لما صور هذه المخلوقات اختص كل منها بخصوص ، وأودع فيها من القوى ما امتاز به بعضها عن بعض . ومن هنا كانت هذه المخلوقات على غير اطراد في الطبائع والمواهب ، فتراها تتدرج وترتقى — من أدنى إلى أعلى — على مدارج في الشعور والإدراك والإرادة . وإن أول الجناد وهو الهباءة — أو الذرة كما يسمونها اليوم — لا تجد فيها أثراً للحياة : من الشعور ، والإدراك . ومن الجناد ما تلح فيه أماراة خفيفة من أمارات الحياة . أما النبات فإن أمارات الحياة بارزة في نمائه وأخضراره ، بيد أنه في درجة

الصفير من حيث الشعور والإدراك . بينما نجد في الحيوان - مع الإحساس والشعور - إرادة قوية تحمله على الحركة : في القعود ، والنهوض ، والمشى . وللإنسان إحساس تام ، وإدراك كامل ، وإرادة بالغة ، وعزيمة ماضية . وإلى هذه القوى الانسانية - من شعور تام وإدراك كامل وإرادة قوية وعزيمة صارمة - يرجع تكليف الإنسان ، ومن جرّاء ذلك قد حمل أُنثقال الفرائض وأعباء الواجبات . وكلما كان نوع من أنواع المخلوقات أقل نصيباً من هذه القوى الموهوبة له من الله ، كان أخفّ عبثاً في المسؤوليات ، وأقلّ واجبات في مناط التكليف . فالجماد ليس عليه واجب قط ، والنبات قد نال نصيباً من صفات الحياة فأصابه حظ من الواجبات ، أما الحيوان فأكثر حظاً وأوفر نصيباً من الجماد والنبات في القوى الحيوية ، فنقلت عليه أعباءه من واجبات الحياة وتكليفها . ولما كان نصيب الإنسان من العقل والمدارك ، ومن الذكاء والفضيلة ، أوفى من سائر المخلوقات وأوفر ، فقد ازدادت تكليفه وواجباته بنسبة ذلك . وتتفاوت الواجبات والتكليف بين أفراد بني الإنسان بحسب تفاوتهم في مناط هذه الواجبات والتكليف ، أعنى العقل والمدارك : فالجنون والمعته والأحمق والصبي لا يُطالبون بما يطالب به العاقل الفطن والعالم المثقف ، ولا يستطيع أولئك أن يقوموا بما يستطيع أن يقوم به هؤلاء . وكل ذلك يرجع إلى تفاوت القوى الباعثة على العمل : بين شعور ناقص أو إحساس كامل ، وخمود الطبيعة أو توقد القريحة . بل منهم من لا يكلف بواجب قط ، ومنهم من يكلف ببعض الواجبات دون بعضها الآخر ، ومنهم من يضطلع بالعبء الأعظم من الواجبات والتكليف .

ثم إذا تأملنا المخلوقات وأنعمنا النظر فيها يبدو لنا أنه مهما يكن عند مخلوق من شعور ناقص أو إحساس ضعيف أو إدراك ضئيل ، فإن القدرة الالهية قد تتولى تربيته وترعى نشأته وتختصه بعنايتها ، حتى إذا امتازت صفاته وارتقت مميزاته فوَضت إليه الفطرة من أمر نفسه ما تحتمله قواه وتستحقه مواهبه . أليس من مواهب الله لبعض أصناف الحجر أن تتحوّل في جبالها

ومعادنها الى ياقوت وزه شرد ، وصار لها هذا البريق الذي تتلأأ به أحجارها
بينما باتت الأحجار الاخرى المجاورة للياقوت والزمرد محرومة هذا الجمال
الذي يأخذ بالعيون والصفات التي تحير الألباب . ومن ذا الذي ينفذ الحيتان
في أعماق البحار ، والحيوانات في الآجام والصعاري القاحلة ؟ ومن ذا الذي
يشفي الحيوان إذا مرض ، ويقيه عوادي الحر والقر في شهور القيظ وليالي
الشتاء ؟

من جراء ذلك نرى هذا الاختلاف البادي في صور أفراد نوع واحد
من الحيوان ، وهو يرجع الى عوامل مختلفة : من برودة الجو ، وحرارة
البيئة ، وطبيعة المناخ . فالكلب الأوربي يختلف عن الكلب الإفريقي بقدر
ما بين بلاديهما من اختلاف في الجو والبيئة ، فتختلف بسبب ذلك حاجتهما ،
وتتباين لوازم حياتهما . وقد هيأت الفطرة الالهية لكل منها أسباب العيش
ولوازم الحياة التي تلائم طبيعه وتقضى بها حاجاته .. فللكلب الأوربي ما ليس
لاخيه الكلب الإفريقي من الفرو الأثيث الضافي . وهكذا ترى الفرق جلياً
بين الحيوانات الشرقية والحيوانات الغربية في فرائها وشعورها وأوبارها
وبرائنها ومخالبها وأظفارها ، بل ترى الفرق أوضح وأجلى في سخنها ووجوهها
وهيئات جلودها . ومرد ذلك إلى حكمة خالقها الحكيم المدبر ، العليم بكل
مخلوق وما يحتاج اليه في غذائه وبقائه ولوازم حياته .

لقد تبين مما تقدم أن الخالق القيوم جل جلاله تكفل بحاجات مخلوقاته
المسلوبة الإحساس والشعور ، وأن المخلوقات التي رزقت الشعور
والاحساس قد وكلت اليها الفطرة الالهية أمر السعي لتحصيل حاجاتها على
قدر ما هي حاصلة عليه من الاستعداد الفطري لذلك ؛ فالإنسان مكلف بالسعي
في أسباب رزقه ومتاع حياته ، وهو يلقى من التعب والعناء ما يلقى في التجارة
والزراعة والصناعة وغير ذلك من وسائل الكسب . وليس لجسم الإنسان
من الفرو الضافي والجلد المتين ما يدفع عنه عوادي البرد القارس والحر
اللافح ، لذلك هو مضطر الى أن يعد بنفسه ما يقي جسمه حرارة القيظ ولواحم

السموم ، وبرودة الشتاء وسوافع الزمهرير ، فيصنع مختلف الثياب المناسبة لكل جو ، ويعالج ما يصاب به من أمراض بما هداه اليه إدراكه من عقاير وأدوية ووسائل .

ومن كان من المخلوقات أقل نصيبا من الإدراك ، وأضعف حيلة في الحصول على متع الحياة وأسباب العيش ، تداركته الفطرة الالهية فنحت في نفسه وجسمه من أسباب الوقاية وأسلحة الجوارح ما يدفع به عن نفسه عادية الكون ومخلوقاته ويسرت له به سبل العيش : فمن الحيوانات ما وهبه الخلاق العظيم مخالب قاطعة وبرائن مرهفة ، ومنها المسالح في فمه بأسنان مفترسة ، ومنها ذوات القرون ، وذوات الأجنحة ، والسواجج في اليم ، والمدافعة عن كيانها بالحُممة السامة ، إلى غير ذلك من الأسلحة والجوارح التي عوض الله بها لبعض خلقه عما فقدته من نعمة العقل ونور البصيرة ومذاهب الرأي . أما الانسان المجرد من مثل خرطوم الفيل ، وقرن الثور ، وسمم الافعى ، وحمرة العقرب وسائر أسلحة الدواب والهوام ، فكان لذلك أعزل ضعيفا ، إلا أنه قد أوتي من العقل الكامل ، والشعور الشامل ، والحس المرهف ، والفهم الثاقب ، والبصيرة النافذة ، ما لم يؤت أحد من خلق الله مثله . وهذه المواهب التي امتاز الانسان بها على سائر المخلوقات تغنيه عما فقدته من القوى الجسمية التي امتازت عليه بها الحيوانات القوية ، فاستطاع أن يستخر الفيل العظيم الهيكل ذا الخرطوم الطويل ، وأن يستذل الأسد الضاري ذا البرائن الحديدية وأن يقبض على الأفعى الثائرة ، ويصيد الطيور المحلقة في جو السماء ، بل صار لا يعييه حوت في لجج البحار الزاخرة ، ولا وحش غابة كثيفة من الوحوش المفترسة الكاسرة . لأنه قد اخترع بمواهبه العقلية أسلحة فاق بها على أسلحة سائر المخلوقات بجمعة بلا استثناء

سادق الابد لكم أن تعترفوا - على اختلاف أديانكم ، وتباعد أوطانكم وتنوع نزعاتكم وأفكاركم - بأن الانسان قد انتهت عليه الواجبات وتعددت المسؤوليات بسبب ما امتاز به من عقل راجح ورأى حصيف وفكر ثاقب

ورفته لطيف . وهذه الواجبات والمسئوليات تسمى بلغة الشرع ، التكليف ، وهي موجهة اليه من ناحية قواه الظاهرة والباطنة ، وكأن الانسان قد غاطب الفطرة الإلهية بلسان مواهبه وقواه أن تفرض عليه عملاً ، فكان بسببها مكلفاً بهذه الواجبات التي تملأ ومسهه وتتناسب مع طاقته ، قال الله عز وجل ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ (البقرة ٢٨٦) . وعبر سبحانه عن هذا التكليف بالأمانة في قوله ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (الأحزاب ٧٢) . ولا يتصف بالظلم والجهل إلا المكلف بالعدل والعلم ، والظلم والجهل من نعوت الانسان لا ينتم بهما غيره ، لأنه لم يكلف بالعدل والعلم إلا هو . فهاتان الصفتان من صفات الانسان : الأولى ضد العدل ، والأخرى ضد العلم . وذلك لا يوجد إلا في الانسان ، فالظلم تعدى الانسان حدوده واستعماله قوته الظاهرة العاملة في غير محلها . والجهل نقص يتطرق الى الانسان من جهة قواه العلية . والظلم يقابله العادل والجهول يضادّه العالم . والعدل والعلم يتصف الانسان بهما بالقوة لا بالفعل ، فيحتاج الى العدل لتكميل قوته العملية ، وإلى العلم والمعرفة لتكميل قوته العلية . والقرآن الحكيم قد يسمى العدل بالعمل الصالح ، والعلم بالآيمان . قال الله عز وجل : ﴿ وَالْعَصْر ، إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُورٌ ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ فمن لم يعمل صالحاً فقد ظلم نفسه ، ومن لم يؤمن بالله فقد جهل . ولا ينجو من الخسران إلا من آمن وعمل صالحاً . وقد أشهد الله الزمان على خسران الانسان . ومن الظاهر البين أن المراد بالزمان الحوادث التي حدثت فيه منذ بدء العالم ، وقد صدق كارليل في وصفه التاريخ بأنه « سجل لأعمال العظماء وسيرهم » ، وتاريخ العالم أصدق شاهد على أن كل أمة لم تؤمن بالله ولم تعمل صالحاً بأنها قد خسرت وهلكت ، وكذلك الأفراد الذين لم يؤمنوا بالله ولم يعملوا صالحاً أنهم قد خسروا وهلكوا . والصحف السماوية والأسفار القديمة ملأى بأن الظلم والجهل ما وجدنا في بيئة إلا جراً عليها الخراب والدمار ،

والعدل والعمل الصالح ما وجدنا في أمة إلا نتج عنها الحياة والعمران . وتقص عليك هذه الكتب وغيرها أنباء الذين آمنوا وعملوا الصالحات كيف أفلحوا وعمروا الدنيا ، وأخبار الذين طغوا وبغوا كيف بادوا وهلكوا وذهبوا أحاديث تروى ، وتفردوا أيدي سبها ، فلم يبق لهم إلا أثر بعد عين . وثنى هذه الكتب على الذين قاموا أحسن قيام بالواجبات المكلفين بها من قبل فطرتهم فأدوا ما عليهم منها خير أداء ، كما تزدم الذين أهملوا فرائضهم ونبذوها وراء ظهورهم . وحتى الألياذة والشاهنامة ومهابرتة ورامائن وغيتا ، كل هذه الأسفار ، نقص علينا أخبار الأمم الذين خلوا من قبل ، وتحدثنا بما وقع من القتال بين الظالمين والعادلين ، وبين الكافرين والمؤمنين ، وفي ذلك عبرة لأولى الأبصار ممن يعتبرون بتجارب الأمم فينتهون عن الظلم والشر ، ويرتدعون عن الكفر والشرك ، ويقومون الحق ويتواصون بالخير ويعملون صالحا .

أليست سور القرآن الحكيم وأسفار التوراة والانجيل مملأى بالقصص مسجلة بان كل أمة آمنت وعملت صالحا وعدلت في الحكم وجاءت بالحسنة قد أفلحت ونجت وسعدت ، وكل أمة ظلمت وكفرت بأنعم الله وركبت هواها وعدت طورها وتعدت الحدود الفطرية قد هلكت وانقرضت دولتها وتقوض صرح مجدها . إن في بعض آيات كتاب الله قصة لمؤمن عادل صالح ، وفي البعض الآخر منها قصة لظالم طاغ : كل ذلك ليرتدع الطاغية عن طغيانه ، ويكف الفاسق عن الفسق ، وينتهى الظالم عن الظلم والبغى ، فيعودوا جميعاً الى الرشد ويكونوا عادلين مؤمنين صالحين .

لأجل ذلك بعث الله الأنبياء والرسل - قبل محمد ﷺ - الى كل بلد ، بل الى كل قرية ، ليكونوا بسيرتهم الصالحة المستقيمة أسوة لأمتهم ، فتتبع الشعوب التي بعثوا اليها السنن التي يسنونها لأفرادهم وجماعاتهم فيستقيموا ويفلحوا جميعاً ، أو تهتدى بهدى الأنبياء والرسل طوائف من قومهم على الأقل فيواصلوا الدعوة ويسيروا في طريق الحق . وقد بعث الله الى الإنسانية

خاتم رسله محمداً ﷺ بشيراً للناس كافة ونذيراً ، وداعياً الى الله باذنه ورحمة للعالمين ، لتكون لهم فيه أسوة ، ويكون لهم من حياته الشريفة قدوة ، ثم يكون مثلاً أعلى للذين يأتون بعده الى أن تقوم الساعة . وقد جاء في القرآن الكريم على لسان نبيه ﷺ ﴿ فقد لبثت فيكم عمراً من قبله ، أفلا تعقلون ﴾ (يونس ١٦) ، وذلك أن الرسول ﷺ ولد فيهم ، وترعرع بينهم ، ونشأ أمام أعينهم ، وعاش بين ظهرانيهم برهة من الدهر قبل بعثته ، فعرفوا أخلاقه كل المعرفة ، وجرّبوا عاداته وأعماله ، فهو لم يكن فيهم غريباً ولا خاملاً ولا مجهول الأحوال . والوحي الإلهي في هذه الآية يقدم حياة الرسول وسيرته الطاهرة قبل البعثة دليلاً على نبوته ﷺ وأن رسالته هي من عند الله العظيم ليؤمن به العرب ويصدقوه فيما يخبر به أو يدعو اليه ، فانهم قد علموا مُصِبحه وعباسه ، واختبروا أخلاقه وعاداته من صباه ونعومة أظفاره الى أن شبّه واكتهل وأعلن نبوته وخرج الى الناس يدعوهم برسالة الاسلام .

لقد مضى في سالف الأيام كثير من العطاء دعوا الناس الى أن يقتدوا بأخلاقهم وأعمالهم ، منهم ملوك جبارة عاشوا في قصورهم الشاغخة بين ندمائهم وجلسائهم وملأوا القلوب مهابة وجلالة ، ومنهم قادة جيوش عاشوا بين ضباطهم وجنودهم يرهبون الناس ويخيفونهم بشدة بأسهم وضخامة أجسامهم ورواء هندامهم ، ومنهم حكماء وفلاسفة كانوا إذا نطقوا أبانوا ، وإذا خطبوا أبدعوا ، ونثروا من دُرر الحكمة ما شاءت بلاغتهم وطلاقة ألسنتهم ، فلكوا القلوب وبهروا النفوس . وترى بجانب هؤلاء طائفة الشعراء ممن إذا أنشدوا أظربوا ، وإذا رتلت أناشيدهم غلبوا السامعين على أهوائهم ولهبوا بالقلوب كيف شاءوا . وقد خلا كثير من الفاتحين الذين دوخوا البلاد واستولوا على الممالك ، كما مرّ في مواكب التاريخ كثير من المثربين والأغنياء الذين كانت أقدامهم تظأ البسط الناعمة والزرابي الوثيرة ويمشون على الحرير الفاخر والاستبرق الزاهر ، اكتنزوا القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، واسترعوا أنظار بني آدم بما كانوا فيه من ترف وعظمة وسعة . وقد كان

هنرييل القراطيجنى والإسكندر المقدونى وقىصر الروم ودارا الفارسى
ونابليون الفرنسى يملا كل منهم عيون بنى آدم بعظمته وأحداث حياته ومختلف
أعماله ، وكذلك نجد سقراط وافلاطون وديوجنس وغيرهم من حكماء اليونان
وغير اليونان مثل سبىسز وأضرايه تجتذب سيرتهم النفوس وتروق القلوب ،
وإن اختلفت مظاهر عظمتهم عن مظاهر عظمة الآخرين من ذكرت أسماءهم
قبلهم . فهل ترى فى حياة هؤلاء وأولئك ما يضمن فلاح بنى آدم ؟ ومن منهم
تودى سيرته ودعوته الى صلاح الانسانية وسعادتها ؟

إن فى هؤلاء وأولئك لقادة فتحوا البلاد ودوخوا الممالك واقتحموا
أقصى الأرض وأدناها ، وذلكوا ما اعترض سيلهم من صعاب ، وسخروا
الملوك بظلى سيوفهم . ولكن من منهم ترك لمن أتى بعده أسوة يأتى بها فى
تعميم الخير ، ومن منهم إذا اهتدى الناس بهديه ينجون من المهالك ويسلكون
سبيل السعادة والهناء ؟ ومن من هؤلاء استعملوا سيوفهم البواتر فى قطع
جبال العقائد الفاسدة ، وتخليص العقول من الأوهام الواهية والأفكار
الباطلة ؟ ومن منهم وقف حياته على حل معضلات بنى آدم ، وكان حريصاً
على عقد أواصر الاخاء بينهم على الحق والتواصى فى الخير ؟ وهل يوجد فى
حياة من ذكرنا من هؤلاء العظام ما يستعين به بنو الانسان على تخفيف
ما يعانونه من الغمرات فى حياتهم الاجتماعية ؟ أم فى أخلاقهم وأعمالهم ما ييسر
للانسانية الشفاء من أمراضها الخلقية وأوصابها النفسية ؟ أم فى دعوتهم
ما يجهل صدأ القلوب ورينها ، أو يرتق فنقا فى الحياة الاجتماعية ؟

لا شك أن الشعراء نالوا إعجاب الناس باناشيدهم الرنانة ، وملكوا
النفوس وتصرفوا فيها بشعرهم البليغ وقصائدهم الغرر . ولكن هل نفخوا
الانسانية وهم يهيمون فى أودية الخيال ؟ كلا ، ولذلك لم يكن لهم فى جمهورية
افلاطون نصيب ولا منصب . والشعراء - من هو ميروس الى امرى القيس -
من بعده من شعراء الأمم - لم يكن منهم إلا لإثارة كامن العواطف وتفتيه النائم
من الأفكار ، أو لإحداث لذة أو ألم فى النفوس . ولا ينتظر منهم أن يحلوا

معضلات الحياة الانسانية ، وعويصات مشاكلها . وسبب ذلك أنهم في سيرتهم وأعمالهم لا يقدمون للناس المثل التي تحتذى ، والأسوة التي يقتدى بهم فيها . ولقد وصفهم القرآن الحكيم أصدق وصف عندما ذكر سيرتهم بقوله ﴿ والشعراء يتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ، أَلَمْ تَر أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ، وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ (الشعراء ٢٢٤ - ٢٢٧) . وبهذا سجل القرآن الحكيم على الشعراء أنهم لا يؤثرون بشعرهم اللطيف الخلو على المجتمع البشرى ، لأنهم يهيمون في أودية الأفكار والعواطف بلا إيمان ولا عمل صالح ، ولو اجتمعت لهم هاتان الخصلتان - الإيمان والعمل الصالح - لكان لشعرهم أثر بارز في المجتمع البشرى . وعلى كل فانهم ليسوا من الإصلاح في شيء ، ولا الإصلاح من شأنهم ، ولذلك لا يقدرّون على القيام بمهمة إصلاح العالم ، وقيادة الناس الى الرشاد الكامل والفلاح الشامل ، ويشهد على صدق هذه الحقيقة تاريخ الأمم في غابرها وحاضرها .

وكذلك نرى الفلاسفة والحكّام يهروا عقول الناس بفلسفتهم ، وحاولوا تغيير تيار الحياة البشرية فعرضوا على الناس من طريف الأفكار ومستحدث النظريات ما حير العقول وأدهش النفوس ، لكنهم لم يقدموا للناس من سيرتهم أسوة يؤتسى بها ، ولا أناروا ظلمات الحياة بقبس من أعمالهم تنضح به مشاكل الانسانية فتتمكن من حل معضلاتها . وهذا أرسطو قد وضع في فلسفة الأخلاق قوانين أسس بها بنيانها ووطد أركانها ، ولا تزال الجامعات وأساتذتها عاكفين على دراستها : يلقون المحاضرات على طلبتهم في فلسفته ، ونسمعهم يثنون على ثنوب فكره وبعد نظره وحصافة رأيه ورجاحة عقله ، ولكننا - والحق يقال - لم نجد رجلاً اهتدى بدراسة فلسفة أرسطو أو وصل بها الى السعادة المنشودة .

وكذلك نرى في الكليات أفاضل من العلماء وخول الاساتذة والمدرسين يعجب الطلبة فصيح كلامهم وبراعة بيانهم وبلغ حوارهم وعذوب حديثهم ،

وهم يؤثرون فيهم بذلاقة ألسنتهم ، واتساق أفكارهم ، وترتيب معانيهم . لكنهم لا تعدو محاضراتهم جدران كلياتهم وقاعات محاضراتهم ، وإذا خرجوا منها أصبحوا كعامّة الناس لا يمتازون عليهم بعمل تتخذه الانسانية مثالا يحتذى ، ولا بخلق يختلفون به عن غيرهم هدياً وسمتاً .

لقد رأينا على مسرح العالم كثيراً من الملوك الجبابرة الذين حكموا العالم واستولوا على الممالك ، واستعبدوا الأمم . وكَم من أرض عمروها ، ومدينة دمروها ، وكَم وضعوا شعوباً ورفعوا آخرين ، وكَم سلبوا ومنحوا ، وضروا ونفقوا ، فكانوا في سيرتهم كما قال الله عز وجل على لسان ملكة سبا ﴿ إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزّة أهلها أذلة ﴾ (النمل ٣٤) . نعم ، إن السيوف البواتر في أيدي بعض الملوك قد قذفت الرعب في قلوب المجرمين فكفوا عن اقتراف الجرائم علانية وفي وضوح النهار مستترين وراء مكامن الريب أو قابعين في بيوتهم . لكن سيوف الملوك بعجزت عن أن تستل الرذائل من قلوب أهلها ، وأن تحسم مادة الشر في نفوسهم ، وأن تطهر صدورهم من فساد السرائر ، ذلك الفساد الذي يحمل أهله على ارتكاب المعاصي واقتراف السيئات . واقصى ما يترتب على رهبة المجرمين والمرجفين من سيف الملوك المسلط عليهم أن يسود الأمن والسلام سبل البلاد وأسواق المدن وشوارعها وحاراتها ، أما لإصلاح القلوب وتهذيب النفوس فما يخرج عن سلطان السيف وتعجز عنه إرادة الملوك . بل الحق - والحق أحق أن يقال - أن رأس كل شرٍّ إنما نجم من قصور بعض الملوك . وإن كل فساد نبت نابتة في فناء حصونهم ، بل في قصورهم نبعت عيون الفواحش والجرائم ، ومن حصونهم انفجرت بناييع الظلم والعدوان ، وعلى أيديهم تقام كل شر ، ومن أخلاقهم سرت العدوى إلى أخلاق الناس . وفساد قلوبهم وسوء أعمالهم اتسع الخرق على الراقع حتى أعيا الأطباء داء المجتمع البشري . وهل خلف لنا الاسكندر المقدوني وقيصر روما الأعظم مثالا من أعمالها يصلح المجتمع إذا اقتدى به وسار على أثرهما فيه ؟

وهل نالت حظاً من البقاء والدوام أية سنّة منها عظام المفكرين للمجتمع
البشرى من أمثال سولون وغيره من واضعى الشرائع التى يعتبرونها عادة
قيمة ، مع أنهم أبدعوا فيها ما شاءت لهم أفكارهم الثاقبة وأنظارهم البعيدة
وقرائحهم المتوقدة . ولو سأل سائل عن تلك الشرائع القيمة والقوانين العادلة
كم استمرت ؟ لما استطاع أحد من أتباعهم وأنصارهم إلا أن يعترف بأن
بقاءها كان قصير الأمد ، وأن نقادها أكثروا من نقدها ، بل شك حتى
أتباعهم وأنصارهم فى نصح أولئك المفكرين ونقاء سرائرهم وصفاء قلوبهم وفى
اخلاصهم للإنسانية وللشعر جميعاً ، لأنهم لم يجدوا فيها الحياد الصادق والنصفه
المحضة والعدل الصريح وبراءة الذمة من المحاباة . ومن جرّاء ذلك نشأ
بعدهم قوم آخرون نبذوا حكمهم تلك الشرائع ونحوها كما يمحوا المصححون
أخطاء الحروف فى الكتابة ، ثم شرع هؤلاء الآخرون فى سن قوانين غيرها
تلائم مصالحهم وتوافق مطامعهم ، فجاءت القوانين الجديدة كأختها التى سبقتها
غير مراعى فيها حقوق بنى آدم كلهم ومصالح الأمم بلا استثناء . وفى أيامنا
هذه نرى مجالس التشريع فى البلاد المتمدينة لا تفتأ تنسخ قوانين كان معمولاً
بها وتسبب بدلا منها قوانين أخرى جديدة ، حتى صارت لكل يوم شريعة
تشرع فى مكان شريعة تنسخ ، وقانون يسبب بدلا من قانون يلقى . كل هذا
طمعا فى بقاء دولة وثبوت أركانها واستيلاء رجالها على مناصبها ورغبة منهم
فى زخرف الدنيا وزينتها ونعيمها ، لا تحفزهم الى ذلك مصالح الناس ولا
منافع الامة كلها .

سادق ! لقد حدثتكم عن الطبقة العليا من بنى آدم ، ممن يحظن فيهم أنهم
معدد الرجاء فى إصلاح الحياة الاجتماعية وتوجيهها نحو الرشاد . وقد علمت من
أحوالهم وسيرهم كيف خابت فيهم الآمال وأخفق الرجاء . والحق أن كل خير
تروى له أثر فى بقعة من بقاع الأرض ، وكل نور يومض فى أية أمة حتى لو
كان ضئيلا ، وكل اثاره من صلاح ، أو كرم خلق ، أو صفاء سريرة وطمهارة
قلب ، فان بما لا ريب فيه أن مردّه فى الأصل إلى رسالات الله ، أى إلى

هداية النبيين عليهم السلام . فاذا وقعت أنظاركم في بقعة من أرض الله على مظهر من مظاهر العدل يسود الناس ، أو على رحمة في قلوب طائفة يتبادلونها بينهم ، أو وجدتتم فئة تتعامل بالتواصي ويساعد أيسارهم ذوى فاقتهم وأقويائهم المظلومين منهم وأهل العافية فيهم يغيثون الملهوفين ويطعمون الأيتام ويعولون الأيامي ، فاعلموا جازمين غير مرتابين بأن هذه الفضائل من آثار تعاليم تلك الطائفة الطاهرة التي تسمى الأنبياء ، صلاة الله وسلامه عليهم . وذلك لأن أقطار الأرض كلها - على سعتها - قد بلغت دعوة الأنبياء وطرقت مسامع أهلها سنن هدايتهم وأحكام تشريعهم وحكمة رسالاتهم ، وما من أمة إلا وقد أرسل الله فيها رسله منذرين ومبشرين ﴿ وإن من أمة إلا خلا فيها نذير ﴾ (فاطر ٢٤) ، ﴿ ولكل قوم هاد ﴾ (الرعد ٧) . ولولا الأنبياء لتهارج الناس كالبهائم ، ولتهاوشوا كالسباع الضواري . خيثما رأيتم شيئاً من الصلاح ، وقليلاً من الخير أو كثيراً منه ، فهو من تعاليمهم . وكل دعوة للحق في مكان ما من الأرض فانما هي صدى لرسالات الله . وحتى الهمج في مجاهل إفريقيا ، فضلاً عن الأمم الغربية المتمدنة ، كل أولئك استقوا من مهل النبوات الصافي واستضاءوا بأنوار الله التي بعث بها أنبياءه ، ولا يزالون يستنبطون بهم في كل ما يسمى حقاً وكل ما تدل عليه عناوين الخير إن الصفوة المختارة من أهل الطبقة العليا في البشر هم الذين يحكمون القلوب وتنقاد لسيادتهم النفوس . وأين هؤلاء من الملوك الذين يحكمون الجسوم ويملكون الأبدان ويستولون على البلاد؟ أولئك تجرى أوامرهم وتنفذ أحكامهم حيث تخفق القلوب ، وإذا كانوا لا يملكون الأسلحة التي يملكها الملوك وأمراء الأجناد ، فانهم يطهرون الأنفس من آثامها ويستأصلون الجرائم قبل وقوعها ، حين يجثون من القلوب جذور الشرور . وإذا لم يكن لهم ما للشعراء من أناشيد يتغنى الناس بها ، فان الأمم لا تزال تستحلى كلامهم العذب ، وتستعذب حديثهم الحلو . لا ريب أنه لم يكن الرسول رؤساء المجالس

التشريعية بالمعنى الحديث ، لكن سننهم وتشريعاتهم لا تزال - على تطاول
الأيام ومضى القرون - نافذة بين الطوائف ، يقدسها عليه الناس وسفلاتهم ،
وأحكامهم منقوشة على صفحات القلوب تدعن لها السوق والملوك ، ويستسلم
لها الفقراء ويخضع لها الأغنياء .

إن يد الأيام قد عبثت - كما يشهد التاريخ - بالراجا (أشوكا) ملك
(باتلي پاتر) ولم تبق يد البلى من أوامره وأحكامه إلا صخوراً منقوشة
وحجارة منحوتة . أما (بودا) فإنه لا يزال يحكم القلوب ، وسننه وقوانينه
لا يزال كثير من الناس يدينون لها ويطأطئون الرءوس لحرمتها . وإن أوامر
ملوك (أجين) و (هستناپور) في دهلي وقنوج أمست أثراً بعد عين ، بل
درست آثارهم وعفت أعلامهم وأصبحت ديارهم كأطلال خولة ، أما
(دهرم شاستر) وهو كتاب العقائد الذي جاء به (منو) فلا يزال باقياً
نافذاً أمره .

والملك (حمورابي) من ملوك بابل كان أول من سن القوانين ، ولكن
أين أوامره وأحكامه ؟ لقد نسجت عليها العنكبوت منذ زمان طويل ، ولم
تدع يد البلى من قوانينه وأحكامه شيئاً . أما تعاليم نبي الله إبراهيم عليه السلام
فما برحت غضة طرية .

وإن فرعون ودعواه (أنا ربكم الأعلى) ؟ لقد أصبحت أضحوكة !
أما نبي الله موسى عليه السلام فإنه يسود نوازع القلوب ، ويملك أهواء
النفوس ، ويدين له كثير من الناس ، وتسلم آياته وبياناته طوائف غير قليلة .
وقوانين سولون زال العمل بها وشيكاً ، بينما التوراة المنزلة من السماء
لا تنفك أحكامها وقوانينها قسطاس العدل وميزان النصفة .

والقانون الروماني الذي عدَّ عيسى عليه السلام جانياً مجرماً بمقتضى
أحكامه ، واعتبره قد اجترح السوء وأتى ذنباً ، قد خلت القرون تسفيه

برياحها فأصبح هشيما مضمحلا . أما عيسى عليه السلام فإن تعليمه لا يزال
نورا تجلى به ظلمات القلوب ، وهدى تطهر به نفوس المذنبين ، وتزكى به
أرواح المجرمين .

وأيـن أبو جهل وكبرياؤه ، وأيـن كسرى الفرس ودولته وجبروته ، وأيـن
قيصر الروم وحكومته وطقيانه ؟ كل أولئك قد طوى الدهر صحائفهم ،
وطمست الاقدار دولهم ، وتهدم صرح مجدهم ، وذهبوا أدراج الرياح . أما
محمد رسول الله ﷺ فإن حكمه ما زال ولن يزال باقيا على الدهر ، وأوامره
نافذة وسنته متبعة في كل زمان ومكان .

سادتى وأصدقائى ! أظنكم قد استمتعتم لما ألقىت عليكم من الأدلة العقلية
والبراهين التاريخية ، وإغالها قد تركت فيكم أثرا أورث فى قلوبكم يقيناً بأنه لم
تكن طائفة من الناس أصلحت من فساد الأخلاق وقومت من عوجها ،
وهذبت النفوس وهدتها من ضلال البشر مثل الذى قام به الأنبياء عليهم
السلام ، فهم الذين أصلحوا الحياة الاجتماعية ، وعلّموا الناس الاقتصاد فى
المعيشة ، والاعتدال فى كل شىء . وهم الذين أقاموا العدل فى الدنيا ، وحكموا
بالقسط بين الناس ، وزكوا القلوب ، وأخذوا بيد الإنسانية الى الحق والخير
وأنقذوها من حمئة الرذائل . وإن الله سبحانه قد بعثهم ليخرجوا الناس من
الظلمات - ظلمات العقائد ، وظلمات الأخلاق ، وظلمات الأعمال - إلى النور :
نور الإيمان ، ونور الخلق الكريم ، ونور العمل الصالح . وتركوا بعدهم سنة
للناس : يتبعها السوقة ويعمل بها الملوك ، ويتنفع بها صغار الناس وكبارهم ،
ويتمتع بخيراتها الأغنياء والبؤساء على السواء . وإن مثل الأسوة بهم كمثل
عين ثروة فياضة تروى البلاد وتسقى العباد ، يشرب منها كل عطشان بقدر
حاجته ، ويرتوى بماها العذب الزلال كل ظمآن فينقع غلته ﴿ وتلك حاجتنا
آتينها لإبراهيم على قومه ، نرفع درجات من نشاء ، إن ربك حكيم عليم .
ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلا هدينا ، ونوحا هدينا من قبل ومن ذريته داود

وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون ، وكذلك نجى المحسنين .
وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين . واسماعيل واليسع ويونس
ولوطاً ، وكلا فضلنا على العالمين . ومن آباؤهم وذرياتهم وإخوانهم ،
واجتبتناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم . ذلك هدى الله يهدى به من يشاء
من عباده ، ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون . أولئك الذين آتيناهم
الكتاب والحكم والنبوة ، فإن يكفروا هؤلاء فقد وكلنا بهم قوماً ليسوا بها
بكافرين . أولئك الذين هدى الله ، فبهدهم اقتده ﴿ (الأنعام ٨٣ - ٩٠)

تروى في هذه الآيات ذكر طائفة خاصة ، وسُمي فيها بعض الذين بعثهم
الله لهداية الناس ، وفتّوهم اليهم أمر إصلاح المجتمع : فهم الشفاء لمرضى
القلوب ، وبهم البرء لسقام النفوس ، وهم هداة الغاوين ، الآخذون على
أيدي الطغاة ، والمرشدون لأهل البغي ، والناهون عن المنكرات . وهم
الطائفة المقدسة التي عمّ هديها وجاد غيبتها جميع أنحاء المعمورة ، فاستضاء الناس
كلهم بنور هؤلاء الرسل في مختلف الأزمنة وشتى العصور . وإن الذي نراه في
الأمم من الخير والصالح وكرم الخلق وحسن العمل وطهارة السيرة وعلو
النفس وزكاه الروح ونزاهة القلب ، إنما هو قطرة من بحر تعاليم الأنبياء عليهم
السلام ، ولحمة من جمال شرائعهم ، وأنارة من بركات سيرتهم . وإن الإنسانية
القلقة المتألمة لا تزال تفتقد آثارهم ، وتحرص على اتباع سننهم ، ليذهب بذلك
روعها ، ويطمئن قلبها ، فتقر الحياة الاجتماعية وتجدد بعض راحتها . ولو أن
الناس اتبعوا سنن الأنبياء واستقاموا على الطريق الذي دلّوهم عليه لساد
الوئام بين الأمم ، وعمّ السلام في العالمين

لقد كان الأنبياء جميعاً على خُلق عظيم ، وقد أوتوا من حميد الخصال
ومعالي الأخلاق ما لم يوت أحد غيرهم مثله . غير أن منهم من تجلّى فيه خلق
من الأخلاق فكان فيه أبرز من غيره وأظهر ، فنبى الله نوحاً كان متحمساً في
تبليغ الدين ، وإبراهيم كان شديد العناية بأمر التوحيد وورثه في ذلك إسحاق ،

وجب الإيثار الى إسماعيل ، وجاهد موسى جهاداً عظيماً ، وآزره في الحق أخوه هارون ، وظهرت الإنابة والاعتراف بالخطأ في يونس ، وكان لوط مجاهداً ، وغلب على يعقوب التسليم والرضا بأمر الله ، وكان داود يرثي للحق وخذلانه ، وامتلاً قلب سليمان بالحكمة ، وكان زكريا متعبداً ، وتجلى في يحيى العفاف وطهارة النفس ، أما عيسى فكان مظهر الزهد في الدنيا والرغبة عن زهرتها ، وكان أيوب صبوراً على الآلام . وهذه الخصال العالية والأخلاق الفاضلة هي التي يتشرف بها العالم ، وتسعى الأمم للتجلى بها ، وحيثما وجدتم من هذه الخصال الحميدة والفضائل النبيلة أثراً فكونوا على يقين بأنها من نفثات أولئك الأنبياء ومن آثار تعليمهم

إن تقدم المدنية الصالحة ، وتوفير عوامل الهناء والرغد للناس ، وبلوغ الانسانية مقام الشرف ، قد ساهمت فيه جميع الطوائف التي اشتركت في عمارة العالم : فعلماء الهيئة اكتشفوا للناس نظام سير الكواكب ، والحكاماء دلوا على خواص الأعمال وتأثيرها في الأخلاق ، ووصف الأطباء النطاسيون خواص العقاقير وتأثير الأدوية في الأدوية ، وتفنن المهندسون في تشييد المباني ومرافقها وإقامة القصور ومعالمها وعقدوا على الأنهار القناطر والجسور واتسع أهل الصناعات في تنوعها وإتقانها وتيسير الأعمال للعامل ، فكان من مجموع هذه الجهود عمارة الارض ، ولكل فريق من أصحاب هذه الجهود يد في اكتمال المدنية وتقدم الحضارة ، ونحن نذكر لهم ذلك بالثناء والشكر ، غير أننا لا نستطيع أن ننسى أن أنبياء الله وحمله رسالاته هم الذين غمرونا بالمانع العظمى لأنهم عملوا لإصلاح فساد القلوب ، واستئصال كوامن الشرور ، وتطهير النفوس وتزكيتها من الأهواء الفاسدة والاطماع السافلة والميول المهلكة ، فنهجوا بذلك منهج السعادة للحياة الاجتماعية ، وبنوا للناس ما تعلق به نفوسهم وما تسفل به ، وما تكون به شريفة أو منحطة ، فكملت الثقافة الانسانية برسالاتهم ، وبلغت الحضارة بذلك مبلغ السكال ، وتيسر للمجتمع

البشرى أن يكون صالحا إذا شاء ، وقد أصبح من المتعارف عند الناس أن الاخلاق الفاضلة والسيرة الطاهرة هي شرف الانسانية ومجدها ، ومكارم الاخلاق ومحاسن العوائد أصل الانسانية وجوهرها

وبتعاليم الانبياء توثقت العلاقة بين الخلق وخالقه ، وحسنت الرابطة بين العبد ومولاه ، فتذكر الانسان عهده الأزلى الذى أخذه على نفسه لربه . ولولا الانبياء وتعاليمهم وتجليتهم أسرار النفوس وكشفهم عن غرائز الفطرة الانسانية وما يسعد به المرء أو يشقى ، لم تبلغ الانسانية ما بلغته . ولذلك كانت الانسانية مثقلة بمن الرسل سلام الله عليهم ، فان لهم علينا من الأيادي البيضاء مالا كفاء له . ومن عرف هذا عرف معه ما يجب لانبيا الله جميعاً من الشكر العظيم على كل فرد من أفراد البشر مهما كانت الطائفة التى ينتسب اليها ، وهذا الشكر هو الذى نعبّر عنه نحن المسلمين بالصلاة عليهم والتسليم (لا نفرق بين أحد من رسله) ونجهر بذلك ونعلنه كلما سمي الانبياء عليهم الصلاة والسلام

أيها السادة . إن هؤلاء الانبياء بعثوا فى أعصار خاصة ، فبلغوا رسالات الله ، ثم مضوا ، ولا بقاء لشيء فى هذه الدنيا الفانية . وإن سيرهم مهما تكن طاهرة مقدسة فانه لم يمتح لها البقاء والدوام ، لأن يد الأيام قد عبثت بها كما تعبث بكل جديد فتحيله قديما ، ثم تجعله رمادا تذروه الرياح . ومن المعلوم أن الذى يبقى لمن يأتى بعدهم من بنى آدم هو المكتوب فيه سيرهم وهديمهم ، وهو الذى يصف حياتهم ويمثل أخلاقهم . والكتابة هي التى تحصى الأعمال والأخلاق وتعصمها من أيدي العيلى ، ولولاها لم تصل الينا علوم القرون الخالية وحكمتها ، وفنون الأمم الماضية وأفكارها ، وشئون الأقوام السالفة وأخبارها . وما التاريخ إلا سير الرجال وشئون الحياة الانسانية بما حفظته الكتابة وصانته من يد الضياع . وإن لحياة الانسان نواحي شتى ، ومن المحتمل أن يعتبر الانسان - فى ناحية من نواحي حياته - بكل حادثة حدثت

فيما مضى ، لكن حياة الانسان الخلقية والروحانية لا تكمل كمالها ولا تبلغ مرادها ولا تزكو زكاهها إلا بسنن الأنبياء وهديتهم واقتفاء آثارهم والتخلق بأخلاقهم ، ولن يذهب ظمأ الانسانية فتروى غلتها إلا بمنهل من سلسيل هؤلاء الرسل ، ولا يرجى خير العالم وصلاحه إلا إذا عمل أهله الأعمال التي هدى اليها الأنبياء ودعوا اليها وحضوا عليها . لأجل ذلك كان من أهم الفرائض على أبناء الانسانية حفظ سيرهم ، واحصاء أخلاقهم ، لتبلغ مبلغ الكمال وتزكو زكاهها

إن نظرية مهما تبلغ من الصحة ودقة الفكر ، وإن تعليما مهما يكن رائقا ويقع من الناس موقع الإعجاب ، وإن هداية مهما تجمع من صنوف الخير ، كل أولئك لا يعنى غناء ولا يثمر ثمرة ولا يبقى على الدهر إلا اذا كان له من يمثله بعمله ، ويدعو إليه بأخلاقه وفضائله ، ويعرفه الى الناس بالقسوة والاسوة ، فيقتدى الناس بدعائه من طريق العمل بعد العلم ، معجبين بسجايا هؤلاء الدعاة معظمين لأخلاقهم مكرمين بطهارة قلوبهم وزكاه نفوسهم وبسجاجة أخلاقهم ورجاحة عقولهم وحصافة آرائهم وسداد أفكارهم . وأقص عليكم قصة : إن الباخرة (كروكوديا) التي ركبناها في عودتنا من مصر والحجاز في أوائل شهر رجب سنة ١٣٤٢ (فبراير ١٩٢٤) اجتمعنا فيها عرّضا بالدكتور طاغور الشاعر الدائع الصيت ، وكان قافلا من سياحته في أمريكا ، فسأله بعض رفقته : دما بال نحلة (برهمو سماج) أخفقت في مساعيها ولم تنجح ، مع أنها أنصفت الأديان ، وجمعت الحسنات ، وسالمت جميع الملل ، ومن مبادئها وأصولها أن الديانات كلها على حق ، وأن جميع المصلحين من الأنبياء والرسل والهداة هم خيار الناس وصلحاؤهم ، ثم انها ليس فيها ما يخالف العقل أو يعارض المدنية الحاضرة أو يناوىء الفلسفة الحديثة ، وصاحب هذه النحلة قد راعى فيها الظروف الراهنة والشئون المألوفة الآن ، ومع ذلك كله لم تتل من الفوز شيئا ولم يتح لها من النجاح قليل ولا كثير ١٩ ، وقد أحسن الشاعر

في جوابه على هذا السؤال كل الإحسان اذ قال : « إن هذه النحلة لم يكن لها داعية يدعو الناس إليها بسيرته الكاملة وهدية العالی ، ولم يكن لها لسان يدعو مؤيداً بعمل يصدقه فتھوی اليه أفئدة الناس وتطمح اليه أبصارهم ويكون لهم من الدعاة أسوة يأتسون بها وقدوة يقتدون بها . وكلام طاغور هذا يدل على أن الدين لا ینجح ویعلو وینتشر إلا بسيرة النبي الذي بعث به وبما عرفه الناس عنه في شؤون حياته وفي أخلاقه وأعماله . وبالجملة إن الجنس الانساني يحتاج أشد الحاجة — في بلوغه السكال وسلوكه سبیل الرشاد — الى هداة ودعاة طهرت حياتهم وزكت نفوسهم وصفت قلوبهم من وصمات الذنوب وشبهات الآثام ، وتكون سيرهم كاملة في كل ناحية من نواحي الحياة الانسانية ، ولم یجتمع ذلك إلا في أنبياء الله صلوات الله عليهم وسلامه

المحاضرة الثانية

في أنه سيرة محمد ﷺ هي العامة لجميع الأئمة ، وهي المحاضرة

سادق . هذا اليوم هو اليوم الثاني لحفلتنا هذه . وليكن ما سلف في اليوم الأول على ذكر منكم . وخلاصة ما ذكرت أمس أن ظلمات الأيام المقبلة لا تنجلي إلا بنور من مضي من طوائف المصلحين الذين أحسنوا إلى الإنسانية أي إحسان ، ولهم جميعاً علينا الشكر الجميل ، ونخص منهم الأنبياء ، فانهم أسدوا إلى البشر من الجميل ما لم تسده طائفة من المصلحين ، فيجب علينا أن نضاعف الشكر لهم ونعترف بجميلهم وإحسانهم ، إذ أن كل واحد منهم قدّم لأمته من سيرته الطاهرة وخلقه العظيم وهديه العالی ما كانت به الأسوة الكاملة التي لا تأتي من غيره : فمنهم من صبر على الرزايا والنوائب والآلام أعظم صبر وأكمله ، فكان أسوة للصابرين في الضراء والشدة . ومن سيرة بعضهم خلق الأيثار ، فكان إيثاره مثالا لأمته . ومنهم من اختار مرضاة الله مقدّما نفسه قربانا وأضحية ، فكان المثل الأعلى لأمته في إيثار مرضاة الله حتى على بقاء مهجته وحفظ حياته

لقد ظهر للناس في سيرة الذين حملوا رسالات الله عند تبليغهم عقيدة التوحيد الإلهي ما كان موضع العجب من العزيمة والحمية والتسليم لأمر الله والعفة عن المنهيات والزهد في زهرة الحياة الدنيا ، وما كان ولا يزال مثلا أعلى في هذه الفضائل العظمى ، ومنارا للسائرين في ظلمات الحياة ، وكم من ظلمة في الحياة قد ضل بها من ضل . ثم أتى على البشر زمان كان فيه بأشد الحاجة إلى الهدى الكامل يضيء له الطريق كله بقوله وعمله ، ويجلو الدجى — دجى العقائد والأعمال والأخلاق — بنور تعاليمه وضوء سيرته وجمال خلقه وكمال نفسه ، فتكون حياته نبراسا بأيدي الناس ، فن اقتبس منه في يمينه

سار في ظلمات الحياة آمنا مطمئنا لا يخاف الزلّة ولا يخشى العثرة حتى يبلغ غايته ، وإن ذلك الهدى الأعظم هو آخر الهداة وخاتم النبيين الذي لم يرسل بعده رسول ولن يرسل ﴿ يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بأذنه وسراجاً منيراً ﴾ الاحزاب : ٤٥ - ٤٦

إن محمداً ﷺ شهد في هذا العالم تعليم الله وهدايته ، فهو شاهد . وبشر الصالحين بالنجاح والفلاح ، فهو مبشر . وقد نادى الغافلين وأسمع الصم وحذر المذنبين عاقبة ذنوبهم وأذر المشرفين على الهلاك وأيقظ النائمين ، فهو منذر . وقد دعا إلى الله من ضل عن سبيله ، فهو داع . وإن هو إلا نور يستضاء به إلى يوم القيامة ، ونبراس يستنار بأشعته في شعاب الحياة الملتوية فتتكشف به الظلمات المترامية ، فهو السراج المنير إلى الأبد . نعم ، إن جميع الأنبياء كانوا شهداء ودعاة ومبشرين ومنذرين ، بيد أن هذه الصفات لم تكن سواسية في جميع الرسل ، بل كان بعضها في بعضهم أظهر من أخواتها ، فكان يعقوب وإسحاق وإسماعيل عليهم السلام قد غلبت عليهم صفة الشهادة وكانوا شهداء الحق . وغلبت على إبراهيم وعيسى صفة التبشير فكانا مبشرين . ومن الأنبياء من غلب عليه وصف الانذار لمن خالف الحق وجحده فكانوا منذرين كنوح وموسى وهود وشعيب . ومنهم من غلب عليه صفة الدعوة إلى الحق وامتاز بها أكثر مما امتاز بسائر النعوت الأخرى كيوسف ويونس عليهم الصلاة والسلام جميعاً . وأما من كان جامعاً لهذه الصفات كلها واتصف بها جميعاً فكان مبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بأذنه وسراجاً منيراً وكانت حياته ملاءمةً بهذه النعوت والشؤون وسيرته ممتازة بهذه الخصال والحلال ، فهو النبي الجامع محمد ﷺ لأنه بعث ليختم الله به النبيين والنبوات ، فأعطى الرسالة الأخيرة ليلبغها إلى البشر كافة ، فجاء بالشرعة الكاملة التي لا يحتاج البشر معها إلى غيرها ، ولم تنزل من السماء إلى الأرض شرعة على قلب بشر بعد هذه الشرعة . لقد حظيت التعاليم المحمدية بالخلود واختصت بالبقاء والدوام إلى

يوم القيامة فكانت نفس محمد ﷺ جامعة لجميع الأخلاق العالية والعادات السنية ، وقد بعث ليتم مكارم الأخلاق

إخواني . أنا لا أقول ما أقول جزافا وادعاء مني لأجل عقيدة لي خاصة أعتقدها ، وإنما هي حقيقة يشهد لها التاريخ وتؤيدها البراهين والدلائل وإن السيرة التي يحق لصاحبها أن يتخذ الناس من حياته أسوة حسنة ومثلا أعلى ، يشترط لها قبل كل شيء أن تكون سيرة « تاريخية » ، أما السيرة القائمة على أساطير وأحاديث خرافة لا تدعمها الروايات الموثوق بصحتها ، فإن من طبيعة الانسان أن لا يتأثر بما يحكى له من سيرة لشخصية مفترضة لا يعرف لها التاريخ أصلا صحيحا ، وإنما اختلق لها المناقب أناس أحسنوا الظن بها فرفعوا مكانها ، وقد يخذعون بهذه المناقب بعض الناس أمداً قصيرا حين يعرضونها عليهم في حلة قشبية من الألفاظ وثوب قشيب من العبارات ، ثم لا تلبث الحقيقة أن تظهر من وراء غلازل الأوهام فيعرض الناس عنها إعراضا لأنها قامت على غير أساس من التاريخ . إذن فلا بد لكل سيرة من سير الكمال الانساني يدعى الناس الى الاقتداء بها واتخاذها أسوة أن يدعمها التاريخ ويشهد لها المحققون ، ولهذا ترى النفوس البشرية لا تتأثر بالاساطير والأوهام كتأثرها بمجوات التاريخ والروايات الثابتة عن الثقات الأثبات . وذلك لأن سيرة الرجل العظيم الكامل لا تعرض على الناس ليشتغلوا بها أوقات فراغهم ويروحوها بها عن أنفسهم في حالة الملل أو الضجر ، بل تعرض عليهم ليدعوا الى الاقتداء بها واتخاذها نبراساً لحياتهم يسرون على ضوتها في ظلمات الحياة لاقتحام العقبات ، وكم من عقبة تعترض الانسان في حياته فيحتاج الى من يسير أمامه ليأخذ بيده في اجتيازها . فان لم تكن الشخصية تاريخية كيف يدعى الناس الى الاقتداء بها وهي في الواقع مفترضة والمناقب التي تذكر عنها من الاساطير والأوهام ؟ !

نحن معشر المسلمين تؤمن برسالات الله كلها وبجميع الرسل ونعظمهم بلا

استثناء ، مع علمنا بأنهم متفاضلون (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض)
(البقرة ٢٥٣) . وإن الدوام والبقاء لم يتيح إلا لسيرة آخر المرسلين وخاتم
النبيين محمد ﷺ ، أما غيره من الأنبياء فلم تختم النبوة بأحد منهم ، ولم تكن
سيرتهم خالدة ، بل ولا محفوظة ، وقد أرسلوا إلى أممهم خاصة ، وإلى زمن
خاص بأجل مسمى ، فكانت حياتهم أسوة للذين أرسلوا اليهم في عهدهم ، ثم
نسيت تلك السيرة وامحيت بكر اللبالي ومرور الأيام ، وقد جاء في رواية
اسلامية أن الله أرسل من الأنبياء عشرين ألفاً ومائة ألف

انه ما من بلاد ولا أمة قبل مبعث محمد ﷺ إلا جاء فيهم نبي ، وإذا كان
عدد الأنبياء على ما في تلك الرواية الاسلامية عشرين ألفاً ومائة ألف فكم نبياً
منهم نعرف اسمه ؟ والذين نعرف أسماءهم هل نعرف من سيرتهم كثيراً أو
قليلاً ؟

إن من أقدم الأمم عهداً هنالك الهند كما يدعون ، وهم ليسوا بمسلمين ،
وفي تاريخهم مئات من العظام والنايين ، فهل يؤيد التاريخ سيرة أحد منهم ؟
إن التاريخ لا يستطيع ذلك ، وكثير منهم لا يعرف الناس من شئون حياتهم
وحقائق أحوالهم إلا أسماءهم ، وهم لا يحفظون في كتب التاريخ بمكانة ، وإنما
تعد سيرتهم من علم الاساطير وخرافات الوثنية . ومن أحظاهم تاريخاً
وأحسنهم سمعة رجال فهاربتها وراماينا وأبطالها ، ومع ذلك فإن سير أولئك
الرجال لا تعد من التاريخ ، بل لا يعرف التاريخ زمانهم ، فضلاً عن أن
تتعين في الزمان قرونهم أو تعرف من قرونهم سنوات حياتهم

لقد درس بعض علماء أوربا تاريخ الهند القديم درساً متوالياً ، وقاسوا له
أقيسة ، وذهبوا في ذلك شوطاً بعيداً ، فصاروا يعينون عهد عظام الهنادك
وأبطالهم تعييناً يرى علماء الهنادك وفضلاؤهم أنه مجازفة ورجم بالغيب ،
وأكثر المحققين من علماء أوربا لا يعدون ذلك من التاريخ ، بل لا يعترفون
بأن هؤلاء قد وجدوا في العالم يوماً ما أو كان لما حيك حولهم من أساطير شبه

وجود . وان زردشت صاحب المجوسية لا يزال معظماً عند كثير من أتباعه .
لكن التاريخ لم يكشف الحجاب عن وجوده الحقيقي بعد ، فهو لا يزال سرّاً
غامضاً من أسرار التاريخ حتى شك بعض المؤرخين من الأمريكيين
والأوربيين في نفس وجوده . أما المستشرقون الذين يعترفون بوجوده
التاريخي فانهم يثبتون بعض شئون حياته بظنون متباينة وأوهام متباعدة إثباتاً
لا يروى غلة ولا يشفي علة ، فكيف يستطيع أحد أن يطمئن الى اتخاذ حياة
زردشت أسوة لنفسه في الحياة ما دام الشك واضارب الآراء يحومان حول
زمانه وبلده ونسبه وأسرته وشريعته ودعوته وكتابه ولغته وعام وفاته
ومكان موته ، والروايات عن ذلك أوهام وأقيسة وظنون لا تغني من الحق
شيئاً . ومع ذلك فان المجوس ليس لهم سبيل الى معرفة هذه الأمور المرتاب
فيها إلا ما زعمه بعض المستشرقين والباحثين من أهل أمريكا وأوربا ، وان
علم المجوس الأصلي بنبيهم وحياته وسيرته لا يعدو مافي الشاهنامه للفردوسي ،
ومن ذا الذي يعذرهم فيما يعتذرون من أن كتبهم الدينية قد ذهبت بها حروبهم
مع اليونانيين وأن أعداءهم أبادوها . ونحن ليس من غرضنا هنا إلا أن
نثبت أنها غير موجودة ولا معلومة ، ولا يهنا كيفية انعدامها وزوالها ، وهذا
يدل على أن حياة زردشت لم تنل حظ الدوام والبقاء حتى أنكر أمثال Kern
و Dermeletes شخصية زردشت ووجوده التاريخي

ودين (بودا) أقدم الأديان وأوسعها نطاقاً وأكثرها انتشاراً في سالف
الأيام ، وكان له سلطان على الهند والصين وآسيا الوسطى وأفغانستان وتركستان
ولا يزال الى الآن في سيام والصين واليابان وتبت ، وانما تقلص ظله وعنى
أثره في الهند على أيدي البراهمة ، وزال عن آسيا الوسطى بقلبة الاسلام ،
لكنه ما برح موجوداً في آسيا القصوى تحت ظل دولة قوية ذات مدنية
وثقافة ناضرتين ، وهي اليابان التي لم تخضع بعد لأجنبي ، ولم يفتح بلادها فاتح (١)

(١) ألفت هذه المحاضرة لما كانت اليابان في أوج سيادتها قبل الحرب العالمية الثانية

ولسائل أن يسأل : هل يقيم التاريخ وزنا لوجود بوذا ؟ وهل يقدر مؤرخ على أن يعرض للناس صورة حقيقية لتاريخه ؟ وهل يستطيع كاتب أن يصف ظروفه وأحواله التي كان عليها في حياته وصفا كاملا لا يفادر شيئا من تحديد زمن ميلاده ووطنه وأصول دينه كما دعا هو اليه ومبادئ دعوته وأهدافها ؟ الذي نعلمه أن ذلك كله محجوب عن علم الناس بظلمات كثيفة متراكمة ، وكل ما أمكن للباحثين أنهم حاولوا تعيين زمان وجوده بمحوادث راجوات بلاد (مكده) ولم يكن لهم سبيل سوى ذلك ، وتسنى لمؤرخ أن يقارن زمن هؤلاء الراجوات بملوك اليونان الذين كانت بينهم وبين راجوات مكده روابط

وأما دين الصين فلم نعلم عنه إلا قليلا بطريق الحدس ، ولم يصل العلم الى شيء يقيني عنه . و (كونفوشيوس) صاحب النحلة المعروفة في الصين نعلم عنه أقل مما نعلم عن بوذا ، مع أن المتنسبين لطريقته الدينية يبلغ عددهم مئات الملايين والامم السامية بعث فيها مئات من الرسل ، لكن التاريخ لم يحفظ لنا عنهم إلا أسماء بعضهم ، ولا نعلم عن هؤلاء الرسل - من نوح و ابراهيم وهود وصالح وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وزكريا ويحيى عليهم السلام - إلا بعض سيرهم وقليلا من صفحات حياتهم ، والذي نعلمه من ذلك لا يكاد يروي غلة أو يشفي علة . وحياة العظام لها نواح وأطراف ، وتخللها شعاب وعقبات ، في أطوار وأدوار . وما دام الذي غاب عن علمنا من ذلك أكثر بكثير من الذي عرفناه ، فكيف يتسنى لمن شاء أن يتخذ من سيرتهم أسوة كاملة لحياته في جميع أطوارها وهو لم يبلغه من سيرهم إلا قليل ؟

إن أسفار اليهود التي تضمنت سير هؤلاء الأنبياء قد خالج المحققين من العلماء ضروب من الشك في كل سفر من هذه الأسفار . على أننا إذا ضربنا صفحا عن هذه الشكوك نرى سير هؤلاء النبيين في تلك الأسفار ناقصة . مثال ذلك أحوال موسى المذكورة في أسفار التوراة ، إن مؤاني دائرة المعارف

البريطانية أنفسهم توصلوا إلى تحقيق أن هذه الاسفار دونت وجمعت بعد موسى عليه السلام بقرون كثيرة ، زد على ذلك أن التوراة الموجودة فيها لكل حادثة روايتان مختلفتان وحكايان متباينتان كما حقق ذلك بعض علماء الألمان ، وربما دفع بعض هذه الروايات بعضها فتعارضت أولها بأخرها . ونحن نواجه الوصف المتعارض في سير الرجال والحوادث جميعا ، ومن أراد أن يزداد علما بهذا الموضوع فليراجع مادة (بايبل) في الطبعة الأخيرة من دائرة المعارف البريطانية . وإذا كان الأمر كذلك فبأى منزلة من التاريخ نزل حوادث العالم من آدم إلى موسى عليها السلام ، وكيف نقدر قدر التاريخ الصحيح الثابت في هذه الأمور ؟

وأحوال عيسى عليه السلام وسيرته مكتوبة في الاناجيل ، والاناجيل - كما تملون - كثيرة ، غير أن أكثرية المسيحيين اقتضرت على أربعة أناجيل . أما (أنجيل الطفولة) و (انجيل برنابا) وغيرهما فلا يعتبرونها . ومع ذلك فإن الاناجيل الأربعة التي اقتصروا عليها لم يلقَ أحد من الذين جمعوها سيدنا عيسى عليه السلام . وإذا تساءلنا : عن رواة هذه الاناجيل ؟ نجد التاريخ يحمل ذلك كل الجهل . ويزداد المرء شكاً إذا توصل إلى حقيقة أخرى وهي أن الرجال الأربعة المنسوبة اليهم هذه الاناجيل الأربعة لا يمكن القطع يقينا بأنهم هم الذين جمعوها في الواقع . فاذا كان الأشخاص المنسوبة اليهم هذه الاناجيل لا يطمئن التاريخ إلى صدورها عنهم فكيف يطمئن إلى صحتها ؟

وزاد الطين بلة أننا لا نعلم يقينا اللغة التي كتبت بها هذه الاناجيل في الأصل ، وفي أي زمان كتبت . فقد اختلف مفسرو الاناجيل اختلافا شديداً في تعيين زمان جمعها وتدوينها ، فن قائل انها كتبت سنة ٦٠ للميلاد ، ومن قائل انها جمعت بعد ذلك التاريخ بكثير . وذهب بعض نقدة العلماء الأمريكين مذهبا بعيدا مستغربا في أمر المسيح ولادته ووفاته ودين التثليث فأنكر ذلك الناقد الأمريكي وجود المسيح عليه السلام قائل ان هذا كله من الاساطير ،

وان ما ذكره عنه انما هو بقية من بقايا وثنية الروم واليونان ، إذ أن تلك الأمم كانت تدين بمثل هذه الافكار والعقائد في آلهتهم وأبطالهم القدماء . وقد استمر الجدل أشهراً حول وجود عيسى عليه السلام في مجلة (روين كورت) التي تطبع في شيكاغو ، ودار البحث عما اذا كان للمسيح وجود تاريخي أم هو بما ابتدعه أو هام القدماء من الأمم السالفة واختلقته اختلاقاً . أليس كل هذا بما يوهن الأمر فيما يتعلق بعرض سيرة المسيح عليه السلام وموقف التاريخ من ذلك ؟ ونعود فنقول : كيف يمكن اتخاذ الاسوة الكاملة التي تطمن لها القلوب إن لم تكن جميع نواحي الحياة في الشخصية المقتدى بها معلومة ، وليس فيها ما يحمله الناس وما هو مكتوم عنهم وراء حجب التاريخ . إن المقتدى به والذي يتخذ الناس من حياته اسوة لا بد أن تكون حياته كلها واضحة صافية كالمرآة وليها كنهارها لتبين للناس المثل العليا التي يحتذونها في حياتهم بجميع أطوارها ومناحيها

إذا نظرنا إلى حياة أصحاب النحل ودعاة الملل وهداة البشر من الأنبياء والرسل نظر الناقد البصير ، وتأملنا هديهم وسيرهم ، لم نجد فيمن تقدم ذكرهم من يمكن أن يتخذ من حياته مثل أعلى للحياة الانسانية إلا محمداً ﷺ وهدية وسيرته ، فهو الذي أرسله الله ليكون فيه أسوة لبي آدم في جميع نواحي حياتهم وأطوارها وأحوالها . وقد سبق لنا القول بأنه ليس في مئات الألوف من المصلحين والنبیین من يشهد لهم التاريخ إلا ثلاثة أو أربعة ، ومع ذلك فإن التاريخ لا يعرف من تفاصيل أحوالهم وشئون حياتهم ودخائل سيرتهم إلا نزرأ يسيراً وغير كامل ، فكيف يتسنى للانسان أن يتخذ من ذلك أسوة لحياته ذات النواحي المختلفة ؟

أليس من المستغرب أن بوذا الذي يبلغ عدد المنتسبين اليه ربع سكان المعمورة ولا يحفظ التاريخ من سيرته إلا عدة أقاصيص وحكايات لو أننا فقدناها بمقاييس التاريخ لتتخذ لانفسنا قدوة من حياته وسيرته لخرجنا من

ذلك خاسرين . إن احدى تلك الأفاصيص تبشئنا بأنه ولد فى زمان غير معلوم فى واد من أودية (نيپال) فى بيت راجه ، فكان ذكيا وذا طبيعة متوثبة وله نفس متدبرة وقلب حساس . فلما بلغ أشده وتزوج وصار أباً ، اتفق أن رأى جماعة من الفقراء والبؤساء فأثر فيه منظرهم المؤلم وأثار فى نفسه كامن الرحمة والشفقة ، فخرج من وطنه هائماً على وجهه حتى بلغ (بنارس) ثم (كيا) و (پابلى بتر) وهى (بتنه) ثم (راجكبير) وهى (بهار) وتاه فيما بين ذلك من جبال وغابات ومدن وقرى ، ولم يزل هائماً على وجهه متجولاً بين هذه البقاع النائية حتى بلغ فى تجواله الى (كيا) فتجلت له الحقيقة المحجوبة وهو تحت شجرة من اشجار بيبل فرأى نور الحق ساطعاً ، وادعى أنه أدرك سره الحقيقية ، فخرج يدعو الناس الى دينه بين (بنارس) و (بهار) ثم مضى لسبيله . هذه جملة ما نعلم من سيرة بوذا وحياته

وزردشت يعد واحداً من الذين أسسوا بنيان الدين وبدأوا بالدعوة اليه ، وقد أسلفنا أن حياته مجهولة كذلك ، ولا يتبع أثرها الا أهل القياس والاستنتاج من علماء التاريخ . وأنا لا أقول شيئاً من عند نفسى فى سيرة زردشت ، بل أعرض عليكم نبذة مما كتب عنه فى دائرة المعارف البريطانية للقرن العشرين ، وهى تعد من أوثق المصادر فى التاريخ :

« إن زردشت الذى عرفناه من آيات شعرية فى (كاتا) غير زردشت الذى نراه فى (وستا) الجديدة ، فالموصوف فى المصدر الأول مبان للمذكور فى المصدر الثانى ومضاد له . وعلى كل فان الاسطورة التى تشتمل على الحياة المستغربة (وقد نقل الكاتب شئونا فى سيرته من كاتا) لا تدلنا على حياة زردشت دلالة واضحة ، ولا تهدينا السبيل الى معرفته معرفة تاريخية ، بسبب ما نجد فيها من غموض لا ندرك معناه

وأخذ الكاتب يسرد المصنفات التى وضعت فى هذا العصر عن حياة زردشت وقال : إن مولده لم يعين بعد ، والشهادات على ذلك يناقض بعضها

بعضا . والعهد الذي كان فيه زردشت مجهول كذلك ، فالمؤرخون من اليونان اختلفوا فيه اختلافا شديدا ، كما اختلف علماء عصرنا في تعيين عهده ، وانتهى كاتب ترجمته في دائرة المعارف البريطانية الى القول بأننا لا نعلم زمن زردشت ألبتة ونجمله جهلا تاما

و خلاصة ما نعلمه عن حياة زردشت أنه ولد في مقاطعة أذربيجان ، ونشر دعوته في بلخ وأطرافها ، وأن الملك هشتاسب دخل في دينه ، ثم ظهرت على يده معجزات ، وقد تزوج وولد له أولاد ثم توفي . فهل يظن أحد أن هذه المعلومات عن حياة رجل صاحب دعوة تكفي لأن يتخذ من حياته أسوة ، وأن يقتدى به في جميع مراحل الحياة فيكون للناس سراجا يستضيئون بنوره في تصرّفاتهم وسلوكهم ؟

ومن أكثر الأنبياء ذكرا وأوضحهم حياة موسى عليه السلام . ترى ماذا تقول أسفار التوراة الخمسة عن حياته ؟ ذلك ما نستعرضه بلا أي نقد لما فيه من روايات ضعيفة ، وغير متعرضين الآن لذكر صحفها أو سقمها ، بل نوردها مفترضين صحفها

لا نجد في هذه الأسفار الخمسة من التوراة عن حياة موسى إلا أنه بعد ولادته تربى في قصر فرعون ، ولما بلغ مبلغ الرجال نصر قومه بني إسرائيل على ظلم فرعون مرة أو مرتين ، ثم هرب من مصر الى (مدين) من بلاد العرب وتزوج فيها وأقام هناك برهة من الزمن ، ثم رجع منها الى مصر ، وبينما هو في طريقه اليها أوحى اليه من ربه ، وبعث الى قومه نبيا داعيا ، ثم لقي فرعون وأراه آيات بينات ، واستأذنه في الخروج ببني اسرائيل من مصر فلم يأذن له بذلك ، فخرج بهم على حين غفلة من فرعون ، ووجد في البحر طريقا باذن الله ، وتبعه فرعون فأدركه الفرق . أما موسى فقصد بقومه الى بلاد العرب ، ودخل بهم أرض الشام ، وجاهد من كانوا على الشرك من أهلها وما زال يقاتل ويجاهد إلى أن هرم وبلغ من العمر عتيا وأرعشه الكبر ،

جاءه الموت وهو على ربوة . وقد اختتم سفر التثنية بهذه الفقرات (٣٤ : ٥ - ١٠) :

« إن عبد الله موسى مات باذن الله في أرض موآب ، ودفنه الله في الجواء في أرض موآب مقابل بيت فغور ، ولم يعرف إنسان قبره إلى هذا اليوم . وكان موسى ابن عشرين ومائة سنة حين جاءه الموت . . . ولم يتم بعده نبي في إسرائيل مثل موسى »

هذه الفقرات نقلناها من سفر التثنية وهو السفر الخامس من التوراة الموحى الى موسى عليه السلام . ولا يخفى على ناظر هذا السفر أن الكلمات التي نقلناها لم ينطق بها موسى عليه السلام ، وهذا يدل على أن هذا السفر كله ، أو جزؤه الاخير على الأقل ، ليس لموسى ، وإن الدنيا تجهل كاتب هذه السيرة لموسى

وما يلفت نظر القارئ قول القائل في هذا السفر « ولم يعرف إنسان قبره (أى قبر موسى عليه السلام) إلى اليوم » وقوله « ولم يتم بعده نبي في إسرائيل مثل موسى » . إن هاتين الفقرتين تدلان على أن هذا الجزء الأخير من سيرة موسى عليه السلام قد أضيف إلى كتاب حياته بعد أيام طويلة ذهبت فيها يد الدهر بآثار هذا المزار العظيم والمشهد الكبير حتى عمى محله عن الأجيال التالية ونسوه ، بل أضيف هذا الجزء من سيرة موسى الى سفر التثنية بعد زمان طويل كان يرجى فيه أن يقوم في إسرائيل نبي يسد فراغ موسى ، فنوه كاتب السفر بأنه لم يتم بعده مثله

إن موسى عليه السلام عمّر طويلا ، وقد نساأ الله في أجله حتى عاش عشرين ومائة سنة ، فما الذى نعرفه عن حياته الطويلة ، وبأى الأعمال شغل فراغ حياته المباركة ، وما هى النواحي التي نعلمها واضحة مفصلة من سيرته الحافلة بكثير مما كان ينبغي أن يعلم لتحسن به الأسوة ؟ إننا لا نعلم إلا مولده وشبابه وهجرته وزواجه وبعثته ثم قتاله المشركين الى أن لقيناه مرة أخرى وهو

يرتعش من السكر وقد أدركه الهرم وبلغ من العمر عشرين ومائة سنة . وهل
يفينا ذكر ما يتعلق بحياته الخاصة بما يمر بكل إنسان في حياته وبيئته العادية ؟
إن الأمور التي كان يحتاج البشر الى معرفتها من حياة موسى الاجتماعية هي
الأخلاق والعمادات والهدى ، وكل ذلك لا نجده في سيرته . أما ذكر أسماء
الرجال وأنسابهم وأما كنهم وبلادهم وعددهم فما لا يهمنا عليه في مقام القدوة
والأسوة والهداية ، مع أنه هو الذي نراه مفصلاً في التوراة . وكذلك نرى
فيها شيئاً كثيراً من القوانين والمبادئ والأصول ، لكن هذه الأمور والتي
سبقها مهياً تكن أهميتها عند علماء الجغرافيا والانساب والحقوق فانها لا تعيننا
نحن من جهة الأسوة والقدوة في الحياة ولا تسد الخلل الواقع في سيرة موسى
عليه السلام من هذه الناحية التي لا يكمل بيانها إلا بذكر أخلاقه وشؤون
حياته وأحواله في معاشرته ، وهو ما لا بد منه ليتخذة البشر مثالا يعمل به

ومن أقرب الأنبياء عهداً بالاسلام عيسى عليه السلام الذي يزيد عدد
المنتسبين اليه بحسب إحصاءات الاوربيين على عدد المنتسبين الى الديانات
الآخري ، وإن المرء ليستغرب حين يعلم أن شؤون حياته وأحوال معيشته
أخفى من غيره وأغمض ، وقد أسدل الزمان عليها حجاباً أكثف مما نراه في
حياة العظماء الآخريين من الرسل الذين يعدون من أصحاب الأديان المشهورة .
وإن أوربا المسيحية قد حملها حافز البحث والكشف على أن تستثير بطون
الصغارى وقلل الجبال واطراف الصخور والاطلال الدارسة ومظان الآثار
ومجالات الحوادث التي مرت عليها الأحقاب الطويلة ، فكتبت المستشرقون
التاريخ القديم لبابل وأثور والعرب والشام ومصر وإفريقية والهند وتركستان
وأخذوا يلاثمون بين الحوادث القديمة المجهولة الزمن ويعرضونها على الناس
واضحة نقية منسقة مرتبها بعضها ببعض ، وطفقوا يعثرون على الصفحات
المفقودة من كتاب التاريخ القديم للبشر ، إلا أنهم قد أعياهم البحث والفحص
فلم يجدوا الصفحات المفقودة عن حياة نبيهم . وقد استفرغ العلامة رينان

جهده ولقى من العناء والنصب مبلغا عظيما ليقف على حياة عيسى كاملة تامة ،
ومع ذلك فان شئون عيسى عليه السلام وأحواله لا تزال سرا مكنونا في ضمير
الزمن لم يسبح به لسانه بعد

إن عيسى عليه السلام عاش في هذه الدنيا ثلاثاً وثلاثين سنة كما يروى
الإنجيل ، والأناجيل الموجودة في الأيدي — على ما في رواياتها من ضعف
ولبس — مقصورة على ذكر أحواله لمدة ثلاث سنوات من أواخر حياته
وحسب ، فنحن لا نعلم عن حياته علم اليقين إلا أنه ولد ، وجرى به الى مصر ،
وأراه الله آية أو آيتين في صباه ، ثم غاب عن الناس وظهر لهم وهو في الثلاثين
من عمره ، فنراه قائما يعظ الملاحين وصيادي السمك على الشواطئ وفي
بعض الربوات ، فصحبه جماعة من حواريه ، وقد جادل اليهود وناظرهم في
بعض الأحيان ، إلى أن حمل اليهود الحكام الروميين على القبض عليه ورفع
أمره الى محكمة يرأسها قاض من الروم فقضى عليه بالصلب ، وبعد ثلاثة أيام
وجد قبره خاليا من جسده عليه السلام

أين قضى عيسى عليه السلام الثلاثين أو الخمس والعشرين سنة على الأقل من
حياته؟ وفيم قضاهها؟ وبأى الأعمال شغل هذا الفراغ الواسع من عمره؟ إن
الدنيا لا تعلم عن ذلك شيئا ولن تعلم . والسنوات الثلاث الأخيرة ماذا نجد
فيها؟ آيات ومعجزات معدودات ، وبعض العظات ، ثم قيل انه صلب
فانطوت صحيفة حياته

من الشروط المحتمة التي لا بد منها لسلك من يرجى أن تكون سيرته
وهدايته أسوة للبشر : السكال ، والتام ، والجمع . والمراد بالسكال والتام
والجمع أن الطوائف الانسانية المتفرقة ، والطبقات البشرية المختلفة تحتاج إلى
أمثلة كثيرة ومتنوعة تتخذها منهاجا لحياتها الاجتماعية . وكذلك الافراد في
المجتمع البشرى هم في حاجة إلى مثل عليا يقتدون بها في مناحي حياتهم البيئية
لتوثق الروابط بين الافراد ، وتحسن العلاقات بين شتى الطوائف في داخل

الأسرة وخارجها . لذلك ينبغي أن تكون تلك المثل كلها واضحة في حياة الإنسان العظيم الذي يتخذ مثالا في الحياة . وإذا صحت هذه النظرة - وهي صحيحة - لم نجد في سالف الأيام قدوة واضحة للحياة غير محمد خاتم النبيين عليه وعليهم السلام . والدين هو طاعة المخلوق للمخالق ، وبالدين يتعلم المرء ما فرضه الخالق على خلقه من فرائض وما أوجبه من واجبات ، فيؤمن بها ويحققها بالعمل . وإذا أردنا أن نعبر عن الدين بعبارة أخرى قلنا هو القيام بحقوق الله وحقوق خلقه ، إذن فيجب على كل متبع لدين أن يتعرف هذه الحقوق والفرائض والواجبات من سيرة نبيه والأحوال التي كان عليها صاحب ملته ثم يقتدى بها ويفرغ حياته في قالبها . وإذا نظرنا إلى سير الأنبياء هذه النظرة وحاولنا معرفة حقوق الله وحقوق خلقه كاملة تامة من سيرتهم ، لم نجد ذلك إلا في سيرة محمد ﷺ المبعوث إلى الناس كافة

والديانات إذا تأملناها يبدو لنا أنها على نوعين : نوع لا نجد فيه ذكر الله تعالى البتة ، ومن هذا النوع دين بوذا ودين الصين ، فليس فيها ذكر لله تعالى ولا لصفاته ، وليس فيها فرائض وواجبات على الإنسان ، ومن باب أولى ليس فيها ذكر للحب في الله وتوحيده والاخلاص له ، فالذي يبحث فيها عن هذه الأمور لا يخرج من بحثه بشيء

ونوع آخر ورد فيه ذكر الله عز وجل ، وسلوا فيه بوجوده على وجه ما ، وآمنوا به إيمانا بالجملة ، لكنك لا ترى في سير أنبيائه أو في تعاليم دعائه ما يعرف منه الإنسان كيف يعتقد بربه ، وكيف يؤمن به ، وبأى الأوصاف يصفه ، وكيف كان هؤلاء يعتقدون بالله وإلى أي حد تأثروا بتلك العقائد في أعمالهم وأخلاقهم ، وفي أي صورة من صور الأعمال تجلت عقائدهم وبرزت للوجود . كل هذا لا ترى له أثر في سير هؤلاء . اقرأ التوراة واستقص النظر في فصولها وفقراتها وتدبر ذلك ما استطعت فانك لن تجد فيها إلا توحيد الله وشرائط القربان وشيئا من الأحكام ، أما إذا أردت أن

تعرف من الأسفار الخمسة التي تتألف منها التوراة شيئاً عما كان في قلب موسى عليه السلام من الحب لله والشوق للقاءه ، وكيف كان يطيع الله ويعبده ، وكيف كان توكله على الله ويقينه به ، ولم أثرت الصفات الإلهية على قلبه ، فانك لا تجد فيها شيئاً من ذلك . ولو كانت الشريعة الموسوية وأحكامها عامة للبشر دائمة بدوام الدهر لكان واجباً على أتباع موسى عليه السلام أن يقيدوها بالحفظ والكتابة وأن يصونوها من عبث الدهر بها ، لكن الله عز وجل لما لم يرد أن تكون شريعته عامة خالدة لم يتح لها هذه العناية في الحفظ والتخليد

والانجيل مرآة صافية تجلّت فيها حياة عيسى عليه السلام ، لكننا نجد فيه أن الله (تعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً) هو أبو عيسى عليه السلام . أما كيف كانت رابطة الأبوة بين هذا الولد المقدّس ووالده ، فإن الولد يخبرنا بأن أباه كان يحبه حباً جما ، لكننا لم نعلم إلى أي حد بلغ حب الولد لوالده وكيف كانت طاعة الابن لأبيه ، وهل كان يركع له ويسجد في النهار أو في الليل ، وهل سأله شيئاً غير خبز يومه ، وهل دعا أباه بدعوة في ليلة من الليالي قبل الليلة التي اعتقل في نهارها ؟ إننا لا نعلم هذا ولا ذلك

ولو أن سيرة سيدنا عيسى عليه السلام المذكورة في الانجيل تحتوي على بيان العلاقة بين المخلوق وخالقه وتهدى المرء إلى ذلك هداية تامة لما احتاج أول ملوك المسيحية أن يعقد مجلساً شهده ثلاثمائة حبر من أجبّار الكنيسة بعد ثلاثة قرون ونصف قرن من المسيح ، ليبتوا الحكم في أمر المسيحية . ومع ذلك بقى أمر سيدنا عيسى عليه السلام سرّاً من أسرار الزمان ، وسبق سرّاً في ضمير الزمان لا يعرب عنه لسان البحث

هذا فيما يتعلق بحقوق الله ، أما حقوق الخلق فلا نراها مفصلة أحكامها ، بحكمة أصولها وأركانها ، في سيرة أحد من الأنبياء وتعاليمهم ، غير محمد صلى الله عليه وآله . أما بوذا فانه منذ هجر أهله وعياله إلى الصحارى والغابات لم يرجع قط إلى حليلته التي كانت حبيبة إلى قلبه ، ولم ير ولده الوحيد مرة أخرى ، وترك

خلانه وأحبائه ، تخفف عن كاهله أعباء الحكم ، وارتضى الموت آخر وسيلة له الى النجاة ، فكان الاجل المحتوم الغاية القصوى للحياة البشرية عنده . فن ذا الذى يرضى بأن يتخذ من حياة بوذا أسوة في هذه الدنيا التي لا بقاء لها ولا عمران الا بالحياة الاجتماعية والروابط العمرانية والأواصر الانسانية ، ولا بد فيها من راع يرعى رعيته ، وصديق يألف صديقه ، ووالد يشفق على ولده ، وأم تحن على فلذة كبدها . وهل في حياة بوذا شئ من ذلك يكون به أسوة للجميع : من الرهبان الذين انقطعوا للأخرة ، الى الآباء ذوى العيال وأصحاب الضياع والمزارع والمصانع والأموال ؟ كلا ثم كلا ، لم تكن سيرة بوذا قط أسوة للهناء العائلي ، ولا لأهل الصناعات والمتاجر ، ولو اتخذ أتباع بوذا قدوة لهم من حياة بوذا لما قامت لهم هذه الدول في الصين واليابان وسيام وتبت ومبرما ، ولما عمرت للتجارة في بلادهم سوق ، ولا دب الحياة في صناعاتهم ومصانعهم . ولو اختار أهل تلك البلاد سيرة متبوعهم سيرة لهم وساروا عليها لأقفرت الأرض العامرة وتحولت الى صحارى قاحلة ، ولا أصبحت المدن خراباً أو أرضاً جرداء .

وأما موسى عليه السلام فلا نعلم عن حياته - حسب الاسفار الخمسة من التوراة - إلا قتاله وقيادته في الحرب وبسالته فيها . أما النواحي الأخرى من حياته كالحقوق في أمور الدنيا والفرائض والواجبات فلا نتبينها بوضوح وجللاء ، لذلك يتعذر على المرء أن يتخذ منها أسوة في أعماله . ومن يحاول أن يقف على ما ينبغى أن تكون عليه العلاقة بين الزوج وزوجه ، والولد ووالده ، وشروط الصداقة بين الصديقين ، وأساليب الهدنة بين الفريقين المتقاتلين ، وكيف ينفق المرء أمواله وفيم ينفقها ، وكيف يعامل اليتامى والفقراء والمساكين ، فإن من يحاول معرفة ذلك من سيرة موسى عليه السلام فسيرى أن صحيفة حياته قد خلت من ذكر هذه الامور ، مع أن موسى كان له زوج وإخوة وأقارب ، ولا ريب أن موسى كان يعاشرهم أحسن معاشرة

فكان خير زوج لاهله وأفضل أخ لإخوته وأوفى صديق لأصدقائه، والاسوة به في ذلك كله مرغوب فيها محمود أثرها، لكن كتبهم التي استعرضت سيرته خالية من ذلك. والتاريخ لم يطرق سمعه شيء عن هذه الأبناء من حياة موسى ليتسنى للناس أن يتخذوا منها أسوة في الحياة

وكان لعيسى عليه السلام أم، والانجيل يخبرنا بأنه كان له أخ وأخت بل أنه كان له والد أيضاً كما يكون لعامة الأبناء آباء وأمهات، لكن قصة حياته لا تدلنا على كيفية معاملته لذويه وكيف كان يعاشرهم، مع إن الدنيا معمورة بالإخوة والحلان وذوى القربى، وسبق حافلة بهم، وقد اعتدت البيانات بحقوق هؤلاء وأولئك وفرضت كثيراً من فرائضها المتعلقة بحقوق الأسرة والعائلة، وحثت على القيام بتلك الفرائض

إن عيسى عليه السلام عاش عيشة المغلوبين المحكومين، فلا غرو إذا لم نجد في حياته مثالا من واجبات الحاكم الغالب. ولم يكن له عليه السلام زوجة لذلك لا نرى في حياته مثالا لما ينبغي أن يتبادل الزوج والزوجة من واجبات وحقوق، خصوصاً وأن الذى بين الزوجين من الصلة أوثق وأشد من الذى بين الأولاد وآبائهم كما جاء في سفر التكوين من التوراة (١) أن هذه الدنيا معظم سكانها يعيش عيشة الزواج والمناكحة فليس له في حياة عيسى عليه السلام مثال. وإن العالم الذى يحتاج سكانه في حياتهم إلى أسوة تامة ليعلموا كيف تكون الرابطة بين الزوج وزوجه، وبين الصديق وأصدقائه، والآب وبنه والمقاتل وأعدائه، والهدنة بين المتحاربين وكيف تنعقد لا يستطيع أن يجد له أسوة في حياة من لا يجد لهذه الأمور ذكراً في سيرته. ولو أن الناس في أيامنا هذه آثروا التأسى بحياة عيسى عليه السلام وأرادوا أن يعيشوا كما عاش لحربت الدنيا واستحال عمرانها خراباً ياباً ولاصبحت القرى مقابر تتردد

(١) لعل المؤلف يشير إلى ما جاء في سفر التكوين (١ : ٢٧ و ٨ : ١٥ - ١٩)

في أنحائها أصوات البوم . أما الحضارة وتقدمها فسرعان ما يعترهما الزوال ويمحى اسمهما ، وأوربا المسيحية لن تبقى بعد ذلك يوماً واحداً

إن الحياة المثالية لن تكون أسوة للناس ما لم تكن أعمال صاحبها - الذي يؤسس ديناً ويدعو الناس اليه - مثلاً - وأ نموذجاً لما يدعو اليه ، ولا يتطرق الشك الى الناس بأن ما يدعو إليه هو بما يعمل به . ومن السهل أن يدعو الداعي إلى فلسفة تحظى باعجاب الناس ، وإلى فكرة يستحسنونها أو نظرية جديدة في الحياة تروق لهم ، وكل ذلك مما يقدر عليه كثير من الناس متى شاءوا وأين شاءوا . أما الذي لا يستطيع دائماً فهو عمل الدعاة بما يدعون اليه . وليست الأفكار الصحيحة والنظريات الشائقة والأقوال الحسنة هي التي تجعل الانسان انساناً كاملاً وتجعل من حياته أسوة للناس ومثلاً أعلى في الحياة بل أعمال الداعي وأخلاقه هي التي تجعله كذلك . ولولا ذلك لما كان هناك فرق بين الخير والشر ، ولما تميز المصلح عن غيره ، ولا امتلأت الدنيا بالثرثارين والمتفهبين الذين يقولون ما لا يفعلون

وهنا ينبغي لنا توجيه السؤال الى العالم أجمع : من ذا الذي تعدد حياته أسوة للبشر ، وفيها المثل الأعلى للبشر ، من بين مئات الألوف من الرسل والأنبياء وعظماء المصلحين ممن شرعوا للانسانية دياناتها وسنوا السنن للناس ؟

« تحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك . أحبب أعداءك . من لطمك على خدك الايمن فحول له الآخر أيضاً . من سخرك ميلاً فاذهب معه ميلين . من أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضاً . اذهب وبع أملاكك وأعط الفقراء . واعف عن أخيك سبعين مرة . يعسر أن يدخل غنى الى ملكوت السموات ،

إن هذا وأمثاله لا شك أنه من الموعظة الحسنة المحببة الى النفوس ، لكنها لا تعدد سيرة ما لم يقترن بها العمل . نعم انها قول لين وحديث لذيد ، ولكن

الذى لا يغلب عدوه كيف يتسنى له العفو ، ومن لا يملك ومن لا يكون له مال كيف يتصدق على الفقراء والمساكين واليتامى ، وكيف يقضى لهم حاجاتهم ؟ ومن لا زوج له ولا ولد ولا أهل كيف تكون حياته أسوة للزواج وذوى البنين والمتأهلين وهم هم الناس الذين تعمر الدنيا بهم ؟ ومن لم يتفوق له أن يصفح عن أحد في حياته كيف يقتدى به من كان شديد الغضب سريع البادرة ؟

الحسنات قسبان : قسم سلبي ، وآخر إيجابي . وأنت إذا اعتزلت الدنيا في غار بسفع جبل تعبد فيه ربك ولم تبرحه طول حياتك ، تصرف فيه أوقانك بالتبتل الى الله ، فإن أحسن ما يقال في مدحك أنك اتقيت الشر ولم تقترف سيئة تدم عليها . وذلك من الحسنات ، إلا أنها حسنات سلبية . ولكن ماذا فعلت من الناحية الإيجابية من خير : هل حملت كلاً ، أو نصرت مظلوماً ، أو كسبت معدماً ، أو أطعمت جائعاً ، أو كسوت عارياً ، أو ساعدت فقيراً ، أو ذدت عن ضعيف ، أو هديت ضالاً ؟ إن الاخلاق الحسنة ومكارمها من العفو والسماحة والقرى وبذل المال والصدع بالحق والحمية في قمع الباطل والجهاد في أداء الواجب لا تعد مكارم أخلاق لأجل ترك الدنيا والتبتل في عزلة عن المجتمع . وليست الحسنات من الأمور السلبية بحسب ، بل معظم الحسنات ترجع الى العمل الايجابي الذي يقوم به المرء ، ولا يكفي فيها ترك المعاصى واجتناب السوء . وهذا كله يدل على أن حياة العظیم لا تكون فيها الأسوة للناس ما لم تصدر عن صاحبها الاعمال الايجابية المحمودة والأخلاق النافعة الكريمة بما يوافق الحياة المثالية *Idial life* ، وأى عمل يعمله المتأسى إن لم ير لمن يأتي به أعمالاً إيجابية تتم بها الحياة الصالحة في شتى أطوارها . إن الانسان ينشد مثلاً يقتدى به في كل عمل يقدم عليه في غناه وفقره وفي سلبه وحره ، ويتحرى السبيل الذي يسلكه إذا تزوج أو بقي عزباً ، ويريد أنموذجاً عالياً يأتيهم به إذا عبد ربه أو عاشر الناس ، ويحاول أن يلهم بالقوانين التي ينبغى العمل بها بالنسبة الى الراعى والرعية والحكام والمحكومين . جميع

هذه الأمور ينبغي للمرء أن يتخذ لنفسه القدوة فيها ، لأن الأهم قد التوت عليها هذه المسألة فأهمها الناس الطريق الموصل الى حل هذه المعضلات وتذليل هذه المصاعب . ومعظم الشعوب تشعر بالحاجة الشديدة الى المثل العليا في ذلك لتخفف عن الانسانية آلامها وتأسو جراحها ، وهي متلهفة على مثال لذلك من الأعمال ، لا على مثال عليه من الأقوال

ولست بمبالغ إذا قلت : إن التاريخ أصدق شاهد على أنه ليس في الدنيا أحد يصح أن تكون للانسانية اسوة من سيرته وحياته غير سيرة محمد ﷺ وحياته وليكن على ذكر منكم ما تحدثت به اليكم من قبل ، وهو أن حياة العظيم التي يجدر بالناس أن يتخذوا منها قدوة لهم في الحياة ، ينبغي أن تتوفر فيها أربع خصال :

١ — أن تكون تاريخية ، أي أن التاريخ الصحيح الممحص يصدّقها ويشهد لها

٢ — أن تكون دجامة ، أي محيطة بأطوار الحياة ومناحيها وجميع شئونها

٣ — أن تكون كاملة ، أي أن تكون متسلسلة لا تنقص شيئا من حلقات الحياة

٤ — أن تكون عملية ، أي أن تكون الدعوة الى المبادئ والفضائل والواجبات بعمل الداعي وأخلاقه ، وأن يكون كل ما دعا اليه بلسانه قد حققه بسيرته وعمل به في حياته الشخصية والعائلية والاجتماعية ، فأصبحت أعماله مثلا عليا للناس يأتسون بها . وأنا لا أقول إن الانبياء صفرت صحائف حياتهم من هذه الميزة مدة وجودهم في الحياة الدنيا ، بل أقول ان سيرتهم التي توجد الآن بين أيدي الناس لا تنص على هذه الأمور ، ويحيل الى أن الحكمة الإلهية في ذلك ترجع الى أن أولئك الانبياء إنما بعثوا لازمانهم وشعوبهم ، فكان الموفقون للخير من شعوبهم في أزمانهم يرون سيرتهم فيأتسون بها ،

ولم يكن هنالك حاجة إلى أن تبقى سيرتهم معلومة للأجيال التالية بعدهم لأن
النبؤات ستختم برسالة محمد ﷺ الكاملة إلى الناس كافة في كل زمان ومكان ،
فست الحاجة إلى أن تكون سيرته ﷺ معلومة على حقيقتها في كل زمان
ومكان إلى يوم القيامة ، ليتيسر التأسي بها لجميع أمم الأرض . وهذا من
أصدق البراهين على كون محمد ﷺ خاتم النبيين ولا نبي بعده (ما كان محمد
أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين) الأحزاب : ٤٠

المحاضرة الثالثة

السيرة النبوية ، من الناحية التاريخية

أيها السادة . قلنا فيما سبق إن الحياة المثالية جدير بها أن تكون مشتملة على خصال أربع . وسننظر الآن إلى سيرة محمد ﷺ من هذه النواحي ، وأولها أن تكون سيرة « تاريخية » ،

لقد شهدت الدنيا أصدق شهادة ، ثم ازداد ذلك ثبوتاً على الأيام ، بأن الإسلام لم يقتصر على حفظ سيرته ﷺ ، بل توسع في ذلك إلى ما يتعلق بها من كل النواحي ، وصان هذه الأمانة القدسية فلم تلسها يد الضياع ، ولم تعبت بها عوامل الدهر ، إلى درجة أن العالم كله يقف من ذلك موقف العجب والاستغراب . والذين وقفوا حياتهم منذ العصر النبوي على حفظ أقوال النبي ﷺ ورواية أحاديثه وكل ما يتعلق بحياته أدوها إلى من ضبطوها بعدم كتبوها وصاروا يسمون « رواة الحديث » ، أو « المحدثين » ، و « أصحاب السير » ، وهم طبقات متسلسلة من « الصحابة » ، و « التابعين » ، و « تابعي التابعين » ، حتى وافى القرن الرابع . فلما كملت هذه الذخيرة التاريخية جمعاً وكتابة وتدويناً جعل العلماء يكتبون سير هؤلاء الرواة من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من العلماء الذين رروا شيئاً مما يتعلق بحياة رسول الله ﷺ ، فكتبوا أسماءهم وكناهم وأنسابهم ومنشأهم وأخلاقهم وعاداتهم ، وبالجملة أحصوا شؤون حياتهم كلها حتى أصبح ما كتبوا في هذا الباب علماً مستقلاً سمي فيما بعد « علم أسماء الرجال (١) » ،

(١) إن العالم الألماني المعروف الدكتور سپرنكر كان في سنة ١٨٥٤ وما بعدها موظفاً في ديوان من دواوين المعارف في إيالة البنغال وأمين السر للجمعية الآسيوية فيها . وقد عني

وقد بلغ عدد الصحابة رضى الله عنهم في آخر حياة النبي ﷺ — عندما حج حجة الوداع — مائة ألف ، ومن هؤلاء عشرة آلاف صحابي مذكورة أسمائهم وأحوالهم في كتب التاريخ التي أفردت لتدوين أحوالهم خاصة . وإن التاريخ لم يهتم بتدوين أحوالهم ولم يحفظ لنا شئونهم إلا لأن كل واحد منهم حفظ شيئاً من أقوال النبي ﷺ وأفعاله وتصرفاته وهدية وسيرته

لقد توفي رسول الله ﷺ سنة ١١ من الهجرة النبوية ، وبقي فريق من كبار الصحابة بعده الى سنة ٤٠ ، وبقي بعد ذلك من الصحابة الذين كانوا أحدائنا في حياة النبي ﷺ عدد غير قليل . فلما انقرض ذلك الجيل لم يبق من الصحابة أحد ، وانظفاً كل سراج أوقد بنور النبوة . وإليكم أسماء آخر من مات من الصحابة ، والبلاد التي ماتوا فيها ، وسنوات وفاتهم :

سنة الوفاة	المدن التي توفوا فيها	آخر الصحابة موتاً
٨٦	الشام	١ - أبو أمامة
٨٦	مصر	٢ - عبد الله بن الحارث بن جزء
٨٧	الكوفة	٣ - عبد الله بن أبي أوفى
٩١	المدينة	٤ - السائب بن يزيد
٩٣	البصرة	٥ - أنس بن مالك

وأنس بن مالك هذا الذي كان آخر من بقي من الصحابة كان الخادم الخاص لرسول الله ﷺ ، استمر في خدمته عشر سنوات متوالية

== بكتاب المغازي للواقدي ، ونشر بعناية فان كرامر وتصحيحه سنة ١٨٥٦ ، وبعنايته طبع كتاب الاصابة في أحوال الصحابة للحافظ ابن حجر العسقلاني . وقد ادعى أنه أول أوربي كتب في سيرة محمد صلى الله عليه وسلم معتمداً على المصادر العربية الأولى ولم يعتمد في تأليفه إلا عليها . ومع أنه من الحقيقة — لم يكتب كتابه دفاعاً عن صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم بل كان متعاملاً عليه ومخالفه ، إلا أنه قال في مقدمته بالانجليزية على كتاب الاصابة المطبوع في كلكتة سنة ١٨٥٣ - ١٨٦٤ : « لم تكن فيما مضى أمة من الأمم السالفة ، كما أنه لا توجد الآن أمة من الأمم المعاصرة ، أتت في علم أسماء الرجال بمثل ما جاء به المسلمون في هذا العلم العظيم المحظور الذي يتناول أحوال خمسمائة ألف رجل وشئونهم »

أما التابعون الذين هم تلاميذ الصحابة فيبدأ تاريخ طبقتهم من السنة الأولى للهجرة ، ومنهم من ولد في عهد النبي ﷺ لكنه لم يتشرف برؤيته ، أو كان في العهد النبوي صغير السن فلم يحظ بالصحبة ولم يقدر له أن ينال قبسا من مشكاة النبوة ، كعبد الرحمن بن الحارث المولود سنة ٣ ، وقيس بن أبي حازم المولود سنة ٤ ، وسعيد بن المسيب المولود سنة ١٤ . وهؤلاء التابعون الذين ينزلون المنزلة الثانية بعد الصحابة في نشر الاسلام وتبليغ دعوته قد حملوا الرسالة المحمدية الى الانحاء النائية والبلاد المترامية الأطراف ، ولم يكن لهم هم في الدنيا إلا حفظ الدين ونشر أحكامه ، وتبليغ الاسلام وتعميم سنته وآدابه ، والتعريف بسيرة الرسول ﷺ وهدية . وقد ذكر ابن سعد في الطبقات ١٣٩ من التابعين أهل الطبقة الأولى الذين كانوا في المدينة وأدركوا كبار الصحابة وسمعوا منهم أحاديث النبي ﷺ ورووها عنهم . وذكر ١٢٩ من الطبقة الثانية الذين لقوا عامة الصحابة ورووا عنهم . أما الطبقة الثالثة من التابعين فهم الذين حظى الواحد منهم برؤية صحابي واحد أو عدة من الصحابة ، وعدد هؤلاء ٨٧ ، فجموع عدد التابعين ٣٥٥ في مدينة واحدة وهي مدينة الرسول ﷺ ، فقيسوا على ذلك عدد الذين أخذوا عن الصحابة في بقية المدن الاسلامية التي انتشر الصحابة فيها من مكة الى الطائف والبصرة والكوفة ودمشق واليمن ومصر وغيرها . وهؤلاء — كما علمت — لم يكن لهم هم إلا نشر رسالة الاسلام وتبليغ أقوال النبي ﷺ وهدية وسيرته . وانظروا الى اهتمام المؤرخين باستيعابهم واستقصاء أحوالهم في إحصاء الأحاديث المروية عن الصحابة . واليك أسماء بعض الصحابة الذين امتازوا بكثرة ما يحفظونه من الحديث النبوي وعدد ما روى عنهم منه :

سنة وفاتهم	عدد مروياتهم	أسماء الرواة من الصحابة
٥٩	٥٣٧٤	١ — أبو هريرة
٦٨	٢٦٦٠	٢ — عبد الله بن عباس
٥٨	٢٢١٠	٣ — عائشة الصديقة

٧٣	١٦٣٠	٤ — عبد الله بن عمر
٧٨	١٥٦٠	٥ — جابر بن عبد الله
٩٣	١٢٨٦	٦ — أنس بن مالك
٧٤	١١٧٠	٧ — أبو سعيد الخدري

وعلى هؤلاء يعتمد في نقل السنة النبوية . وإلى هؤلاء يرجع الفضل في حفظ الرسالة المحمدية . وإن رواياتهم هي التي تدل على النبوة الواضحة والمحجة البيضاء ، فإذا نظرنا إلى اعوام وفاتهم بدا لنا أن الله عز وجل قد نسا في آجالهم وأطال حياتهم وأخر موتهم ، حتى تسنى لكثير من الناس أن يتلقوا عنهم ما حفظوه من أمانات الحديث النبوي ، ويعوا أقوالهم ، وينشروا رواياتهم . ولم يكن العلم يومئذ إلا معرفة هذه الأمور . وبه كانوا ينالون شرف الدين وعزة الدنيا . فكان الآلاف من الصحابة يباغون إلى الجليل الذي بعدهم ما رأوه بأعينهم وسمعوه بأذنانهم من أحوال النبي ﷺ وأقواله وتشريعه ، لأنه ﷺ هو الذي أمرهم بذلك فقال : « بلغوا عني ، و لا يبلغوا عني » ، فكانوا يعلمون أولادهم وإخوانهم وأصحابهم وأقرباءهم من الدين والعلم كل ما كانوا يعلمونه ، فكان ذلك شغلهم وهمهم أثناء الليل وأطراف النهار وفي الغدو والآصال ، فتعلم النشء الإسلامي الأول حقائق رسالة الإسلام وتفاصيل حياة الرسول منذ ترعرعوا في بيئاتهم التي كانت ساحات للعلم ومدارس يتقبلون في حجرها ، وما لبثوا أن قاموا مقام الصحابة وسدوا مسداتهم في حفظ هذه الأحاديث ووعي هذه المرويات ، فكان هؤلاء التابعون يحفظونها كلمة كلمة ، ويعيدون روايتها بألفاظها دون أن يخرجوا منها كلمة . وكما كان رسول الله ﷺ يحرص الصحابة على أن يبلغوا عنه ويفقهوا تشريعه وينشروا دعوته وأحكامه ، كان ينهى الناس عن أن يتقوا لولا عليه مالم يقل ، أو ينسبوا إليه مالم يفعل ، وكان يندر من يعتمد الكذب عليه بأنه سيبوأ نار جهنم ، لذلك كان كبار الصحابة ترتعد فرائصهم وتمتقع وجوههم عند رواية أحاديث الرسول خوفاً من أن يكذبوا عليه أو ينحلوه مالم يقل .

وكان عبد الله بن مسعود إذا قال ، قال رسول الله ﷺ ، استقلته الرعدة
وقال ، هكذا ، أو نحوذا ، أو قريب من ذا ،

ومن المعلوم أن ذاكرة العرب كانت قوية ، وكانوا يحفظون آلافاً من
الشعر ، وبشدونها عن ظهر قلب بلا زيادة ولا نقص . ومن طبيعة البشر
أنهم إذا أكثروا استعمال قوة من قواهم تزداد هذه القوة قوة وحيوية . وقد
مرن الصحابة والتابعون على حفظ الأحاديث حتى بلغوا في ذلك شأواً بعيداً ،
وكانوا إذا سمعوا حديثاً وعروه وحفظوه كما يحفظ الصبيان سورة الفاتحة في هذه
الأيام . والمحدثون كانوا يحفظون ألوفاً من أحاديث الرسول بل مئات
الألوف ويكتبون بعد ذلك ما كانوا يسمعون ويحفظون ، لكنهم لا يبلغون
منزلة الاجلال والاكرام بين العلماء وعند الناس إلا بما يحفظونه من
المرويات عن ظهر قلب ، ولذلك كانوا يخفون كراريسهم وصحائفهم عن الناس
ويكتبونها لئلا يظن الناس بهم أنهم يعتمدون في علمهم على هذه الصحائف
ولا يحفظون محتوياتها في صدورهم

سادتي . إن بعض المستشرقين ودعاة المسيحية - وفي مقدمتهم السرايم
ميور وغولد زهير - أرادوا أن يشككوا الناس في رواية الحديث بما زعموه
من أن تدوين السنة بدأ بعد وفاة النبي ﷺ بتسعين سنة ، وقد ذكرت لكم
فيما سلف كيف كان الصحابة والتابعون يعنون بالأحاديث ويحفظونها ويحفظون
في روايتها حتى لا يبقى مجال للشك في صحتها وصدقها

والذي دعا الصحابة الى أن لا يقيدوا الأحاديث بالكتابة ثلاثة أمور :
أولها أن رسول الله ﷺ نهاهم في بداية الأمر عن أن يكتبوا عنه غير القرآن
لكيلا يلبس القرآن بغيره ، فلما حفظ القرآن فصار معروفاً ولا يأتيه الباطل
من بين يديه ولا من خلفه أذن للصحابة بأن يكتبوا ما يسمعون منه ، ومع
ذلك بقي الصحابة يحفظون في ذلك احتياطاً شديداً وكان معظمهم يتحرجون
من كتابة الحديث . وثانيها أن الصحابة كانوا يخشون أن يعتمد الناس في

الحديث على الكتابة فيقصرون في حفظها وتدبرها مرتكبين على أنها مكتوبة عندهم ويمكنهم الرجوع إليها عند الحاجة . وقد وقع الذي ظنوه ، فانه كلما ازداد الاهتمام بالكتابة والتدوين قلت العناية بالحفظ . وكذلك كان الصحابة يخشون أن يدعى كل من تكون الأحاديث المكتوبة في متناول يده بأنه عالم ، وقد وقع ما كانوا يحذرون . وثالثها أن العرب كانوا يعدون الاعتماد على الكتابة اعترافاً بنقص مواهبهم وضعف حفظهم وفي ذلك غض من شرفهم ، فكانوا يعتمدون على حفظهم ، وإذا كتبوا شيئاً مما يحفظون كتبوا أمره

كان المحدثون يرون أن الحفظ في الصدور أصون من التدوين في السطور لأن ما يتناقله الناسخون بالكتابة معرض للتحريف ، وأما ما يتلقاه الحافظون الضابطون عن الحافظين الضابطين فانه لا يتطرق اليه الخطأ ولا يصيبه أي تحريف .

وإني أكشف القناع لأول مرة في ناديك هذا بان من زعم أن الأحاديث النبوية لم تدون إلى مائة سنة أو تسعين سنة قد أخطأ ، والتاريخ يعارضه . والسبب في هذا الخطأ ظنهم أن أول كتاب في الحديث النبوي كتاب الموطأ لمالك بن أنس ، وأول كتاب في السيرة كتاب المغازي لابن اسحاق ، وهذان الامامان الجليلان كانا متعاصرين وتوفي الأول سنة ١٧٩ والثاني سنة ١٥١ ، فاعتبروا المقود الأولى من القرن الثاني بداية تدوين الأخبار والسير . والامر ليس كذلك ، فان بواكير التدوين ابتدأت قبل ذلك بكثير ، وقد كان أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز المتوفى سنة ١٠١ عالماً جليلاً ولى إمارة المدينة ثم استخلف سنة ٩٩ وقد عهد إلى القاضي أبي بكر بن محمد ابن عمرو بن حزم - الذي كان إماماً في الحديث والخبر - أن يبدأ في تدوين سنن النبي ﷺ وأخباره ، لأنه خاف على العلم أن يرفع شيئاً فشيئاً وخاف دروس العلم وعفائه ، وقد ذكر هذا في تعليقات البخاري والموطأ لمالك والمسند للدارمي . فقام بذلك أبو بكر بن حزم ، وكتبت الأحاديث والأخبار

والسنن في القراطيس ، وأرسلت إلى دار الخلافة بدمشق ونسخت في الصحف والكتب وبعث بها إلى البلاد الإسلامية وكبريات المدن يومئذ^(١) . فأبو بكر هذا الذي علمت مكانته من العلم والفضل وكان قاضياً بالمدينة المنورة ، هو الذي اختاره عمر بن عبد العزيز لهذا العمل الجليل ، لعلمه وفضله ولأن خالته عمرة كانت من كبريات تلاميذ أم المؤمنين عائشة ، وكان ما روته خالته عمرة عن أم المؤمنين عائشة محفوظاً عنده ، فأوعز إليه عمر بن عبد العزيز بتدوين مرويات خالته وقد اختصها بالذكر في كتابه إليه

كتابة الحديث في العهد النبوي

وإني لا أعدو الحق إذا قلت : إن كتابة الحديث والسنن والأخبار والسيرة قد بدى بها في عهد النبي ﷺ ، فقد جاء في باب كتابة العلم من صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ أمر فكتبت خطبته التي خطبها يوم فتح مكة إجابة لسؤال صحابي من اليمن يدعى أباشاه . وقد أرسل رسول الله ﷺ رسائله إلى الملوك التي يدعوهم فيها إلى الإسلام وكلها كانت مكتوبة . والكتاب الذي أرسله إلى المقوقس ملك مصر قد وجد ملاحظاً بدفة كتاب في احد الاديرة المسيحية في مصر ، ويغاب على الظن أنه هو أصل الكتاب المرسل من النبي ﷺ وخطه عربي قديم وعبارته وترتيب كلماته التي في الخاتم هي عين ما يروى في الأحاديث ، وهذا من أصدق الأدلة على صدق الاحاديث المروية وصحتها . ويقول أبو هريرة : ما من أحد أحفظ مني لحديث رسول الله ﷺ ولا أكثر مني رواية له ، غير عبد الله بن عمرو بن العاص لأنه كان يكتب كل ما يسمع من النبي ﷺ ولم أكن أكتب (صحيح البخاري : باب كتابة العلم) . وفي سنن أبي داود ومسنند الامام أحمد أن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه ، فنهتني قريش عن ذلك وقالوا : تكتب ورسول الله ﷺ يقول في الغضب والرضا !

(١) مختصر جامع بيان العلم للحافظ ابن عبد البر ص ١٣٨ طبع مصر

فأمسكت ، حتى ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال : اكتب . فوالذي نفسي بيده ما خرج منه الا حق ، وأوماً باصبعه الى فيه حين قال ذلك (١) . وسمى عبد الله بن عمرو بن العاص صحيفته هذه (الصادقة) (٢) وكان يقول : لقد حجب الحياة إلى أمران : أحدهما هذه ، والصادقة . . . ثم قال : وأما الصادقة فهي صحيفة ما كتبت فيها إلا ما سمعت أذناني من رسول الله ﷺ ويقول مجاهد : رأيت عند عبد الله بن عمرو كتابا ، فسألته : ما هذا ! فقال : هذه ، والصادقة ، فيها ما سمعته من رسول الله ﷺ ليس في ذلك بيني وبين رسول الله ﷺ أحد (٢)

وفي صحيح البخاري أن النبي ﷺ أمر بعد هجرته الى المدينة أن يحصى له كم عدد الذين يلفظون بالاسلام فأحصوا فكان عددهم خمسمائة وألفا . وأمر ﷺ فكتب أحكام الزكاة وما تجب فيه ومقادير ذلك فكتب مشروحة مفصلة في صفحتين ، وبعث بصورة ذلك الى أمراء البلاد وولاتها ، وبقيت محفوظة في بيت أبي بكر الصديق وأبي بكر بن عمرو بن حزم (٣) . وكان عند عمال الزكاة رسائل فيها أحكام الزكاة . وكان عند علي صحيفة في قراب سيفه كتبت فيها أحاديث تتعلق بالأحكام ورآها الناس لما سألوه عن ذلك (صحيح البخاري ٢ : ١٠٨٤ و ١٠٢٠) . وفي هدية الحديدية التي كانت بين المسلمين ومشركي قريش أمر رسول الله ﷺ عليا فكتب كتاب الهدنة في فسختين أعطى المشركين نسخة منها وبقيت النسخة الأخرى عند النبي ﷺ (ابن سعد في المغازي ص ٧١) . ولما ولي رسول الله ﷺ عمرو بن حزم اليمن وبعثه اليها أعطاه أحكاماً مكتوبة في الفرائض والصدقات والديات

(١) مسند أحمد ٢ : ١٦٢ و ١٩٢ وسنن أبي داود ٢ : ٢٢ وجامع بيان العلم ١ : ٧١

(٢) طبقات ابن سعد ٢ / ٢ : ١٢٥

(٣) الدارقطني في كتاب الزكاة ٢٠٩

(كنز العمال ٣ : ١٨٦) . وتلقى عبد الله بن حكيم كتاباً من رسول الله ﷺ فيه أحكام الحيوانات الميتة (المعجم الصغير للطبراني ص ٢١٧) . ولما أراد وائل بن حجر أن يرجع الى بلاده حضر موت ناو له رسول الله ﷺ كتاباً فيه أحكام الصلاة والصوم والربا والخمر وغير ذلك (الطبراني في الصغير ص ٢٤٣) . ولما وجه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب السؤال الى أصحاب رسول الله ﷺ إن كان عند أحد منهم سنة عن النبي ﷺ في نصيب المرأة من دية زوجها قام الضحاك بن سفيان فقال : نعم عندنا كتاب من رسول الله ﷺ يبين فيه ذلك (الدارقطني ٢ : ٤٨٥)

وكتب عمر بن عبد العزيز في خلافته الى المدينة يسأل عن كتاب رسول الله ﷺ في أحكام الصدقات فوجدت نسخته عند آل عدرو بن حزم (الدارقطني ٤٥١)

وكان مروان قد خطب في الناس فذكر مكة وحرمتها ، فقال رافع بن خديج بصوت يسمعه الناس : والمدينة حرم حرما رسول الله ﷺ ، وهو مكتوب عندنا في أديم خولاني إن شئت أن نقرئك فعلنا . فناداه مروان : أجل قد بلغنا ذلك (مسند الامام أحمد بن حنبل ٤ : ١٤١) . وأرسل الضحاك بن قيس كتاباً الى النعمان بن بشير يسأله فيه عن السورة التي كان رسول الله ﷺ يقرأها في صلاة الجمعة غير سورة الجمعة فكتب اليه يقول كان يقرأ ، هل أتاك ، (صحيح مسلم) . وكتب عمر بن الخطاب الى عتبة ابن فرقد كتاباً ذكر فيه أن رسول الله ﷺ نهى عن لبس الحرير (صحيح مسلم) . وقد ثبت عندى بالدلائل الواضحة أن كبار الصحابة رضوا الله عنهم أرادوا أن يدونوا السنن والاحكام ، بل قد فعل ذلك بعضهم ، وقد جمع أبو بكر في خلافته الاحكام والسنن في كتاب ثم بدا له أن يمحوه (تذكرة الحماظ للذهبي) ، وعزم عمر بن الخطاب أيام خلافته على جمع السنن ثم بدا له ألا يفعل ، وقد ذكرنا آنفاً أن عبد الله بن عمرو بن العاص جمع باذن رسول

الله ﷺ ما كان يسمعه منه في صحيفة وكان الناس يقصدونه ليروها فيطلعهم عليها (سنن الترمذى ٥٨٦) وأتى عبد الله بن عباس بسجل فيه فتاوى على ابن أبي طالب (مقدمة صحيح مسلم) وكان لمرويات عبد الله بن عباس كراريس عدة ، وجاءه قوم من أهل الطائف بكراسة منها ليروها عنه (العلل للترمذى ص ٦٩١) . وكان سعيد بن جبير يكتب روايات عبد الله بن عباس (الدارمى ٦٩) . وبقيت صحيفة عبد الله بن عمرو (الصادقة) موجودة عند حفيده عمرو بن شعيب (سنن الترمذى ٦١ و ١١٣) وكانوا يضعفون عمرو ابن شعيب لأنه يروى من الصحيفة وكان ينبغي له أن يروى من حفظه . وجمع وهب التابعى روايات جابر بن عبد الله وكانت عند اسماعيل بن عبد الكريم وضعفوه لأجل ذلك (تهذيب التهذيب لابن حجر ١ : ٣١٦) . وروى سليمان بن سمرة بن جندب أنه كان عند ابيه صحيفة فيها أحاديث . وكذلك روى ابنه حبيب بن سليمان (تهذيب التهذيب ٤ : ١٩٨) . وجمع همام بن منه روايات أبي هريرة ، وهو أكثر الصحابة رواية وأوعاها حفظاً لأحاديث الرسول ﷺ ، فصارت تعرف صحيفته بين المحدثين بصحيفة همام ، وقد أوردها الإمام أحمد بن حنبل في الجزء الثانى من مسنده (ص ٣١٢ — ٣١٨ الطبعة الأولى) . وكذلك بشير بن نهيك كتب مروياته عن أبي هريرة في كتاب وقرأه عليه (كتاب العلل للترمذى ص ٦٩١ . والدارمى ص ٦٨ (١)) وذكر ابن حجر في كتابه فتح البارى أن أبا هريرة جاء برجل الى بيته وأراه أوراقاً وقال : هذه رواياتى . وقال الذى روى ذلك انها لم تكن مكتوبة بيده (فتح البارى ١ : ١٨٤ — ١٨٥) . وكان أنس بن مالك - وهو معروف بكثرة الرواية - يقول لأولاده : يا بني اكتبوا العلم وقيدوه بالكتابة (الدارمى ص ٦٨) . وكان تلميذه أبان يكتب رواياته بين يديه .

(الدارمي ص ٦٨) . وروى عن سلى قالت : رأيت عبد الله بن عباس يستملى أبا رافع خادم رسول الله ﷺ ما كان ﷺ يفعل أو يقول (طبقات ابن سعد ٢ / ٢ : ١٢٣) . والواقدي وهو من متقدمي المصنفين في السيرة النبوية يقول : رأيت عند عبد الله بن عباس الكتاب الذي أرسله رسول الله ﷺ الى المنذر بن ساوى سيد عمان مع كتب أخرى (زاد المعاد ٢ : ٥٧) . وفي تاريخ الطبري أن عروة بن الزبير كتب جميع ما كان في غزوة بدر مفصلاً الى عبد الملك الخليفة الأموي (الطبري ١٢٨٥)

وكان عبد الله بن مسعود - وهو الذي كان يكثر الدخول على رسول الله ﷺ ليلاً ونهاراً حتى خيل الى الناس أنه من أهل البيت - يشكو الناس أنهم يكتبون منه عن رسول الله ﷺ ، لأنه كان لا يستحل أن يكتب غير القرآن الحكيم حرصاً منه على القرآن أن يلتبس به غيره (الدارمي ص ٦٧) . ويقول سعيد بن جبير التابعي كنت أكتب على الأفتاب ما أسمع في الليل من عبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس ، فاذا أصبحت كتبه واضحاً (الدارمي ص ٦٩) . وكان أصحاب البراء بن عازب يكتبون عنده رواياته (الدارمي ص ٦٩) . وكان نافع - وقد صحب ابن عمر ثلاثين سنة - يملى على الناس (الدارمي ص ٦٩) . وعبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود أخرج كتاباً وقال : وإيم الله هذا ما كتبه يد ابن مسعود (جامع بيان العلم لابن عبد البر ص ١٧) . وقال سعيد بن جبير : كنا نختلف في بعض الأمور فنكتب ذلك ثم تأتي عبد الله بن عمر فنعرضه عليه ونخفي عنه ما كتبنا ولو علم به لكانت الفصيل بيننا وبينه . أي انه لا يأذن لهم بحضور مجلسه (جامع بيان العلم ٣٣) ويقول الأسود التابعي : وقعت أنا وعلقمة على صحيفة جثنا بها الى ابن عمر فحماها (جامع بيان العلم ٣٣) . وان زيد بن ثابت - وهو من كتبة الوحي - كان لا يرى كتابة شيء إلا القرآن ، فاحتال مروان على أن أجلسه بين يديه وأجلس كاتباً من وراء الستر يكتب ما يقول . وفعل مثل ذلك معاوية بن أبي

سفيان رضى الله عنه فاستملاه حديثا ، ولكن زيد بن ثابت فظن لذلك ، فألح
بمحوه حتى محى (مسند أحمد ٥ : ١٨٢)

سادتي . لعلمكم ستمتم سماع الأسماء ، وضجرتهم بهذه الأخبار ، وملتم
ما اقتبسته لكم من هذه النصوص ، فعذرة وعموا . ولكننا قد بلغنا الى
حيث يتبين لنا الطريق واضحا ، وتبدو لنا الحقيقة جلية

لقد حاولت أن أثبت لكم هذه الحقيقة الراهنة ، وهى أنه اذا كان
لا يوثق إلا بما كتب ودون ، فأصحاب النبي ﷺ كتبوا بأيديهم فى عهده
ﷺ ، وجمعوا من أحاديثه فى حياته ، وتركوا ذلك لمن بعدهم ، والذين جاءوا
بعدهم أدخلوا ذلك فى كتبهم . ولا أعدو الحقيقة إذا قلت : إن التابعين
رضى الله عنهم جمعوا جميع المرويات فى عهد الصحابة ، وكتبوا فى حياتهم
ما وصل الى علمهم من الأخبار والشئون ، وبحثوا عن ذلك بحشا طويلا ،
وبذلوا فيه جهودهم ، وسافروا له ، وطارقوا أبواب العلماء والمحدثين ، حتى
لقد كانوا يطوون لاجل الحديث الواحد مسافة طويلة وشقة بعيدة . ومن
أشهرهم محمد بن شهاب الزهرى ، وهشام بن عروة بن الزبير ، وقيس بن أبى
حازم ، وعطاء بن أبى رباح ، وسعيد بن جبير ، وأبو الزناد وغيرهم . إن
علماء التابعين - وكانوا يعدون بالمئات - جاؤوا البلاد ، وجالوا خلال الديار
وطووا الصحارى والمفارز وشهدوا الرجال الى أصحاب النبي ﷺ ،
وكذلك فعل تلاميذهم ، ليرووا أحاديث رسول الله ﷺ ، لجمعوا لنا هذه
الذخيرة العلمية ، وربما سافروا وقطعوا مئات الأميال لحديث واحد . وإن
محمد بن شهاب الزهرى - وهو الامام فى الحديث والسيرة - كتب كل ما سمع
عما يتعلق برسول الله ﷺ ، حتى قال عنه أبو الزناد : كنا نكتب الحلال
والحرام وكان الزهرى يكتب كل شئ* (جامع بيان العلم ص ٣٧) . ويقول
علاوس بن كيسان : كنت أنا والزهرى رفيقين فى طلب العلم ، فقلت :
لا أكتب إلا السنن ، فكسبت ما يتعلق برسول الله ﷺ ، وقال الزهرى :

أكتب هذا وكل ما يتعلق بأصحاب النبي ﷺ فانه من السنة . فقلت : ليس ذلك من السنة ، ولم أكتب ذلك وكتبه الزهري ففاز وخسرت (طبقات ابن سعد ٢/٢ : ١٣٥) . وهذا قطرة من بحر . وإن المثين من التابعين كانوا يكتبون الأحاديث والأخبار ، والزهري واحد منهم ، وإن ما كتبه الزهري وحده بلغ فيما رواه معمر أن الدفاتر من علم الزهري حملت على الدواب بعد قتل الوليد وكانت في خزائنه

ولد الزهري سنة ٥٠ للهجرة وتوفي سنة ١٢٤ ، وهو قرشي نسباً ، وقد بذل جهده في جمع الروايات عن سيرة النبي ﷺ وهدية وأحاديثه حتى لقي في طلب العلم عناء ونصبا ، كما يدل عليه قول المؤرخين : انه كان يطوف على بيوت الأنصار في المدينة ، وبغشى كل بيت منها ، ويسأل عن أحاديث النبي ﷺ وهدية وسيرته كل من يلقاه من نساء ورجال وشيوخ وشباب ، حتى كان يسأل العواتق في خدورهن عن أحوال النبي ﷺ وأقواله ويكتبه (تهذيب التهذيب . في ترجمة الزهري) . وكان لا يزال بعض الصحابة أحياء في حياة الزهري . ثم تلقى عن الزهري كثير من تلاميذه العلماء ويبلغ عددهم المئات ، ولم يكن لهم شغل إلا جمع الأحاديث وأقوال الصحابة وتعليم الأمة الاسلامية الدين ونشر السنة ، وقد انقطعوا كلهم لهذا العمل وفرغوا أنفسهم له

ومن أعظم الخطأ في تاريخ تدوين الحديث دعوى بعض الناس أنه بدأ بعد المائة ، وذلك تبعاً لخطأهم في تحديد زمن التابعين . فانه لما بلغهم أن التدوين بدأ في عهد التابعين ، وهم يعلمون أن بعض الصحابة امتد بهم العمر الى أواخر المائة الاولى للهجرة ، ظنوا أن عهد التابعين يبدأ بعد انقضاء زمن الصحابة ، فذهبوا الى أن التدوين بدأ بعد المائة . وهذا كله خطأ . والحق أن عنوان التابعين ، يطلق على الذين لم يدرکوا النبي ﷺ أو ولدوا في أواخر عهده فلم يروه وإنما رأوا أصحابه وأخذوا عنهم ، وعلى أقل تقدير يعدّ تابعياً من ولد بعد وفاة النبي ﷺ (ربيع الاول سنة ١١) ، وأعمال التابعين التي تنسب

سفيان رضى الله عنه فاستملاه حديثا ، ولكن زيد بن ثابت فطن لذلك ، فألح
بمحوه حتى محى (مسند أحمد ٥ : ١٨٢)

سادتي . لعلمكم ستمت سماع الأسماء ، وضجرتم بهذه الأخبار ، وملتم
ما اقتبسته لكم من هذه النصوص ، فعدرة وعتوا . ولكننا قد بلغنا الى
حيث يتبين لنا الطريق واضحا ، وتبدو لنا الحقيقة جلية

لقد حاولت أن أثبت لكم هذه الحقيقة الراهنة ، وهى أنه اذا كان
لا يوثق إلا بما كتب ودون ، فأصحاب النبي ﷺ كتبوا بأيديهم فى عهده
ﷺ ، وجمعوا من أحاديثه فى حياته ، وتركوا ذلك لمن بعدهم ، والذين جاءوا
بعدهم أدخلوا ذلك فى كتبهم . ولا أعدو الحقيقة إذا قلت : إن التابعين
رضى الله عنهم جمعوا جميع المرويات فى عهد الصحابة ، وكتبوا فى حياتهم
ما وصل الى علمهم من الأخبار والشئون ، وبحوثا عن ذلك بحشا طويلا ،
وبذلوا فيه جهودهم ، وسافروا له ، وطارقوا أبواب العلماء والمحدثين ، حتى
لقد كانوا يطؤون لاجل الحديث الواحد مسافة طويلة وشقة بعيدة . ومن
أشهرهم محمد بن شهاب الزهري ، وهشام بن عروة بن الزبير ، وقيس بن أبي
حازم ، وعطاء بن أبي رباح ، وسعيد بن جبير ، وأبو الزناد وغيرهم . إن
علماء التابعين - وكانوا يعدون بالمئات - جاؤا البلاد ، وجالوا خلال الديار
وطوروا الصحارى والمفارز وشدشوا الرجال الى أصحاب النبي ﷺ ،
وكذلك فعل تلاميذهم ، ليرووا أحاديث رسول الله ﷺ ، لجمعوا لنا هذه
الذخيرة العلية ، وربما سافروا وقطعوا مئات الأميال لحديث واحد . وإن
محمد بن شهاب الزهري - وهو الامام فى الحديث والسيرة - كتب كل ما سمع
عما يتعلق برسول الله ﷺ ، حتى قال عنه أبو الزناد : كنا نكتب الحلال
والحرام وكان الزهري يكتب كل شئ* (جامع بيان العلم ص ٣٧) . ويقول
طاوس بن كيسان : كنت أنا والزهري رفيقين فى طلب العلم ، فقلت :
لا أكتب إلا السنن ، فكتبت ما يتعلق برسول الله ﷺ ، وقال الزهري :

أكتب هذا وكل ما يتعلق بأصحاب النبي ﷺ فإنه من السنة . فقلت : ليس ذلك من السنة ، ولم أكتب ذلك وكتبه الزهري فغاز وخسرت (طبقات ابن سعد ٢/٢ : ١٣٥) . وهذا قطرة من بحر . وإن المثين من التابعين كانوا يكتبون الأحاديث والأخبار ، والزهري واحد منهم ، وإن ما كتبه الزهري وحده بلغ فيما رواه معمر أن الدفاتر من علم الزهري حملت على الدواب بعد قتل الوليد وكانت في خزائنه

ولد الزهري سنة ٥٠ للهجرة وتوفي سنة ١٢٤ ، وهو قرشي نسباً ، وقد بذل جهده في جمع الروايات عن سيرة النبي ﷺ وهدية وأحاديثه حتى لقي في طلب العلم عناء ونصبا ، كما يدل عليه قول المؤرخين : انه كان يطوف على بيوت الأنصار في المدينة ، ويغشى كل بيت منها ، ويسأل عن أحاديث النبي ﷺ وهدية وسيرته كل من يلقاه من نساء ورجال وشيوخ وشباب ، حتى كان يسأل العواتق في خدورهن عن أحوال النبي ﷺ وأقواله ويكتبه (تهذيب التهذيب . في ترجمة الزهري) . وكان لا يزال بعض الصحابة أحياء في حياة الزهري . ثم تلقى عن الزهري كثير من تلاميذه العلماء ويبلغ عددهم المئات ، ولم يكن لهم شغل إلا لجمع الأحاديث وأقوال الصحابة وتعليم الأمة الاسلامية الدين ونشر السنة ، وقد انقطعوا كلهم لهذا العمل وفرغوا أنفسهم له

ومن أعظم الخطأ في تاريخ تدوين الحديث دعوى بعض الناس أنه بدأ بعد المائة ، وذلك تبعاً لخطأهم في تحديد زمن التابعين . فإنه لما بلغهم أن التدوين بدأ في عهد التابعين ، وهم يعلمون أن بعض الصحابة امتد بهم العمر الى أواخر المائة الاولى للهجرة ، ظنوا أن عهد التابعين يبدأ بعد انقضاء زمن الصحابة ، فذهبوا الى أن التدوين بدأ بعد المائة . وهذا كله خطأ . والحق أن عنوان التابعين ، يطلق على الذين لم يدركوا النبي ﷺ أو ولدوا في أواخر عهده فلم يروه وإنما رأوا أصحابه وأخذوا عنهم ، وعلى أقل تقدير يعدّ تابعياً من ولد بعد وفاة النبي ﷺ (ربيع الاول سنة ١١) ، وأعمال التابعين التي تنسب

اليهم يبدأ عهدها من سنة ١١ ، وليس من المحتم أن لا ينسب إلى التابعين إلا ما صدر عنهم بعد وفاة آخر الصحابة بقاء على قيد الحياة ، فأخر الصحابة بقاء على قيد الحياة امتد زمنه إلى أواخر المائة الأولى للهجرة ، وأعمال التابعين - ومنها البدء بتدوين الحديث - ينبغي أن تنسب إلى زمنهم الذي يبدأ من بعد سنة ١١ التي انتقل فيها النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى

والحق أن جمع الأحاديث والأحكام والأخبار وتدوينها عند المسلمين له ثلاثة أطوار : الطور الأول هو الذي جمع فيه الرجال ما عندهم من العلم . والطور الثاني هو الذي قام فيه أهل كل مصر من الأمصار الإسلامية بتدوين ما عند علماء ذلك المصّر من العلم في كتب خاصة بأهل مصرهم . والطور الثالث هو الذي جمعت فيه علوم الدين الإسلامي كلها من جميع الأمصار ، ودونت في الدواوين الكبرى والمصنفات الجليلة وهي التي صارت إلينا ، ولا تزال بين أيدينا

والطور الأول استمر إلى سنة ١٠٠ ، وامتد الطور الثاني إلى سنة ١٥٠ ، وبدأ الطور الثالث من سنة ١٥٠ إلى القرن الثالث للهجرة أو بعده بقليل . وإن الطور الأول هو الذي كان فيه الصحابة وكبار التابعين . والطور الثاني هو الذي كان فيه صغار التابعين وتابعو التابعين . والطور الثالث هو عهد المحدثين وأئمة السنة كالإمام محمد بن إسماعيل البخاري ، والإمام مسلم صاحب الجامع الصحيح ، والإمام الترمذي ، والإمام أحمد بن حنبل وغيرهم من المحدثين . وما جمع في الطور الأول دوسن في كتب الطور الثاني ، وما دون في الطور الثاني جمع ونظم في كتب الطور الثالث . ونرى أمامنا أكثر ما جمع في الطورين الثاني والثالث مدونا في كتب كثيرة تشتمل على آلاف من الأوراق هي في الواقع من أئمن الذخائر العلية في العالم ، بل لا يوجد في جميع ذخائر الدنيا العلية أوثق منها سنداً وأصح تاريخاً ورواية . ولقد صدق الأستاذ العلامة الكبير الشيخ شبلي النعماني حين قال : « لما أرادت الأمم

الأخرى من غير المسلمين أن تجمع في أطوار نهضتها أقوال رجالها ورواياتهم كان قد فات عليهم زمن طويل ، وانقضى بينها وبينهم عهد بعيد ، فحارلوا كتابة شئون أمة قد خلت ، ولم يميزوا بين غث ذلك الماضي وسمينه ، وصحيحه وسقيمه ، بل لم يعلموا أحوال رواة تلك الأخبار ولا أسماءهم ولا تواريخ ولادتهم ، فاكتفوا بأن اصطفوا من أخبار هؤلاء الرواة المجهولين ورواياتهم ما يوافق هواهم ويلائم بيئتهم وينطبق على مقاييسهم . ثم لم يمتص غير زمن يسير حتى صارت تلك الخرافات معدودة كالحقائق التاريخية المدونة في السكتب وعلى هذا المنهاج السقيم صنفت أكثر السكتب الأوربية مما يتعلق بالأمم الخوالي وشئونها ، والأقوام القديمة وأخبارها ، والأديان السالفة ومذاهبها ورجالها . أما المسلمون فقد جعلوا لرواية الأخبار والسير قواعد محكمة يرجعون إليها وأصولا متقنة يتمسكون بها : أولها وأعلاها أن لا تروى واقعة من الوقائع إلا عن الذي شهدها ، وكذا بعد العهد على هذه الواقعة فمن الواجب تسمية من نقل خبرها عن الذي شهدها ثم تسمية من نقل ذلك الخبر عن الذي نقله عن شهد ، وهكذا بالتسلسل من وقت الاستشهاد بالواقعة والتحدث عنها الى زمن وقوعها ، والنثبت من أمانة هؤلاء الرواة وفقههم وعدالتهم وحسن تحملهم للخبر الذي يروونه ، وإذا كانوا على خلاف ذلك وجب تبيينه أيضا . وهذه المهمة من أشق الأمور ، ومع ذلك فإن مئات من المحدّثين تفرغوا لها ووقفوا أعمارهم على تحرى ذلك واستقصائه وتدوينه ، وطافوا لأجله البلاد ، ورحلوا بين الأقطار ، باحثين دارسين لأحوال الرواة وكانوا يلقون المعاصرين لهم من الرواة لينقدوا أحوالهم ، وإذا اطمنوا الى سيرة فريق منهم سألوهم عما يعرفونه من أحوال الطبقة التي كانت قبلهم ، وقد اجتمع من هذا المجهود العلي العظيم علم مستقل من العلوم الإسلامية أطلق عليه فيما بعد عنوان (أسماء الرجال) فتيسر لمن أتى بعدهم أن يقفوا على أقدار مئات الألوف من الحفاظ والعلماء والرواة وغيرهم

هذا فيما يتعلق بالرواية وحملتها، وهناك علم نقد الحديث من جهة الدراية والفهم، وإن له أصولاً محكمة وقواعد متقنة اتخذوها لنقد المرويات وتمييز صحيحها من سقيمها وغثها من السمين والراجح من المرجوح. وقد تحرص علماء السنة في هذا الأمر الحق وحده وتمسكوا فيه بالمحجة البيضاء وكل ما يؤدي إليه الصدق، فكان عملهم هذا من مفاخر الإسلام. وأنت تعلم أن من تحمل الرواية رجالاً من الولاة والحكام والأمراء الذين يخشى جانهم ويحذر الناس بطشهم وجبروتهم، فكان المحدثون يلتزمون فيهم قول الحق وينزلونهم في المنازل التي يستحقونها، ولا يبألون ما ربما يصيبهم من مكروه بسبب هذه المصارحة بما يرضى الله ويصون أمانات الإسلام. وكان وكيع محدثاً كبيراً، وكان أبوه عاملاً للدولة على بيت المال، فكان إذا روى عن أبيه شيئاً عضده برواية راوٍ آخر، فإذا انفرد أبوه برواية خبر توقف وكيع عن الأخذ بذلك حتى تعضده برواية أخرى. فهل رأيت مثل هذا الاحتياط ومثل هذه المبالغة في التثبت عند أهل ملة أخرى غير ملة الإسلام؟ ويقول الامام معاذ بن معاذ رأيت المسعودي في سنة ١٥٤^(١) يطالع الكتاب. يعني أنه قد تغير حفظه^(٢)، وما يثير العجب والاستغراب أن الامام معاذ ابن معاذ تقدم إليه رجل بألف دينار على أن لا يكتب في كتابه شيئاً عن رجل سماه فلا يوثقه ولا يجرحه بل يسكت عنه، فرفض الامام ذلك المال بشدة وقال إني لا أكرم الحق^(٣) فهل يعرف أحد في تاريخ البشر مثلاً للاحتياط في العلم والامانة للحق والاستقامة على منهج الصدق أعلى من هذا المثال؟ على أن جميع مرويات السنة لا تزال محفوظة كما هي الى زماننا هذا، وإن قواعد النقد الموضوعية، وأحوال الرواة الممهضة، قد يسرت لسكل من شاء.

(١) هو عبد الرحمن بن عبد الله بن عتبة بن عبد الله بن مسعود. توفي سنة ١٦٥

(٢) تهذيب التهذيب (٣)

(٣) تهذيب التهذيب ٦ : ٢١١

حتى في زماننا هذا وفي كل زمان أن يميز بها بين الصحيح والسقيم والغث والسمين والراجح والمرجوح والقوى والضعيف

سادق . لقد شغلت شطراً من وقتكم الثمين بإيراد هذه الأمور العلمية التي قلما يستطيعها السامعون ، لكنني فيما أظن قد استعرضت لكم أنحاء مختلفة من السيرة النبوية ومثلت أمامكم جوانبها التاريخية المتنوعة . وأريد أن ألفت انظاركم الى المصادر التي أخذت عنها سيرة النبي ﷺ وهدية ، وكيف دونت تلك المصادر وجمعت . وإن أهم ما في سيرته ﷺ وأوقعها وأكثرها صحة هو ما اقتبس من القرآن الحكيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من عزيز حميد ، وهو الذي لم يشك في صحته العدو اللدود فضلاً عن الحبيب الودود . والقرآن يقص علينا جميع مناحي السيرة النبوية وطرفاً من حياته ﷺ قبل النبوة ، فيذكر لنا يتمه وفقره وتحشه ، كما يذكر لنا شؤنه بعد النبوة من هبوط الوحي الالهي عليه وتبليغه اياه والعروج به وعداوة الاعداء له وهجرته وغزواته ، وفي القرآن الكريم ذكر أخلاقه ﷺ ، كل ذلك تراه مذكوراً في القرآن ببيان واضح وأسلوب متين رائق ، ومن ذلك تعلمون أنه لم تطرق أذن التاريخ سيرة رجل بأحسن ولا أصح ولا أوثق من سيرة محمد ﷺ

والمصدر الثاني من مصادر السيرة النبوية كتب الحديث ، وهي كتب حفظت لنا من أقوال النبي ﷺ وأفعاله وأحواله ما يبلغ مائة ألف حديث ، وقد امتاز الصحيح منها عن الضعيف والموضوع ، والقوى منها عن غير القوى . ومن الكتب المصنفة في الحديث الكتب الستة الصحاح التي محص العلماء كل ما ورد فيها وذكروا شواهدهم ومتابعاته حتى لم يتركوا في النفوس منزع ظفر لمحقق منصف بل ولا لمدقق جائر . ويتلو الكتب الستة كتب المسانيد ، وأعظمها مسند الامام أحمد بن حنبل في ستة مجلدات كبار كل مجلد منها يحتوي على نحو خمسمائة صفحة من القطع الكبير بحروف دقيقة . وقد

تضمن هذا المسند مرويات كل صحابي بمجموعة ومذكورة على حدة ، وفي هذه المجموعات جميع تعاليم الرسول ﷺ وأحواله وسيرته غير مرتبة على المواضيع والمصدر الثالث كتب المغازي ، ومعظم ما فيها ذكر الغزوات النبوية ، وقد تتضمن أموراً أخرى . ومن المصنفات القديمة في المغازي مغازي عروة ابن الزبير المتوفى سنة ٩٤ ، ومغازي الزهري المتوفى سنة ١٢٤ ، ومغازي موسى بن عقبة المتوفى سنة ١٤١ ، ومغازي ابن اسحاق المتوفى سنة ١٥٠ ، ومغازي زياد البكائي المتوفى سنة ١٨٢ ، ومغازي الواقدي المتوفى سنة ٢٠٧ وغيرهم .

والمصدر الرابع كتب التاريخ الاسلامي العام التي تبتدى بالسيرة النبوية ومن أوثقها وأصحها وأطولها وأضخمها طبقات ابن سعد ، وتاريخ الرسل والملوك للامام أبي جعفر الطبري ، والتاريخ الصغير والتاريخ الكبير لمحمد بن اسماعيل البخاري ، وتاريخ ابن حبان ، وتاريخ ابن أبي خيثمة البغدادي المتوفى سنة ٢٩٩ وغيرهم

والمصدر الخامس الكتب التي ألفت في المعجزات ، وتسمى بكتب الدلائل ومنها دلائل النبوة لأبي اسحاق الحربي المتوفى سنة ٢٥٥ ، ودلائل النبوة لابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ ، ودلائل النبوة للامام البيهقي المتوفى سنة ٤٣٠ ، ودلائل النبوة لابن نعيم الاصفهاني المتوفى سنة ٤٣٠ ، ودلائل النبوة للمستغفري المتوفى سنة ٤٣٢ ، ودلائل أبي القاسم اسماعيل الاصفهاني المتوفى سنة ٥٣٥ ، وأضخمها وأبسطها كتاب الخصائص الكبرى للجلال السيوطي المتوفى سنة ٩١١

والمصدر السادس كتب الشائيل ، وهي مقصورة على ذكر أخلاق النبي ﷺ وعاداته وفضائله ، وما كان يعمل في يومه من الصباح إلى المساء ، وفي ليله من المساء إلى الصباح . وأشهر هذه الكتب وأولها (كتاب الشائيل)

للحافظ الترمذى . وقد كتب كبار العلماء زيادات عليه أهمها وأضخمها وأطولها
(كتاب الشفا في حقوق المصطفى) للقاضى عياض ، وقد شرحه الشهاب
الحنفاجى وسماه نسيم الرياض ، وصنف فى هذا الموضوع علماء آخرون ، منها
كتاب (شمائل النبي ﷺ) لأبى العباس المستغفرى المتوفى سنة ٤٣٢ ،
(والنور الساطع) لابن المقرئ الغرناطى المتوفى سنة ٥٥٢ ، و (سفر السعادة)
لمجد الدين الفيروز ابادى المتوفى سنة ٨١٢ .

يضاف إلى ما ذكرناه الكتب التى صنفها بعض العلماء المتقدمين فى
أحوال مكة المعظمة والمدينة المنورة وذكروا فيها ما فى هذين البلدين الطيبين
من بقاع وأماكن وأودية وجبال وخطط ، وذكروا من تولى إمارتهما بأدنين
بكل ماله علاقة بالنبي ﷺ . وأقدم كتاب فى هذا الموضوع (أخبار مكة)
للأزرقي المتوفى سنة ٢٢٣ و (أخبار المدينة) لعمر بن شبة المتوفى سنة ٢٦٨ ،
ثم أخبار مكة للفاكهي وأخبار المدينة لابن زبالة

سادق . لقد عرضت عليكم أسماء الكتب فى السيرة النبوية وذكرت لكم
ما صنف فى هذا الباب من قديم الزمان ، ومنه يعلم القارى مكانة السيرة
المحمدية من التاريخ ، وأن هؤلاء المحدثين والخلفاء الاسلاميين لم يقتصروا
على حفظ الروايات عن ظهر قلب وتقييدها بالكتابة وحسب ، بل اتخذوا
الولاية والخلفاء معاهد لكبار العلماء والأئمة يتولون التدريس فيها ، وأقاموا
المباني فى المساجد ليشغل فيها المعلمون والمدرسون من كبار العلماء بتعليم
المغازى ، وكان عاصم بن عمر المتوفى سنة ١٢١ - وهو حفيد قتادة الصحابي -
يدرس فى المسجد الجامع بدمشق بأمر الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز
رضي الله عنه

والذى ألفه الناس فى سيرة النبي ﷺ من عهد الرسالة الى يومنا هذا فى
مختلف الأوطان الاسلامية والاجنبية فى معظم لغات العالم يعد بالألوف ،
واعتبر ذلك بما صنف باللغة الأوردية الحديثة وحدها فى موضوع السيرة

النبوية ، مع أن الاوردية لم تصر لغة تأليف إلا منذ قرنين على الأكثر ،
وفي تقديري أن ما صنف بها وحدها في السيرة النبوية يبلغ ألفا إن لم يزد عليه
ودع عنك المسلمين وما صنفوا في سيرة نبيهم ﷺ فانهم يحبونه حبا عظيما
ويقدمون ذلك بين يدي الله فرطا وذخرا لهم يوم القيامة . وتعال نظر الى
من ألف في سيرته ممن لا يؤمنون بنبوته ، ولا يوقنون برسالاته ، فاننا نجد في
الهند نفسها على اختلاف مللها : من الهنادك والسيخ والبرهمو سماج كثيرا من
علمائهم قد ألفوا في سيرته ﷺ ، أما الأوربيون الذين لا يدينون بالاسلام
ولا يؤمنون بالرسالة المحمدية فقد صنف منهم في سيرة النبي ﷺ حتى
المبشرون من دعاة النصرانية والمستشرقون ، عناية منهم بالتاريخ وإرواء
لظماهم العلمي ، ويعد ما ألفوه في ذلك بالمئات . وكنت قرأت في مجلة المقتبس
التي كانت تصدر في دمشق قبل نحو أربعين سنة إحصاء لما صنف في السيرة
النبوية بمختلف اللغات الاوردية فبلغ نحو ثلاثمائة كتاب وألف كتاب ، ولو
أضفنا إلى هذا العدد ما صدر من المطابع الاوردية في السيرة النبوية خلال
الاربعين سنة بعد ذلك الاحصاء الذي نشرته مجلة المقتبس لأربي على ذلك
كثيرا . وإن مرجوليوت الذي كان استاذاً للغة العربية في جامعة أوكسفورد
أصدر في سنة ١٩٠٥ كتابه (محمد) وجعله حلقة في سلسلة « عطاء الأمم »
وهو لم يكتب كتابه هذا ليثني فيه على رسول الله محمد ﷺ ، بل لعله لم يؤلف
كاتب بالانجليزية كتابا أشد تحاملا على النبي ﷺ مما جاء في هذا الكتاب ،
وقد حاول مرجليوت أن يشوه كل ما يتعلق بالسيرة الشريفة وأن يشكك في
أسانيدها ولم يأل جهدا في نقض ما أبرمه التاريخ ومعارضة ما حققه المحققون
من المنصفين ، لكنه مع كل هذا لم يتمالك عن الاعتراف في مقدمة كتابه بأن
الذين كتبوا في سيرة محمد ﷺ لا ينتهي ذكر أسمائهم ، وأنهم يرون أن من
الشرف للكاتب أن ينال المجد بتبؤنه مجلسا بين الذين كتبوا في السيرة المحمدية

The biographers of the Prophet Mohammad form a long series it is impossible to end, but in which Would be honourable .to find a place

وقد كتب جون ديون پورت في سنة ١٨٧٠ كتابا بالانجليزية في السيرة المحمدية عنوانه (اعتذار من محمد والقرآن Apology for Md. and Quran) والذي يقرأه يخيل إليه أنه كتبه بنزعة الاخلاص والانصاف ، ويقول في مقدمته : لا ريب أنه لا يوجد في الفاتحين والمشرعين والذين سنوا السنن من يعرف الناس حياته وأحواله بأكثر تفصيلا وأشمل بيانا مما يعرفون من سيرة محمد ﷺ وأحواله

والتي ريبورند باسورث سميث Basworth Smith عضو كلية التثليث في أوكسفورد سنة ١٨٧٤ محاضرات عن (محمد والمحمدية) في الجمعية الملكية لبريطانيا العظمى طبعت فيما بعد في كتاب ، وقد قال في إحدى هذه المحاضرات وأحسن فيما قال وأجاد ، كل ما يقال في الدين يغلب فيه الجهل ببدايته ، وما يؤسف له أن هذا يصبح إطلاقه على الديانات الثلاث^(١) وعلى أصحابها الذين نعدّهم تاريخيين لأننا لا نعلم لهم وصفا أحسن من هذا الوصف ، فأننا قلنا نعلم عن الذين كانوا في طلائع الدعوة ، والذي نعلمه عن الذين جاءوا بعدهم واجتهدوا في نشر عقائدهم أكثر من الذي نعلمه عن أصحاب الدعوة الأولين . فالذي نعلمه من شتون زردشت وكونفوشيوس أقل من الذي نعلمه عن سولون وسقراط . والذي نعلمه عن موسى ، وبوذا أقل مما نعلمه عن أمبرس Ambrase وقيصر . ولا نعلم من سيرة عيسى إلا شذرات تتناول شعبا قليلة من شعب حياته المتنوعة والكثيرة . ومن ذا الذي يستطيع أن يكشف لنا الستار عن شتون ثلاثين عاما هي تمهيد واستعداد للثلاثة الأعوام التي لنا علم

(١) يريد ديانات بوذا وكونفوشيوس وزردشت

بها من حياته . إنه بعث تلك العالم من رقدته ، ولعله يحيى أكثر مما أحيأ .
وحياته المثالية بعيدة عنا مع قربها منا . وانها تتراوح بين الممكن والمستحيل .
بيد أن كثيراً من صفحاتها لا نعلم عنها شيئاً أبداً ، وما الذى نعلمه عن أم
المسيح ، وعن حياته فى بيته ، وعيشته العائلية . وما الذى نعلمه عن أصحابه
الأوليين ، وحوارييه ، وكيف كان يعاملهم ، وكيف تدرجت رسالته الروحية
فى الظهور ، وكيف فاجأ الناس بدعوته ورسالته ، وكم وكم من أسئلة تجيش فى
نفوسنا ولن يستطيع أحد أن يجيب عليها إلى يوم القيامة ؟ !

و أما الاسلام فأمره واضح كله ، ليس فيه سرٌّ مكتوم عن أحد ، ولا
غمّة ينهم أمرها على التاريخ . فى أيدي الناس تاريخه الصحيح ، وهم يعلمون
عن أمر محمد كالذى يعلمونه من أمر لوثر وملتن . وإنك لا تجد فيما كتبه عنه
المؤرخون الأولون أساطير ولا أوهاماً ولا مستحيلات . وإذا عرض لك
طرف من ذلك أمكنك تمييزه عن الحقائق التاريخية الراهنة ، فليس لأحد
هنا أن يخدع نفسه أو يخدع غيره ، والأمر كله واضح وضوح النهار ، كأنه
الشمس رآد الضحى يتبين تحت أشعة نورها كل شئ .

لقد ألف المسلمون فى السيرة النبوية ألوف الكتب بل أكثر من
ذلك ، ولا يزالون ماضين فى التأليف فيها ، وكل كتاب فى السيرة المحمدية
مهتماً كان لا ريب أنه أوضح بياناً وأوثق رواية وأكثر صحة من كل ما كتبه
الناس فى قصص النبيين وسيرهم عليهم السلام . والكتب الأولى فى السيرة
المحمدية تلقاها عن أصحابها مؤنون وآلاف من تلاميذهم وأتقنوها فهما
وأحكموها فقها ولم يتركوا فيها كلمة غامضة ولا عبارة معضلة إلا أوضحوا
مبهمها وحلوا معضلها . وأول كتاب عندنا فى الحديث النبوى كتاب الموطأ
للإمام مالك بن أنس وقد سمعه من مؤلفه ستائة من تلاميذه فيهم الخلفاء
والولاة والعلماء والفقهاء والأدباء والزهاد والنساک . والجامع الصحيح لابن

عبد الله محمد بن اسماعيل البخارى تلقاه ستون ألفا من أهل العلم عن تلميذ واحد من تلاميذه وهو الامام الفربرى ، فهل فى العالم دين احتاط أهله مثل هذا الاحتياط واهتموا مثل هذا الاهتمام فى كل ما يتعلق بأمر نبيهم وهدايتهم ، وهل ألف فى هذا الباب تأليف أكثر صحة وأعظم ثقة وثبتا ، وهل نال مثل هذه الصحة التاريخية دين غيره ، وهل حفظ التاريخ من تفاصيل حياة نبي من الانبياء عليهم السلام مثل الذى حفظه من سيرة محمد صلى الله عليه وسلم ؟



المحاضرة الرابعة

في السيرة المحمدية صمد ناهية كالها وتمامها واهاطرها بسؤوه الحياة البشرية

سادق وإخواني . موضوع كلامنا اليوم في أن السيرة المحمدية هي السيرة التامة الكاملة الشاملة لجميع أطوار الحياة . وما من حياة أحد - مهما بلغت من صحة التاريخ وثبوت الرواية - يصح أن يكون منها للناس اسوة تتبّع ومثال يقتدى به إلا اذا كانت متصفة بالكمال ، ولا تكون حياة أحد كاملة ومنزهة عن العيوب والمثالب إلا اذا كانت معلومة للناس بجميع أطوارها ومنجلية لهم دخالها من كل مناحيها . وحياة محمد ﷺ من ميلاده إلى ساعة وفاته معلومة للذين عاصروه وشهدوا عهده ، وقد حفظها التاريخ عنهم لمن بعدهم ، وهو في حياته لم يحتاج عن عيون قومه إلا مدة يسيرة ليعد عدته للمستقبل وليهيء الأسباب لحياته القابلة . إن جميع شئونه وأطوار حياته - من ولادته ورضاعه وطفولته إلى أن صار يافعاً وشاباً - كل ذلك ظاهر أمره معلومة تفاصيله . وقد علم التاريخ عن هذا النبي ﷺ بأشغاله في التجارة وكيفية زواجه ، وعلم الناس سجاياه في صداقته وفي وفاته للناس قبل النبوة ، واتصلوا به حين اتخذوه أمينا وأقاموه حكما فيما اختلفوا فيه من نصب الحجر الاسود في موضعه من الكعبة ، ثم وقفوا على أمره حين حبس الله اليه الخولة فاعتزلهم في غار حراء ، ثم علموا حاله حين نزل عليه الوحي من رب العالمين ، وحين بدأ أمر الاسلام يظهر للوجود فأخذ يدعو الناس اليه ويبلغ ما أنزل عليه . وقد رأى التاريخ كيف خالفوه وعاندوه . وهل غاب عن التاريخ ما أتى ﷺ في نشر الاسلام من جهد وعناء ، وما قابله به أهل الطائف حين سار اليهم ينههم عن عبادة الأوثان ويأمرهم بعبادة الرحمن . وهل نسي التاريخ حين أخبر أهل مكة - وهم أقلية قليلة من المسلمين وأكثرية ساحقة من المشركين - بخبر

العروج به الى السماء ، ثم هل خفي عن التاريخ أمر هجرته ومع من هاجر ، والغزوات التي غزاها ، والاسباب الباعثة عليها ، وموقفه من الهدنة إذا هادن وعهوده إذا عاهد ، وما صلح الحديدية بسر . والذين طالعوا كتب السيرة النبوية يعلمون ما ذكرنا وما لم نذكر ، وقد وقفوا على كتبه صلى الله عليه وسلم الى الملوك والاقبال والولادة يدعوم فيها الى دين الله ، دين السلام والوئام ، وعرفوا جهاده في سبيل الحق وما بذله في تبليغ دعوة الاسلام الى الناس ، الى أن أكمل الله للانسانية دينها ، وحج صلى الله عليه وسلم حجة الوداع ، وتوفاه الله اليه . فهل في شيء من ذلك ما يحمله التاريخ ، وهل فيما يتعلق بهذا الرسول الاعظم ورسالته ما أسدل عليه ستار من خفاء ؟ إن كل ما ينسب اليه صلى الله عليه وسلم أو يعزى اليه من حق أو باطل وصدق أو كذب وصحيح أو فاسد معلوم بالتفصيل وواضح أمره للناقدين . وقد يخطر ببال سائل أن يسأل : ما بال المحدثين حفظوا موضوعات الأحاديث وضعافها ، وهالا اكتفوا بالصحيح وأهملوا غيره ؟ والذي ينعم النظر في ذلك يبدو له من المصلحة أن لا يوجه القادحون اللائمة الى المسلمين بأن هنالك مرويات قضوا عليها وأخباراً نبذوها ليخفوا من أمر نبينهم ما فيه مغمز . كما يطعن الطاعنون في هذه الأيام على الأخبار المسيحية لأجل ذلك . أما المحدثون الكرام من علماء المسلمين فقد جمعوا كل ماله علاقة بالنبي صلى الله عليه وسلم صحيحاً كان أو سقيماً حقاً أو باطلاً وجعلوا لنقده قواعد وأصولاً لتحقيقه أصولاً يرجع اليها في تمييز الصحيح من الفاسد والغث من السمين . وهم قد حفظوا شئون حياة النبي صلى الله عليه وسلم وأحواله وأخباره كلها ولم يتركوا أمراً من أموره ولا شأناً من شئونه إلا ذكروه . حتى لقد وصفوه في قيامه وجلسه ونهوضه من النوم وهيئته في ضحكه وابتسامه وعبادته في ليله ونهاره ، وكيف كان يفعل إذا اغتسل وإذا أكل ، وكيف كان يشرب ، وماذا كان يلبس ، وكيف يتحدث الى الناس إذا لقيهم ، وما كان يحب من الألوان ومن الطيب ، وما هي حليته وشمائله . ووصفوا جسده الطاهر وصفاً كاملاً كأنك

تراه . ووصفوا حياته العائلية من معاشره الرجل أهله وحليلته وأتبعوا ذلك بذكر الطهارة من الغسل فوصفوا ذلك كما وصفوا الوضوء للصلاة

وأستعرض لكم فهرسة أقدم كتاب في الشرائع للترمذي لتعلموا كيف ضبط المسلمون أحوال النبي صلى الله عليه وسلم وأحصوا أخباره جليلها ودقيقها خطيرها وحقيرها كثيرها وقليلها : (١) باب ما جاء في حلية النبي صلى الله عليه وسلم ، (٢) في ذكر شعره ، (٣) في ترجلته ، (٤) شيبه ، (٥) خصابه ، (٦) كحلته ، (٧) لباسه ، (٨) عيشه ، (٩) خُفّه ، (١٠) نعله ، (١١) خاتمه ، (١٢) صفة سيفه ، (١٣) درعه ، (١٤) مغفره ، (١٥) عمامته ، (١٦) إزاره ، (١٧) مشيته ، (١٨) تقنعه ، (١٩) جلسته ، (٢٠) فرشه ووسادته ، (٢١) ما جاء في اتكائه ، (٢٢) صفة أكله ، (٢٣) خبزته ، (٢٤) لإدامته ، (٢٥) وضوؤه ، (٢٦) ما يقوله قبل الطعام وبعده ، (٢٧) قدحه ، (٢٨) فاكهته ، (٢٩) شرابه ، (٣٠) صفة شربه ، (٣١) تعطره وتطيبه ، (٣٢) كيف كان كلامه ، (٣٣) إنشاده الشعر ، (٣٤) مسامرتة وقصصه ، (٣٥) نومه ، (٣٦) عبادته ، (٣٧) ضحكته وتبسمه ، (٣٨) مزاحه ، (٣٩) صلاته بعد طلوع الشمس ، (٤٠) تطوعه في بيته ، (٤١) صومه ، (٤٢) تلاوته القرآن ، (٤٣) بكاؤه وخشوعه ، (٤٤) فراشه ، (٤٥) تواضعه ، (٤٦) أخلاقه ، (٤٧) أسماءه الكريمة ، (٤٨) معاشرته ، (٤٩) سنه ، (٥٠) وفاته ، (٥١) ميراثه ، (٥٢) حجامته

ذلك مما يتعلق بنفسه الشريفة وشخصه الكريم . وهناك أحاديث عن كل طور من أطوار حياته وناحية من نواحيها ، كل ذلك في وضوح وجلاء بحيث لم يبق شيء من حياته مخفيا أمره مكتوما مره ، فاذا دخل بيته فهو بين أهله وعياله وأولاده ، وان خرج منه فهو بين أصحابه ورفقائه ، وكل ذلك محفوظ مذکور مشهور

إخواني . إن أعظم الناس وأجلهم ، إذا انقلب الى بيته كان فيه رجلا من الرجال وواحداً كأحد الناس . ولقد صدق فولتير في كلمته المشهورة :

« ان الرجل لا يكون عظيماً في داخل بيته ، ولا بطلا في أسرته ، يريد أن
عظمة المرء لا يعترف بها من هو أقرب الناس اليه ، لاطلاعه على دخيلته في
مبازله . وهذا الحكم يشذ عنه أمر الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، فيقول
باسورث سمث إن ما قيل عن العطاء في مبازله لا يصح - على الاقل - في محمد
رسول الاسلام ، واستشهد بقول كبن « لم يمتحن رسول من الرسل أصحابه
كما امتحن محمد أصحابه ، إنه قبل أن يتقدم الى الناس جميعا ، تقدم الى الذين
عرفوه إنساناً المعرفة الكاملة فطلب من زوجته وغلماه وأخيه وأقرب
أصدقائه إليه وأحب خلانه أن يؤمنوا به نيا مراسلا . فكل منهم صدق
دعواه وآمن بنبوته . وإن حليلة المرء أكثر الناس علما بباطن أمره ودخيلة
نفسه وأصدقهم به ، فلا يوجد من هو أعرف منها بهناته ونقائصه ، أليس أن
أول من آمن بمحمد رسول الله وزوجه الكريمة التي عاشته خمسة عشر عاما ،
واطلعت على دخائله في جميع أمورهِ وأحاطت به علما ومعرفة ، فلما ادعى
النبوة كانت أول من صدقه في نبوته

إن أعظم الناس لا ياذن لزوجهِ - وإن كانت له زوج واحدة - بأن
تحدث الناس عن جميع ما تراه من حليلها ، وأن تعلن كل ما شاهدته من
أحواله . لكن رسول الله ﷺ كانت له في وقت واحد تسع زوجات ، وكانت
كل منهن في إذن من الرسول بأن تقول عنه للناس كل ما تراه منه في خلواته ،
وهن في حل من أن يخبرن الناس في وضوح النهار كل ما رأين منه في ظلمة
الليل ، وأن يتحدثن في الساحات والمجامع بما يشاهدن منه في الحجرات . فهل
عرفت الدنيا رجلا كهذا الرجل يثق بنفسه كل هذه الثقة ويعتمد عليها الى هذا
الحد ولا يخاف قالة السوء عنه من أحد لأنه أبعد الناس عن السوء . هذا
ما يتعلق بذات الرسول ، وأما ما تحلت به نفسه من دماثة الخلق ورجاحة
العقل وحصافة الرأي وكرم النفس وعلو الهمة ورحابة الصدر فان كتب
الحديث ملأى بتفاصيله . وأحسن كتاب في ذلك كتاب (الشفا) للقاضي

عياض الأندلسي . وقد قال لي يوماً وأنا في فرنسا مستشرق اسمه ماسنيون :
يكفي لتعرف أوروبا محاسن رسول الله ﷺ ومحامده أن ينقل كتاب (الشفاعا)
للقاضي عياض إلى إحدى اللغات الاوربية

لأنني بوبت في الجزء الثاني من السيرة عند ذكر شمائله ﷺ هذه
الأمور : خلق رسول الله ﷺ ، وحليته ، وخاتم النبوة ، وشعره ، ومشيته ،
وكلامه ، وضحكه وتبسمه ، ولباسه ، وخاتمه ، ومغفره ، ودرعه ، وطعامه ،
وصفة أكله ، وسنن طعامه ، وشارته ، واللون المحبب اليه ، واللون الذي كان
يرغب عنه ، وتمطره ، وحبه للنظافة والطهارة ، وركوبه . وذكرت في
أشغاله : ما كان يعمل في نهاره من الصباح الى المساء ، ثم نومه ، وتهجدته ،
ووظائفه في الصلوات ، وأسلوب خطبته ، وأعماله في السفر ، وأعماله في
الجهاد ، وسنته في عيادة المرضى ، وتعزيته أهل الميت ، وسنته في لقاء الناس
وعامة أشغاله . وإليكم ما ذكرت عن مجلسه ﷺ : يجالس الارشاد ، آداب
المجلس ، أوقات جلوسه مع الناس ، مجالسه الخاصة بالنساء ، طريقة هديه
وإرشاده ، لقاءه الناس بالبشاشة والبشر ، تأثير صحبته فيمن يصحبه وأسلوب
كلامه معهم ، وأنواع خطبه النبوية وأثرها في السامعين . ومن العناوين التي
وردت فيما ذكرته عن عبادته : دعاؤه ، صلاته ، صومه ، زكاته وصدقائه ،
حججه ، مداومته ذكر الله ، شوقه إلى لقاء الله ، ذكره الله عز وجل في
مواقف القتال ، خشيته من الله ، بكائه ، محبته لله ، توكله عليه ، صبره ،
شكره لمفيض النعم جل جلاله . وبما جاء في كتابي المذكور عن أخلاقه ﷺ :
أخلاقه بالتفصيل ، مواظبته على العمل ، مكارم أخلاقه ، حسن معاملته
للناس ، عدله ، جوده وكرمه ، إثباره ، ضيافته وقراه ، كراهته سؤال الناس
إياؤه لأموال الصدقة ، قبوله الهدية ، ترفعه عن فضل الغير ومنته ، تنزهه
عن الفظاظه ، وموقفه من التقشف ، وكرهه للهجاء والمدح ، التزامه عدم
التكلف في الحياة ، وبعده عن التأنق في المشرب والمأكل ، اجتنابه الرياء

والخيلاء ، مساواته ، تواضعه ، كرهه للمبالغة في التعظيم والإطراء ، حياؤه ، عمله بيده ، عزيمته ، شجاعته ، صدقه في القول ، وفاؤه بالوعد ، زهده في الدنيا ، قناعته ، حله ، عفوه عن الناس ، صفحه عن أعدائه ، إحسانه لإلهم ، معاملته للكافرين والمشركين ، معاملته لليهود والنصارى ، حبه الفقراء والمساكين ، عفوه عن أشد أعدائه ، دعاؤه لأعدائه بالخير ، شففته على الصبيان ، معاملته للنساء ، رحمته بالحيوان ، ما فطر عليه من الرحمة والمحبة بوجه عام ، لين قلبه ورقته ، عيادته للمرضى ، سجاحة خلقه ودماثة ، محبته لأولاده ، معاشرته لأزواجه الطاهرات ، هديه في المراسلة ، معالجته لامراض النفس وأمراض البدن

وقد استقصى الحافظ ابن القيم في كتابه (زاد المعاد) كل ما ينبغى معرفته عن النبي ﷺ وأحواله فاستوعب ذلك أكثر من غيره من المؤلفين . واليكم فهرس ما ورد فيه عن أحواله الخاصة ﷺ وشئونه اليومية : هديه في إرسال الكتب والرسائل ، هديه في الاكل وذكر كفيته ، هديه في النكاح ومعاشرة الأهل ، هديه في نومه وانتباهه ، هديه في ركوب الدواب ، هديه في العبيد والإماء ، هديه في البيع والشراء والتعامل مع الناس ، هديه عند قضاء الحاجة هديه في أمور الفطرة ، هديه في قص الشارب ، هديه في كلامه وسكوته وضحكه وبكائه ، هديه في خطبته ، هديه في وضوئه ، هديه في مسح الخفين ، هديه في التيمم ، هديه في الصلاة ، هديه في الجلسة بين السجدين ، هديه في السجود ، كيفية توركه في القعدة الأخيرة بعد السجدة ، هديه في جالوسه وإشارته بالشهد ، هيئة تسليمه عند الخروج من الصلاة ، دعاؤه بعد التسليم ، هديه في سجدة السهو ، هديه في السنن الرواتب وصلاة التطوع في الحضر والسفر وفي المسجد والبيت ، هديه في قيام الليل (التهجد) ، اضطجاعه بعد سنة الفجر ، صلاته في الليل ووتره . صلاته جالساً بعد الوتر ، قنوت الوتر ، هديه في قراءة القرآن وترتيله ، هديه في صلاة الضحى ، هديه في سجود الشكر ،

هدية في سجدة القرآن ، هديه في الجمعة ، هديه في عبادات الجمعة ، هديه في خطبة الجمعة ، هديه في العيدين ، هديه في صلاة الخوف وصلاة الكسوف ، هديه في الاستسقاء ، هديه في السفر والتطوع فيه ، هديه في الجمع بين الصلاتين ، هديه في تلاوة القرآن والاستماع له ، هديه في عيادة المرضى ، هديه في الجنائز والاسراع بها ، هديه في تسجئة الميت ، هديه في السؤال عن الميت اذا حضرت جنازته ، هديه في الصلاة على الجنازة ، هديه في الصلاة على جنازة الصغير ، هديه في ترك الصلاة على قاتل نفسه والغال ، هديه في المشي أمام الجنازة ، هديه في الصلاة على الميت الغائب ، هديه في قيامه للجنازة إذا مرت به ، هديه في التعزية ، وزيارة القبور ، هديه في الاكثار من العبادة في رمضان ، هديه في الصوم عند رؤية الهلال ، والافطار لرؤية الهلال ، هديه في قبول الشهادة لرؤية الهلال ، هديه في الافطار في السفر ، الافطار يوم عرفة ، صومه أيام الجمعة والسبت والاثنين ، هديه في صوم الوصال ، هديه في صوم التطوع وإفطاره وترك قضائه ، كراهيته تخصيص الجمعة للصوم ، هديه في الاعتكاف ، هديه في الحج والعمرة ، اعتباره مرتين في سنة واحدة ، أداءه الحج وهدية في التضحية بيده ، هديه في تضحية البدنة ، هديه في العقيقة ، أذانه في أذن المولود ، وتسميته ، وختانه ، هديه في تسمية الناس وتكنيبتهم ، احتياطه في الكلام وتخير اللفاظ ، هديه في الذكر والدعاء ، هديه في دخول البيت ، هديه في لبس الثياب ، هديه في الذهاب الى الخلاء والرجوع منه ، هديه في الدعاء عند الوضوء ، هديه في ترديد كلمات الأذان ، هديه في الدعاء لرؤية الهلال والدعاء قبل الطعام وبعده وهدية في الطعام ، وفي السلام ، وأن لا يدخل أحد على الناس في بيوتهم الا بعد الاستئذان ، هديه في الدعاء في السفر ، وعند النكاح ، هديه في كراهية بعض الكلمات ، هديه في الغزو والجهاد ، معاملته لأسرى الحرب والعييد ، وهدية في معاملة الجواسيس إذا أسروا ، هديه في عقد الصلح ،

وتأمين المحارب ، وضرب الجزية ، ومعاملة أهل الكتاب والمنافقين

لقد أجملت لكم فيما تقدم ما جاء في أحوال النبي ﷺ خاصة ، ليتبين لكم أنه إذا كانت هذه الامور الدقيقة قد عنى المسلمون بحفظها فما ظنكم بالامور الجليلة العظيمة الخطر ، وكم بذل رواة الشريعة من عنايتهم في احصاء أمهات السنن وأصول الرسالة ، وإحصائها ، وضبطها مفصلة . ويظهر لكم من ذلك أن جميع وجوه الحياة النبوية ومناحيها وألوانها قد صينت وحفظت من أن تعبت بها أيدي الدهر

إخواني . حسبكم الآن أنكم قد علمتم ما أردته في أول هذه المحاضرة من وصف السيرة المحمدية بالكمال والتمام والاحاطة ، وقد تبين لكم صدق ما ادعيته لها من أنه ما من أحد من الرسل قد حفظت سيرته وأحصيت أخباره وأحواله كما حفظت سيرة محمد ﷺ وأحصيت أخباره وأحواله

إن الوقت ضيق ، والذي أريد أن أفضي به اليكم متنوع ومتراعى الاطراف وكثير المناحي ، فأنا أجمل لكم في القول ما استطعت ، وأرجو منكم أن تستمعوا له . ان النبي ﷺ أذن لأصحابه ولمن يحضر مجالسه أن يبلغوا عنه لمن غاب عنها ، وهذا الاذن عام لما يكون عنه في بيته وبين أهله وعياله ، أو ما يصدر عنه في حلقته مع أصحابه ، أو ما يقفون عليه من أعماله وأقواله عند تعبه في مسجده ، أو قيامه على منبره خطيبا ، أو جهاده في ساحة الحرب تجاه أعدائه وهو يسوسى صفوف المجاهدين في سبيل الله . أو إذا خلا الى ربه في حجرة منعزلة في بيته يعبد الله ويتضرع اليه ، فكان أزواجه وأصحابه يتحدثون جميعا بكل ما يصدر عنه من قول أو عمل . ثم انه كان تجاه مسجده صفة يأوى اليها فقراء الصحابة الذين لم تكن لهم بيوت يأوون اليها ، فكانوا يتناوبون الخروج الى ما بعد بنيان المدينة يحتطبون من أشجار الصحراء والجبل ويبيعون ما يأتون به ليقتاتوا جميعا بثمنه ، ولم يكن لسائرهم عمل غير صحبة

النبي ﷺ ولزوم مجالسه ليحفظوا عنه ما يقول وما يعمل ثم يروونه للناس بعناية وأمانة ، وقد بلغ عدد أهل الصفة هؤلاء سبعين رجلا كان منهم أبو هريرة الذي لم يكن صحابي أكثر منه حديثا عن رسول الله ﷺ ، وهؤلاء السبعون كانوا كأنهم جواسيس الحكومة وعيونها في نشاطهم وإخلاصهم لما يسهم الله له من حفظ كل ما يستطيعون حفظه مما يدخل في موضوع الحديث النبوي لا يفترون عن ذلك آناء الليل وأطراف النهار ، وقد استمر الحال بهم على ذلك يوميا مدة عشر سنوات متواليه ، وإذا ارتحل عن المدينة في غزو أو حج كانوا معه ، وكذلك غيرهم من الصحابة ، حتى لم تخف عنهم خافية من أمره ، ولم يغيب عنهم معنى من معاني رسالته ، ولما كان فتح مكة كان معه من أصحابه عشرة آلاف ، ولما سار الى تبوك كان في معسكره ثلاثون ألفا ، ولما حج حجة الوداع حج معه في تلك السنة مائة ألف مسلم ينطبق عليهم عنوان الصحابة ، وما منهم الا من يحرص على الوقوف على شيء من هداية نبيه ﷺ أو أي أمر من أموره فيتحدث عنه . بل هو الذي أمرهم أن يبلغوا عنه ما يسمعون منه أو يرون من تصرفاته ، فإظنكم به بعد ذلك هل يخفى عن التاريخ وجه من وجوه حياته أو ناحية من نواحيها . هذا من جهة أصحابه ، وأما أعداؤه فانهم أفرغوا جهدهم ، واستنفدوا سعيهم ليقفوا على دخيلة من دوائله وليؤاخذوه بحقيقة يعلونها عنه فلم يستطع أحد منهم أن يجد له ناحية ضعف ولا ما يتدد به . وأقصى ما استطاع أعداؤه في كل زمان ومكان أن يقولوه عنه انه سل سيفه للقتال وانه كان كثير الأزواج . وقد تبين لكم مما سلف أن حياته الطاهرة التي فصلنا حقيقتها تفصيلا ، وأحفظنا بجوانبها علما ، هي حياة العصمة من كل نقص ، البريئة من كل عيب ، فأين هذا من حياة لا نعلم عنها شيئا ، ولا تزال نواحيها ووجوهها سرا في ضمير الزمن !

إخواني . أريد أن ألفت أنظاركم الى أمر آخر : إن الرسول ﷺ لم يقض حياته كلها بين أحبابه وأصحابه ، بل قضى أربعين سنة من عمره في مكة قبل أن يبعث ، فكان بين أهلها من مشركي قريش ، وكان يتعاطى فيهم التجارة ، ويعاملهم في أمور الحياة ليل نهار ، وهي الحياة اليومية وما تنطوى عليه من أخذ وعطاء ، ومن شأنها أن تكشف عن أخلاق المرء فيتبين للناس فسادها وصلاحها ، وهي عيشة طويلة طريقها كثيرة منعطفاتها وعرة مسالكها ، تعترضها وهدات مما قد يصدر عن المرء من خيانة وإخفار عهد وأكل مال بالباطل ، وعقبات من الخديعة والخباية وتطيف الكيل وبخس الحقوق وإخلاف الوعد . وإن الرسول ﷺ اجتاز هذه السيل الشائكة الوعرة وخلص منها سالماً نقياً لم يصبه شيء مما يصيب عامة الناس ، حتى لقد دعوه « الأمين » ، وإن قريشا بعد بعثته وادعائه النبوة كانوا يودعون عنده ودعاتهم وأموالهم لعظيم ثقتهم به ، وقد علمت أنه ﷺ لما هاجر من مكة خلف فيها علياً ليرد ما كان لديه من الودائع الى أهلها . فقريش خالفوه أشد الخلاف في دعوته ولم يتركوا سيلاً الى ذلك إلا سلكوه ، فقاطعوه وعاندوه وصدوا عن سبيله وألقوا عليه سلى جزور وهو يصلى ورموه بالحجارة وأرادوا قتله وكادوا له كيدهم وسمه ساعرا ودعوه شاعرا وفندوا آراءه وسخفوا حبله ، لكنهم لم يجرؤ أحد منهم على أن يقول شيئاً في أخلاقه ، ولا أن يرميه بالخيانة ، أو ينسب اليه الكذب في القول أو إخلاف الوعد أو إخفار الذمة أو نقض العهد . وإن من ادعى النبوة وقال إن الله يوحى إليه فكأنه ادعى العصمة والبرائة من جميع المفاسد ومساوى الاعمال . ألم يكن يكفي قريشا في ردهم على الرسول أن يذكروا أموراً عمل فيها الرسول بغير الحق وأن يشهدوا عليه بأنه أخلفهم وعدا أو خانهم في أموالهم أو كذبهم في شيء مما قاله لهم ؟ إن قريشا أنفقوا أموالهم وبذلوا نفوسهم في عداوة الرسول وضحوا بفلذات أكبادهم في قتاله حتى قتل منهم وجرح كثيرون ، لكنهم لم يستطيعوا أن

يدنسوا ذيله الطاهر ولا أن يصموه بشئ في عظيم أخلاقه . وكانت أحوال الرسول وشئونه وهدية ظاهرة لجميع الناس معلومة لهم ، استوى في ذلك أحبابه وأعداؤه ولم يخف عليهم شئ من أمره

كان عطاء قريش مجتمعين ذات يوم في نادهم تجرى ذكر الرسول ﷺ وفيهم النضر بن الحارث وكان رجلاً داهية مخنكا وعالماً بالأخبار فقال لهم : يا معشر قريش ، لقد أعياكم أمر محمد ، وعجزتم عن أن تدبروا فيه رأيا لما أصابكم به . إن محمداً قد نشأ فيكم حتى بلغ مبلغ الرجال ، وكان أحب الناس إليكم وأصدقهم فيكم واتخذتموه أمينا ، فلما وخطه الشيب وعرض عليكم هذا الأمر قاتم ساحر وكاهن وشاعر ومجنون . تالله لقد سمعت كلامه فليس فيه شئ مما ذكرتم

وأبو جهل كان أشد الناس عداوة للرسول ، وقد قال له ذات يوم : يا محمد ، إنى لا أقول انك كاذب ، لكنى أجد الذي جئت به وما تدعو إليه . فأنزل الله هذه الآية ﴿ قد نعلم انه ليحزنك الذي يقولون ، فانهم لا يكذبونك ﴾ وليكن الظالمين بآيات الله يمجحون ﴿ الانعام

ولما تلقى الرسول ﷺ أمر ربه بأن يدعو ذوى قرباه الى الاسلام وينذر عشيرته الأقربين صعد الجبل ونادى : يا معشر قريش . فلما اجتمعوا قال : هل كنتم مصدقني ؟ إن قلت إن جيشاً قد بلغ سفح هذا الجبل ؟ قالوا : ما جر بنا عليك كذبا قط (صحيح البخارى : سورة تبت)

ولما أرسل النبي ﷺ كتاب الدعوة الى هرقل عظيم الروم دعا هرقل أبا سفيان ليسأله عن هذه الدعوة وصاحبها . وأتم تعلوبون أن أبا سفيان كان يومئذ على العداوة للإسلام ورسوله مدة ست سنوات متوالية انقضت بمشدد المقاتلة واستنفار المشركين لحرب المسلمين . وانظروا الى هذا الموقف يدعى فيه عدو ليسأل عن عدوه اللدود الذى يتمنى لو استطاع أن يقتله ويمحو اسمه ويخفض من شأنه ، ثم يدعى الى مجلس رجل عظيم صاحب سلطان ليشهد عنده

في عدوه . فسأله هرقل عن النبي ﷺ :

— كيف نسبه فيكم ؟ قال أبو سفيان : هو فينا ذو نسب

هل قال هذا القول منكم أحد قبله ؟ لا

هل كان من آبائه من ملك ؟ لا

فأشرف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟ بل ضعفاؤهم

أيزيدون أم ينقصون ؟ بل يزيدون

فهل يرتد أحد منهم سخطه لدينه ؟ لا

فهل كنتم تهمونونه بالكذب ؟ لا

فهل يغدر ؟

لا . ونحن منه في مدة لا ندرى ما هو فاعل فيها

يقول : اعبدوا الله وحده ، ولا

تشرکوا به شيئاً ، واطرکوا ما يقول

آباؤكم . ويأمرنا بالصلاة والصدق

والعفاف والصلة (١)

فهل تجدون شهادة أعظم من هذه الشهادة ؟ ان الموقف حرج ، والسائل ملك ذو شوكة وقوة ، يسأل رجلاً ملاً الضغن صدره عن أمر الرسول فلا يقول فيه إلا الصدق والحق . فهل تجدون رسولا كاملاً أعظم من محمد ﷺ ، وأي شهادة أصدق من هذه الشهادة ؟ إن تاريخ الرسل أعجز من أن يأتي بمثله عن غيره

سادق . أريد أن ألفت أنظاركم إلى أمر آخر جدير بأن تهتموا له وتغنوا به ، ذلك أن الذين آمنوا بمحمد ﷺ أولاً لم يكونوا من صيادي الشواطئ ولا من الذين استعبدتهم فرعون مصر ، بل كان الذين آمنوا بمحمد أولاً رجلاً من أمة عريقة في الحرية ذات عقول ناضجة وقلوبهم حماسة وحمية ، لم تلن

قناتهم لحكومة قاهرة ، ولا ذلك أنفتهم دولة قوية منذ فجر التاريخ ، وكانت لهم تجارة واسعة النطاق تصدر فيها وترد سلعهم وأمتعتهم بين بلاد وبلاد ، وكانت مملكة فارس وبلاد الشام ومصر وآسيا الصغرى مضطربهم وموارد تجارتهم ، ولاحتكاكهم بالأمم المتعدنة ولقائهم الرجال من مختلف الأمم تفتقت آراؤهم واتسعت عقولهم وازدادت تجارتهم بهم . يدل على ذلك ما أثر عنهم من الاحكام وما وصل اليها في صفحات التاريخ من الاخبار . وكان من هؤلاء من قاد الجيوش وانتصر بها فعد من أعظم القادة الفاتحين ، وكان منهم من ساس البلاد وحكم الناس فأحسن الاحسان كله في سياسته وحكمه حتى عد من أعدل الولاة وأحكم الحكام سياسة وتديرا . وهل يسوغ في العقر أن من أوتي مثل هذا العقل الراجع والمواهب العظيمة والرأى الحصيف يخفى عليه شئ من أمر هذا الرسول ﷺ أو ينخدع به هؤلاء الرجال هم الذين نقوا عنه ما شهدوه بأنفسهم وسمعوه بأذانهم وكانوا يرون الاقتداء به سعادة لهم والاهتداء بهديه شرفاً لهم في الدنيا وذخراً لهم في الآخرة ، فاقفوا آثاره ، وسلكوا سبيله ، واستنوا بسنته . وهذا دليل واضح على أنه الرسول الكامل وأنه على الحق ، مما لا يردده ولا يجادل فيه إلا مكابر

إن رسول الله محمد ﷺ لم يحاول أن يخفى عن الناس أمراً من أموره ، ولا أن يكتتمهم حالة من حالاته ، لذلك عرفوه كما كان في الواقع ، وهو الآن في أذهان عارفيه كما كان في أعين مشاهديه . تقول أم المؤمنين عائشة رضی الله عنها وقد عاشرتة زوجة مدة تسع سنين : لا تصدقوا من يزعم أن محمداً رسول الله قد كتم شيئاً مما أوحى اليه فلم يبده للناس إذ يقول الله تعالى ﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ﴾ (١) المائدة

إن من طباع الناس - ولا سيما من يقوم لهم بالاصلاح والهداية
والتهذيب - أنهم لا يحبون أن يظهر للناس من نفوسهم ما يؤخذون به أو
يعاب عليهم . وفي القرآن الحكيم عدة آيات نبه الله فيها رسوله على بعض
خطأه ، فكان الرسول يتلو هذه الآيات كلها على الناس ، ويدعوهم الى حفظها
والى تلاوتها في الصلاة وفي المساجد ، ولا تزال هذه الآيات - كاخواتها -
تتلى باللسنة أتباع محمد رسول الله ﷺ ، فحيثما يبلغ انتشار الدين المحمدي ويدين
به كثير أو قليل من الناس تتلى هذه الآيات ، ولولا أن هذه الأمور ذكرت
في القرآن لما انتشر العلم بها هذا الانتشار ، وهكذا السيرة الطاهرة والحياة
السكاملة هي التي تنضح للجميع بمثل وضوح النهار أو أشد

كان العرب في الجاهلية ينكرون نكاح الرجل مطلقة متبناه ، وقد تزوج
الرسول زينب التي كانت من قبل زوجها لمتبناه زيد بعد أن طلقها ، فوردت
هذه القصة في القرآن ببيان صريح ، وإن أم المؤمنين عائشة تقول : لو كتم
رسول الله ﷺ شيئا من القرآن لكتتم هذه الآية (أي قصة طلاق زيد
لزوجته زينب وزواج النبي ﷺ بها) لكيلا يسيء فهمها الجهلاء وضعاف
العقول ، لكن الرسول ﷺ لم يفعل ذلك . أليس هذا مما يدل على أنه ﷺ
لم يكتم من أمره شيئا ولا خفي على الناس شيئا من سيرته

وجدير بالذكر شهادة شهدها الفاضل الانجليزي باسورث سميث اذ يقول :
« ترى الشمس ها هنا بارزة بيضاء تنير أشعتها كل شي وتصل الى كل شي » .
لا شك ان في الوجود شخصيات لا نعلم عنها شيئا ، ولا تبين حقيقةها أبدا ،
أو تبقى منها أمور مجهولة . بيد أن التاريخ الخارجي لمحمد (ﷺ) نعلم جميع
تفاصيله من نشأته الى شبابه ، وعلاقته بالناس ، وروابطه ، وعاداته ، ونعلم
أول تفكيره ، وتطوره ، وارتقائه التدريجي ، ثم نزول الوحي العظيم عليه
نوبة بعد نوبة ، ونعلم تاريخه الداخلي بعد ظهور دعوته وإعلان رسالته ، وإن
عندنا كتابه (القرآن) لا مثيل له في حقيقته وفي كونه محفوظا مصونا وفي

عدم التزام الترتيب في معانيه ، وإنه لم يستطع أحد أن يشك في قيامه على أساس الصدق شكا يعتد به ، فهو عندنا يمثل لروح عصره ومرآة لبيئته ، فهو لذلك يرى من كل تصنع أو تكلف . وإنه بعدم التزام الترتيب فيه ، وفي تحدته عن الشيء وضده ، معتب لنا ، غير أنه عامر بالأفكار العظيمة . فترى منه نفساً مملأى بتلك الروحانية ، مرتبطة بها ، مقصورة عليها ، ثملة بأمر الله مع الضعف الأنساني الذي لم يدع أنه يرى . منه ، بل أكبر دليل على عظمة محمد أنه لم يدع قط أنه يرى . من ذلك (ص ١٥) . ويقبول جيبين : « لم ينجح في الامتحان العسير رسول » من الرسل الأولين من بداية أمره كما نجح محمد ﷺ حين عرض نفسه بادي . ذى بدء . بصفته رسولا يوحى إليه . على الذين عرفوا ضعفه البشري وعرفوه أكثر مما يعرفه غيرهم ، فعرض رسالته على زوجته وعبد العنيد وابن عمه وصديقه القديم الذي لم يتحول عنه ولم يخذله وهؤلاء هم الذين سبقوا الناس إلى الإيمان بنبوته . إن نصيب الأنبياء انقلب في حق محمد وتغير عما كان عليه فيمن مضى من الرسل ، فلم يكن محمد غير محبوب إلا من الذين لم يعرفوه . فهذه الشهادات على أن من كان أعرف الناس برسول الله ﷺ وأقربهم إليه كان أشدهم إيمانا برسالته ، وأما الرسل الآخرون فكان الأجانب والغريباء الذين لم يعرفوهم إلا قليلا هم الذين سبقوا إلى الإيمان بهم ، وتأخر عن الإيمان بهم وتلكأ ذووهم وأهل بيوتهم والذين كانوا أكثر معرفة بهم . وهكذا كان المؤمنون برسالة محمد ﷺ هم أعرف الناس بحقيقته وأكثروهم اطلاعا على أخلاقه وسننه وهدديه ، وقد بلى كل منهم في سبيل هذا الإيمان بلاء عظيما وامتحان امتحانا شديدا ، حتى ان خديجة زوج النبي ﷺ قضت معه ثلاث سنوات محصورة في شعب أبي طالب تقاسى معه الجوع والظما والغافة المنهكة . وأبو بكر صحب النبي ﷺ يوم ضاقت به أرض مكة ، فخرج معه مرتديا ظلام الليل خائفاً يترقب ، والعدو في أثرهما يتعقب مواطئ أقدامهما ، فقام أبو بكر بحق الصحبة ، وكان الوفي بعهد الصداقة . أما على قببات على فراش الرسول الذي كان المشركون قد بيتوا الفتك به . وعبداه زيد

حل من النبي الكريم محل الولد بعطفه عليه ورأفته به ، فلما جاء أبوه الذي ولد
من صلبه يطلب رد ابنه عليه خيره رسول الله ﷺ بين أن يصحب أباه أو
يبقى تحت جناحين من عطف الرسول ورأفته ، فاختار صحبة النبي ﷺ على
الرجوع مع أبيه إلى قبيلته . يقول هيجنس في كتابة (الاعتذار عن محمد
Appology for Mohammad) : إن أتباع عيسى (عليه السلام) ينبغي
لهم أن يجعلوا على ذكر منهم أن دعوة محمد (ﷺ) أحدثت في نفوس
أصحابه من الخيبة ما لم يحدث مثله في الأتباع الأولين لعيسى (عليه السلام) ،
ومن بحث عن مثل ذلك لا يرجع إلا غائباً ، فقد هرب الحواريون وانفضوا
عن عيسى حين ذهب به أعداؤه ليصلبوه فخذله أصحابه وصحوا من سكرتهم
الدينية وأسلموا نبهم لأعدائه يسقونه كأس الموت . أما أصحاب محمد فالتفوا
حول نبهم المبعوث عليه ودافعوا عنه مخاطرين بأنفسهم إلى أن تغلب بهم على
أعدائه (انظر الترجمة الأوردية ص ٦٦ - ٦٧ عن مطبوعة برلين سنة ١٨٧٣)
وحين كره مشركو قريش يوم أحد على المسلمين فاختلت صفوفهم وتفرق
جمعهم نادى الرسول ﷺ : من يفديني ؟ فخرج من الأنصار سبعة دافع كل
واحد منهم عن الرسول وما زال يقاتل دونه حتى قتل ، وقد قتل لامرأة من
الأنصار في هذه الحرب ثلاثة رجال من بيتها : أبوها وأخوها وزوجها .
وتتابع إليها نعي الثلاثة واحداً بعد واحد ، فكانت تسأل أولاً عن الرسول
ﷺ : كيف هو ؟ فيقولون لها : انه سالم . ثم لما رأت وجهه ﷺ سرى
عنها ولم تتمالك أن صاحت قائلة : « كل مصيبة بعدك جليل يا رسول الله ،
إن الذين دافعوا عنه وقتلوا دونه وفدوه بأنفسهم قد عرفوه حق المعرفة
وعلموا سنته وهدية وخلقته ، ولولا أن حياة الرسول ﷺ كانت عظيمة كاملة
ونفسه كانت أحب النفوس اليهم ، وأعظمها في أعين أصحابه وأحبابه ، لما فدوه
بأنفسهم . ومن أجل ذلك كانت حياة النبي ﷺ أسوة لأصحابه ومحبتهم
ذريعة لمحبة الله ، فقال الله عز وجل : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم

الله ﷻ . فجعل اتباع الرسول في أخلاقه وأعماله والافتداء بسنته وهدية ، من علامات جهنم لله ، ومن السهل أن يبذل الانسان نفسه حمية لدينه لأمر يعرض له فجأة ، ولكن من العسير أن يقتدى المرء مدة حياته كلها في جميع أطوارها وشعبها ومناحيها بهدى شخص وسننه اقتداء كاملا لا يجيد عنه ولا يعدل إلى شيء غيره ، أما أصحاب محمد رسول الله ﷺ فانهم اتبعوه في جميع أخلاقهم وأعمالهم وسائر نواحي حياتهم وطرقها واقفوا أثره وامتحنوا في ذلك امتحانا شديداً وبلوا فيه بلاء عظيماً ثم خرجوا من هذا الامتحان فائزين . وإن الولوج الشديد بالرسول والمحبة الصادقة له قد حمل الصحابة والتابعين وتابى التابعين ، ثم المحدثين ومؤلفي السير والمؤرخين ، على أن يعنوا عناية كبرى بجمع كل ما يتعلق بالرسول ﷺ من قول وعمل ، وأمر ونهى ، وحديث وخلق ، وأن يبلغوا ذلك للذين يأتون بعدهم ، فأحسنوا كل الاحسان ووفوا هذه المهمة حقها ، ليعمل بهذه الهداية كل مسلم ما استطاع . ولولا أن حياة محمد ﷺ كانت كاملة وعظيمة في عيون أصحابه لما اعتبروا اتباعه شرفاً لهم وكالاً ولما عدوا الافتداء به ملاك السعادة وأصل الهناء وقوام الخير .

فالاسلام قرر أن حياة محمد هي المثل الكامل لجميع المسلمين ، وينبغي بيان جميع نواحيها وشعبها ووجوهها للناس كافة . وقد حقق المسلمون ذلك وحرصوا على تعرف ذلك وبيانه ، فلم تخف منه خافية ، ولم تفقد ولا حلقة واحدة من سلسلة الحياة النبوية المباركة ، فجميع أحواله وشئونه مسطوره في كتب التاريخ ، ومن ذلك يستدل على أنها كانت حياة كاملة طاهرة بريئة من كل نقص ، ولا تكون حياة بشر أسوة للناس إلا إذا كانت واضحة ناصعة معلومة من كل وجوهها ونواحيها جامعة لجميع المحامد شاملة لأكرم الاخلاق وأحسن التعاليم

لقد كانت لبلاد بابل والهند والصين ومصر والشام واليونان والرومان حضارات زاهرة ومدنيات عظيمة وثقافات عالية ، وقد كانت لأهالي تلك البلاد سنن في الأخلاق اتخذوا منها أصولا وضوابط للثقافة ، وآدابا للمعايشة : في النهوض والتعود والكلام والطعام والشراب ، واختاروا مناهج خاصة بمعيشتهم ، ووضعوا آداباً لهم في الزي والشارة وأوضاعا في الملابس ، وكان لهم هدى في نومهم ويقظتهم وحدود في لقاء الناس والتعامل معهم ، وسنوا لأنفسهم سنن في الزواج ، ورسموا رسوماً للتهنئة والتعزية وتكفين الموتي ودفنهم ، ولم يتركوا حالاً من أحوال الإنسان - من عيادة المريض ومصافحة الاخوان ولقاء الخلان والاستحمام - إلا اتخذوا لها السنن والرسوم والآداب - فنشأت من ذلك أصول وقواعد لمدينتهم وثقافتهم . وبديهي أن هذه السنن والآداب لم تتم لهم الا في قرون متطاولة ، ثم درست آثارها وبجيت رسوماها وطمست معالمها ، فكان قيامها واكتهاها في زمان طويل وزواها في مدة قليلة . أما مدينة الاسلام وثقافته فان قيامها واكتهاها وظهورها في سنوات قليلة ولا تزال مدينة الاسلام وثقافته مستمرة ومعمولا بها في الدنيا منذ أربعة عشر قرناً بين أمم شتى وأقوام مختلفة يستوى في ذلك العربي والهندي والشرقي والغربي ، لأن المسلمين اقتبسوا ذلك من مشكاة نبيهم ﷺ ، وناسوا فيه بحياته الكريمة ، فاستنارت بهذا النور حياة الصحابة ، وانعكست أضواؤها على حياة التابعين ومن جاء بعدهم ، فنشأت عن ذلك بيئة صالحة زكية ، وكان منها للعالم الاسلامي كله أسوة حسنة في رسومه الفاشية وآدابه القويمة ويمكننا أن نقول بعبارة أخرى : إن الحياة المحمدية كانت مركز الدائرة . فجاء الصحابة فخطوا حول نقطة المركز خطوطاً تمت بها تلك الدائرة والتف المسلمون بعد ذلك من حولها . وإذا كانت المدينة الاسلامية لم تبق اليوم في مثل كمالها الا في اول وجمالها الأسنى فان آثارها لا تبرح باقية تلمع ، والمسلمون يقتفون تلك

الآثار الى يومنا هذا . وقد علمنا أن حياة محمد ﷺ كانت في بادىء الامر قدوة لجميع الصحابة في حياتهم ، فكانوا يهتدون بهديه ، ويستنون بسنته ، ثم كان لسائر المسلمين أسوة حسنة بها يتخذونها مثالا كاملا لهم ولا تنفك صورتها معروفة لهم باقية فيهم . ولو أن قبيلة من وثنى الهند أو إفريقية تنصرت ودخلت في دين المسيح عليه السلام فانها تأخذ مسيحيتها من الاناجيل ، أما مدنيها ومنهج حياتها في مظاهرها وأوضاعها فان تلك القبيلة تأخذه عن مدينة أوربا وثقافتها ومنهج حياتها ، وليس ذلك من المسيحية في شيء . أما الاسلام فاذا دخل في هدايته قوم جدد لم يكونوا مسلمين من قبل ، فانهم كما يقتبسون دينهم مما كان يدعو اليه النبي ﷺ ، فانهم من هديه ومن سنته أيضا يتعلمون آداب المعاشرة ومنهج الحياة الاجتماعية وطرق المعيشة . وإن تعاليم الرسول ﷺ - من أدب وخلق ومعاشرة - هي التي تؤثر في أخلاق المسلمين فتصاغ في هذه البوتقة حتى تسبك بها في أزكى قالب . وقد قال يهودى مرة لأحد الصحابة وهو يعرض بالاسلام : ان رسولكم يعلمكم كل شيء ، حتى بعض الأمور الحقيرة ، فأجابه الصحابي وهو مغتبط : نعم ، إن رسولنا يعلمنا كل شيء حتى آداب الخروج الى الخلاء .

وكذلك نحن لا نزال نقدم للناس تلك السيرة الكاملة التي هي لنا سراج وهاج في جميع شؤون الحياة البشرية ، فكان السيرة المحمدية مرآة صافية للدنيا كلها يرى فيها كل انسان صورته وروحه ، ظاهره وباطنه ، قوله وعمله ، خلقه وأدبه ، هديه وسنته ، وفي استطاعته أن يصلح أخلاقه ويثقف عوجه بحسب ما يراه في تلك المرآة الصافية

لأجل ذلك لا ترى أمة مسلمة تبحث - في خارج دينها وبمنأى عن سيرة نبيا - عن أصول وضوابط تقوم بها اعوجاجها وثقف منأدبها وتصلح زيغها ،

لأنها في غنى عما هو أجنبي عنها ، وعندها في هدى سيرة نبيها ﷺ الميزان
القويم والقسطاس المستقيم ، الذي تتبين به مافى العالم من خير وشر وتميز به
الحق من الباطل . وفي الحق إن العالم كله لني حاجة شديدة الى سيرة بشر كامل
تتخذ من حياته الاسوة العظمى ، وليس في الدنيا لإنسان كامل يعرف التاريخ
سيرته على التفصيل كما يعرف تفاصيل حياة محمد ﷺ خاتم النبيين . فالناس
كلهم في أمس الحاجة إلى أن يتخذوا من السيرة المحمدية منهاج حياتهم ، ففيها
الاسوة الطاهرة ، وهي الحياة المثالية للناس جميعاً . صلى الله وسلم عليه



المحاضرة الخامسة

في السيرة المحمدية من ناهيتها الجامعة

﴿ قل إن كنتم تحبون ﴾

الله ، فاتبعوني يحببكم الله ﴾

سادق . إن جميع الأديان والنحل حثت الناس على اتباع أصحاب هذه الأديان ، وأن يقتفوا آثارهم ، ويعملوا (بأقوال) أنبيائهم ، لينالوا بذلك رضا الله ومحبه

أما الاسلام فقد اختار طريقاً آخر خيراً من ذلك ، وهو أنه قدم للناس (أعمال) نبيه ، وعرض عليهم التأسى به في سيرته كاملة ليس فيها خرم . وجعل اتباعهم لتلك السيرة وتأسيمهم بصاحبها وسيلة لهم في الحصول على رضا الله ومحبه . لأجل ذلك ترى في الاسلام مرجعين : كتاب الله ، وسنة نبيه . فأحكامه تعالى قد جاءتنا في كتابه وهو القرآن الحكيم ، وفي سنة نبيه صلى الله عليه وسلم . والسنة في اللغة : الطريقة . والمراد بها في اصطلاح الشريعة الاسلامية الطريقة التي اختارها الرسول وسلكتها عاملاً بأحكام الله . فمعنى السنة إذن الاسوة النبوية وسيرة الرسول الطاهرة التي أثرت عنه وبلغتنا كاملة في كتب الحديث الصحيحة ، والمسلم لا ينجح في دينه ولا يكمل في اسلامه إلا باتباع السنة النبوية وحدها

وليس من الممكن أن يكون جميع الداخلين في دين من الأديان من طائفة بشرية واحدة ، أو أن يكونوا من شعب انساني واحد ، لأن الدنيا قد قام بنيانها على التنوع في الأعمال والاختلاف في الافعال ، ولولا أن الناس يختلفون في مهنتهم ومكاسبهم وأشغالهم ومعايشهم ، وهم يتعاونون ويساعد

بعضهم بعضا ، لخربت الدنيا . ولا بد للعالم من ملك أو رئيس جمهورية أو وال يتولى أمورهم العامة وحاكم يحكم بينهم فيما يختلفون فيه . وكذلك لا تخلو الدنيا من رعية يرعى أمورهم رئيس ، ومن محكومين يحكم فيهم حاكم ، ومن خصوم يقضى بينهم قاض بالعدل ، ليسود الأمان ويستتب السلام . وكذلك الأمم تحتاج إلى أن يكمن لها جنود يدافعون عن كيائها ، وأن يكون على الجنود ضباط وقادة . وتجد فيهم الفقراء الذين يعانون القسوة والبؤس كما تجد فيهم الأغنياء من أهل الترف والسرف . وفيهم عباد الله يقومون بطاعته في جوف الليل ، وزهاد تحرروا من متع الدنيا وزخارفها ، وبجاهدون في سبيل الله يقارعون الباطل ويطهرون الحق في الأرض . وكذلك ترى في الدنيا العائلين الذين يكدرحون لمن يعولونهم ، وترى فيها لفيف الأصدقاء المتحابين ، وطوائف التجار والمحترفين ، وأصحاب المصانع والمعامل . وهكذا الدنيا لا تخلو من قادة الأمم وساسة الشعوب وزعماء الأحزاب . وعلى شتى الطوائف ومختلف الفرق قام نظام هذه الدنيا ، وكل منهم يحتاج في عمله إلى حياة مثالية وأسوة كاملة يقتدى بها ليكون سعيدا في الحياة . والاسلام دعا جميع هذه الفرق والطوائف والأحزاب لأن يتبعوا سنة محمد ﷺ ويقتفوا آثاره ويسلكوا طريقه . ومن تتبع ذلك يتبين له أن السنة المحمدية تكفي جميع شعوب البشر وطوائفهم وفرقهم إذا اتخذوا منها الأسوة والقدوة ، ففيها النور الذي يستضاء به في ظلمات الحياة الاجتماعية ، وكل من ظلما حالكة في الحياة ! ومن هنا تعلم أن سيرة محمد رسول الله ﷺ جامعة تجد فيها كل طائفة من طوائف البشر المثل الأعلى الذي تقتدى به ، والأسوة التي تأتسى بها . ومن الظاهر الواضح أن حياة المحكوم لا تصلح لأن تكون قدوة لحياة الحاكم ، كما أن حياة الحاكم لا تصلح لأن تكون قدوة لحياة المحكوم . وكذلك الفقير المعدم لا يتسنى له أن يسير في معيشته على ضوء من حياة الغنى المثرى . ومن ثم مست الحاجة إلى أن تكون الحياة المحمدية جامعة يجسد فيها الناس كلهم على

اختلاف طوائفهم الاسوة الكاملة في جميع ألوان الحياة وأطوارها . وإن مثلها كمثل الباقية الجامعة لكل أصناف الزهور والورود بجميع ألوانها : فيها الأحمر القاني والأبيض الناصع والأخضر الناضر والأصفر الفاقع

وفي البشر طوائف مختلفة وفرق شتى تحتاج كلها الى حياة مثالية تكون نموذجاً لها في حياتها ومعيشتها . ولكل إنسان من هذه الطوائف أعمال وأحوال تتقلب عليه بتقلب الظروف : بين قيام وقعود ومشى وأكل وشرب ونوم ويقظه وضحك وبكاء وارتداء الملابس وخلعها وأخذ وعطاء وتعلم وتعليم ، وقد يموت حتف أنفه أو يقتل ، ويكون محسناً لغيره أو محتاجاً لاحسان الآخرين اليه ، وقد يكون في عبادة ربه أو في معاملة الناس ومعاشرتهم ، وقد ينزل على غيره ضيقاً أو يستقبل الضيف ويقوم له بحق القرى . هذه الاحوال وغيرها تطرأ على الانسان وتعرض له فيما يتعلق بحسبه وجوارحه فيحتاج في كل حال منها الى هداية نافعة وأسوة كاملة

وأعظم من الاسوة في أعمال الانسان الظاهرة ، الاسوة فيما يتعلق بخبرات القلوب ومجالات الفكر ونزعات العواطف ، فنحن نشعر بين كل حين وآخر بنزعات وعواطف تحتاج قلوبنا وأفكارنا ، فنرضى ونسخط ، ونفرح ونحزن ، ونعترينا السكينة والطمأنينة أو القلق والضجر . وتترتب على هذه الاحوال عواطف مختلفة ونوازع متعددة . وليس الخلق الحسن إلا التعديل بين هذه الاحوال وإقامة الوزن بالقسط بين العواطف القوية والنوازع النائرة . ولا يحظى بنصيبه من مكارم الأخلاق الا الذي يعرف كيف يكبح النفس عند جموحها ويحسن التصرف فيها وقت ثورتها . ومع ذلك فلا بد للانسان من إمام تكون له فيه الاسوة النامة في هذه الامور فيأتم به في قهر هذه القوى النائرة والعواطف المتوثبة الى أن تسكن ثورة نفسه ويسلك في ذلك مسلك قدوته الاعظم وهو النبي ﷺ الذي كان يحمل بين جنبيه قلباً زكياً ونفساً طاهرة وروحاً عالية نزيهة

وهكذا المرء في كل خلة من خلال العزيمة والشجاعة والشكر والتوكل والرضا بالقدر والصبر على النوائب والتضحية والقناعة والاستغناء والابتناء والجلود والتواضع والمسكنة ، وسائر ما يطرأ على البشر في منفسح حياتهم ومدى عيشهم ، وما ربما يعترى هذه الخصال في ساعات مختلفة من مضطرب حياة الانسان ، فانه يحتاج في كل ذلك الى أسوة وهداية ممن سبق له العمل بذلك ، وأنتى لنا هذه الاسوة الكاملة والهداية القائمة إلا في حياة محمد رسول الله ﷺ

إن حياة موسى عليه السلام تمثل لنا القوة البشرية العظيمة والبطش الشديد ، ولكننا لا نعرف في المأثور عنه ما تكون لنا فيه الاسوة من ناحية دماثة الخلق وخفض الجناح وسجاجة النفس وسماحتها

وفيا نعرفه من حياة المسيح نماذج لساحة النفس ورقة الطبع ودماثة الخلق ولين الجانب ، لكننا لا نجد فيها وصل الينا من أخلاقه وأعماله تفاصيل عن شئون حياته وسيرته تحرك ساكن القوى وتثير كوامن النفس وتنبه القوى المترامية . والانسان في حياته يحتاج الى هذا وهذا ، فكما يحتاج الى ما يهدىء نائر قواه ويسكن جائشها يحتاج كذلك الى ما يثير السكامن من هذه القوى ويهيج ساكنها وينبه المتراسخى منها . انه في حاجة الى حياة يتخذها قدوة له في هاتين الحالتين المختلفتين ، على أن يكون بيد صاحبا ميزان العدل بالقسط تستوى كفتاه ، ولن نجد الجمع بين هاتين الخصلتين المختلفتين جمعا قويا عزيز الوجود إلا في حياة محمد ﷺ ، فانه هو الذى مثلت حياته أعمالا كثيرة متنوعة بحيث تكون فيها الاسوة الصالحة والمهيج الأعلى للحياة الانسانية في جميع أطوارها ، لأنها جمعت بين الأخلاق العالية والعادات الحسنة والعواطف النبيلة المعتدلة والنوازع العظيمة القويمة

إذا كنت غنيا مثر يا فاقده بالرسول ﷺ عندما كان تاجرا يسير بسلهه بين الحجاز والشام ، وحين ملك خزائن البحرين . وان كنت فقيرا معدما فلتكن

لك أسوة به وهو محصور في شعب أبي طالب ، وحين قدم الى المدينة مهاجراً اليها من وطنه وهو لا يحمل من حطام الدنيا شيئاً . وإن كنت ملكاً فاقتد بسننه وأعماله حين ملك أمر العرب وغلب على آفاقهم ودان لطاعته عطاؤهم وذوو أحلامهم . وإن كنت رعية ضعيفاً فلك في رسول الله أسوة حسنة أيام كان محكوماً بمكة في نظام المشركين . وإن كنت فاتحاً غالباً فلك من حياته نصيب أيام ظفروه بعدوه في بدر وحنين ومكة . وإن كنت منزهماً - لا قدر الله ذلك - فاعتبر به في يوم أحد وهو بين أصحابه القتلى ورفقائه المشنخين بالجراح . وإن كنت معلماً فانظر اليه وهو يعلم أصحابه في صفّة المسجد . وإن كنت تليذا متعلماً فتصور مقعده بين يدي الامين جاثياً مسترشداً . وإن كنت واعظاً ناصحاً ومرشداً أميناً فاستمع اليه وهو يعظ الناس على أعواد المسجد النبوي . وإن أردت أن تقيم الحق وتصدع بالمعروف وأنت لا ناصر لك ولا معين فانظر اليه وهو ضعيف بمكة لا ناصر ينصره ولا معين يعينه ومع ذلك فهو يدعو الى الحق ويملن به . وإن هزمت عدوك وخضت شوكته وقهرت عناده فظهر الحق على يدك وزهق الباطل واستتب لك الأمر فانظر الى النبي ﷺ يوم دخل مكة وفتحها . وإن أردت أن تصلح أمورك وتقوم على ضياعك فانظر اليه ﷺ وقد ملك ضياع بني النضير وخيبر وفدك كيف دبر أمورها وأصلح شئونها وفوضها الى من أحسن القيام عليها . وإن كنت يتيماً فانظر الى فلذة كبد آمنة وزوجها عبد الله وقد توفيا وابنها صغير رضيع . وإن كنت صغير السن فانظر الى ذلك الوليد العظيم حين أرضعته مرضعته الحنون حليلة السعدية . وإن كنت شاباً ناشئاً فاقراً سيرة راعي مكة . وإن كنت تاجراً مسافراً بالبضائع فلاحظ شئون سيد القافلة التي قصدت بصرى . وإن كنت قاضياً أو حكماً فانظر الى الحكم الذي قصد الكعبة قبل بزوغ الشمس ليضع الحجر الاسود في محله وقد كاد رؤساء مكة يقتلون ، ثم ارجع البصر اليه مرة أخرى وهو في فناء مسجد المدينة يقضى بين الناس

بالعدل يستوى عنده منهم الفقير المعدم والغنى المثرى . وان كنت زوجا
فاقرأ السيرة الطاهرة والحياة الزبيلة لزوج خديجة وعائشة . وإن كنت أبا
أولاد فتعلم ما كان عليه والد فاطمة الزهراء وجد الحسن والحسين . وأيا من
كنت ، وفي أى شأن كان شأنك ، فانك مهما أصبحت أو أمسيت وعلى أى حال
بت أو أضحيت فلك فى حياة محمد ﷺ هداية حسنة وقدوة صالحة تضى لك
بنورها دياجى الحياة ، وينجلى لك بضوئها ظلام العيش ، فتصالح ما اضطرب
من أمورك ، وتثقف بهديه أو دك ، وتقوم بسنته عزجك . وإن السيرة
الطيبة الجامعة لشتى الأمور هى ملك الأخلاق وجماع التعاليم لشعوب الأرض
وللناس كافة فى أطوار الحياة كلها وأحوال الناس على اختلافها وتنوعها .
فالسيرة المحمدية نور للمستنير ، وهدىها نبراس للمستهدى ، وإرشادها ملجأ
لكل مسترشد

كان الواعظ الذائع الصيت الاستاذ حسن على رحمه الله يصدر فى (بتنه) قبل
خمسین عاما بمجلة (نور الاسلام) ، وقد قال فى جزء منها ان صديقا له من
البراهمة قال له : إني أرى أن رسول الإسلام أعظم رجال العالم وأكلمهم . فقال
له الاستاذ حسن على : وما هى منزلة المسيح عيسى بن مريم عندك من رسول
الاسلام ؟ فأجابه : إن المسيح بن مريم عندى فى جانب محمد ﷺ كمثل ولد
صغير يتكلم بكلام عذب ويتحدث حديثا حلوا عند عقل أهل زمانه وأكثرهم
حزما . ثم سأله حسن على : وبما ذا كان رسول الاسلام عندك أكمل رجال
العالم ؟ فأجاب : لاني أجد فى رسول الاسلام خلايا مختلفة وأخلاقا جمّة
وخصالا كثيرة لم أرها اجتمعت فى تاريخ العالم لانسان واحد فى آن واحد :
فقد كان مسلكا دانة له أو طانة كلها يصرف الأمر فيها كما يشاء وهو مع ذلك
متواضع فى نفسه يرى أنه لا يملك من الأمر شيئا وأن الأمر كله بيد ربه .
وتراه فى غنى عظيم تأتيه الابل موقرة بالحزائن إلى عاصمته ، ويسقى مع ذلك
محتاجا ولا توقد فى بيته نار اطعام فى الأيام الطوال وكثيرا ما يطوى على الجوع .

وتراه قائدا عظيما يقود الجند القليل العدد الضعيف العدد فيقاتل بهم الوفا من الجند المدجج بالأسلحة السكاملة ثم يهزمهم شر هزيمة . ونجده محبا للسلام مؤثرا للصلح ويوقع شروط الهدنة على القرطاس بقلب مطمئن وجأش هادى .
ومعه ألوف من أصحابه كل منهم شجاع باسل وصاحب حماسة وحمية تملأ جوانحه ونشأه بطلا شجاعا يصمد وحده لآلاف من أعدائه غير مكترث بكثرتهم ، وهو مع ذلك رقيق القلب رحيم رهوف متعفف عن سفك قطرة دم . وتراه مشغول الفكر بجزيرة العرب كلها ، بينما هو لا يفوته أمر من أمور بيته وأزواجه وأولاده ، ولا من أمور فقراء المسلمين ومساكينهم ، ويهتم بأمر الناس الذين نسوا خالقهم وصدوا عنه فيحرص على إصلاحهم . وبالجملة انه إنسان يهيمه أمر العالم كله ، وهو مع ذلك متبتل لى الله ، منقطع عن الدنيا ، فهو فى الدنيا وليس فيها ، لأن قلبه لا يتعلق إلا بالله وبما يرضى الله . لم ينتقم من أحد قط لذات نفسه ، وكان يدعو لعدوه بالخير ، ويريد لهم الخير ، لكنه لا يعفو عن أعداء الله ، ولا يتركهم ، ولا يزال ينذر الذين قد صدوا عن سبيل الله ويوعدهم عذاب جهنم . تراه زاهداً فى الدنيا عابداً ، يقوم الليل لذكر الله ومناجاته . كما تتصور من شمائله أنه الجندى الباسل المقاتل بالسيف . وتراه رسولا حصيها ونبيها معصوما فى الساعة التى تتصوره فيها فاتحا للبلاد ظافرا بالأمم . وانه ليضطجع على حصير له من خوص ويتكى على وسادة حشوها من ليف حينئذ يحظر على بالننا أن تدعوه بسلطان العرب وتنادى به ملكاً على بلاد العرب . ويكون أهل بيته فى فاقة وشدة عقب استقباله الاموال العظيمة آتية اليه من أنحاء الجزيرة العربية فتكون فى فناء مسجده أكواما ، وتأتيه بنته وولدة كبدته فاطمة تشكو اليه ما تكابده من حمل القربة والطنحن بالرحى حتى مجلت يداها وأثرت القربة فى جسمها ، والرسول يومئذ يقسم بين المسلمين ما أفاء الله عليهم من عبيد الحرب وإمائها ، فلا تنال بنته من ذلك الا دعاه لها بكلمات يعلمها كيف تدعوها ربهها . وجاءه ذات يوم صاحبه عمر ،

فأجال بصره في الحجرة فلم يجد إلا حصيراً من خوص قد اضطجع الرسول عليه
وأثر في جنبه ، وكل ما في البيت صاع من شعير في وعاء وعلى مقربة منه شن
معلق على وتد . هذا كل ما كان يملك رسول الله يوم دان له نصف العرب .
فلما رأى عمر ذلك لم يتمالك نفسه من دهوع تذرّفها عيناه ، فسأله رسول الله
ﷺ : ما يبكيك يا عمر ؟ فقال : ومالي لا أبكي ، إن قبصر وكسرى يتمتعان
بالدنيا ، وينعمان بنعيمها ، وإن رسول الله ﷺ لا يملك إلا ما أرى . فقال
له الرسول سلام الله عليه : أما ترضى يا عمر أن يكون ذلك نصيب كسرى
وقبصر من نعيم الدنيا ، وتكون لنا الآخرة خالصة من دون الناس ؟

وعندما أحرق النبي ﷺ بجيوشه ليفتح مكة قام أبو سفيان إلى جانب
العباس عم النبي ﷺ ينظران إلى المجاهدين من المسلمين تتقدمهم الأعلام
الكثيرة ، وكان أبو سفيان لا يزال على ما كان عليه من المخالفة للإسلام ،
فراعه ما رأى من كثرة جموع المسلمين ومن انضوى اليهم من القبائل المسلبة
وأهم يزحفون على بطحاء مكة كالسيل الجارف لا يصدّه صاد ولا يمنعّه
شئ ، فقال لصاحبه : يا عباس ان ابن أخيك أصبح ملكاً عظيماً . فأجابه
العباس وهو يرى غير الذي يراه أبو سفيان : ليس هذا من الملك في شئ
يا أبا سفيان ، هذه نبوءة ورسالة

وعدى الطائي - وهو ابن حاتم الذائع الصيت الذي تضرب به الأمثال
في الجود والسخاء - كان سيد طيء . وحضر مجلس الرسول ﷺ ذات يوم
وهو لا يزال على المسيحية ، فشاهد إعظام الصحابة للرسول ، وعليهم عدة
الجهاد من الأسلحة واللامّة للدفاع ، فاشتبه عليه أمر النبوة بأمر السلطان ،
وتساءل في نفسه : أهذا ملك من الملوك أم رسول من رسل الله ؟ وفيما هو
كذلك جاءت إلى النبي ﷺ امرأة فقيرة من إماء المدينة وقالت له : أريد
يا رسول الله أن أسرّ إليك شيئاً . فقال لها : انظري في أي سكك المدينة
شئت أخلو لك . ثم نهض معها وقضى لها حاجتها . فلما رأى ابن حاتم الطائي

هذا التواضع العظيم من الرسول العظيم وهو بين أصحابه في مثل عظمة الملك ،
انجلي عنه ظلام الباطل وتبين له الحق واضحا وأيقن أن هذا الأمر من
رسالات الله ، فعمد إلى صليبه فزرعه عنه ودخل مع أصحاب رسول الله ﷺ
في نور الاسلام

وفي الجملة إن كل ما ذكرته آنفا ليس من الاطراء في الثناء ولا من
المبالغة في المدح ، بل هو من حقائق الواقع التي سجلها التاريخ بأصح
ما استطاع أن يسجل به حقائقه . وبما لا ريب فيه أنه لا يستحق لإنسان أن
يكون قدوة للعالم في جميع مناهج الحياة إلا اذا اجتمعت فيه الخلال الشريفة
كلها والخصال الانسانية السكاملة بأجمعها مما يحتاج اليه الناس في معاشهم ،
فتكون لهم في سيرته أمثلة كثيرة ، وفي هديه أمور متنوعة ، تستثير بها كل
طائفة من طوائف الناس ، وكل فرقة في كل أمة من أممهم ، فيتخذون في أنفسهم
سنة وأدبا ومناهج من حياته الشريفة لحياتهم الاجتماعية والعائلية . وبذلك
يكون الشخص العظيم المقتدى به هاديا للناس بأعماله وأخلاقه وخصاله عند ما
يكون في حالات الغضب أو الرحمة أو الجود أو الفسقة أو الشجاعة أو رقة
القلب فيهدون به في هذه الأحوال بديانهم كما يهدون به بصحة الاعتقاد وسلامة
العبادة لآخرتهم . فهو يجمع إلى إسعاد الناس في آخرتهم إسعادهم في حياتهم
الدنيا وأحداثها اليومية ، فيبصر لهم خلافة الله على الأرض كما يدلهم على
مقام الكرامة في منكوت السماء . وهو مع ذلك يسن لهم السنن ويشرع لهم
الأحكام لينظموا حياتهم في الأرض والسماء . وإن العفو والمساحة واللين
وخفض الجناح للأخيار من قوام الحياة الانسانية ، ولا يسعد الانسان إلا
بلين القول والعفو عن الناس وخفض الجناح لهم ، ومن كان نصيبه وافر آمن
هذه الخصال كان المعلم العظيم والمحسن الكبير . وإني أسألكم فأجيبوني :
هل هذه الخصال وحدها هي التي تكون في الانسان ، أم تكون فيه أضعافها
أيضا ؟ أليس في خصال الانسان الغضب بجانب ما فيه من رحمة ، والعداوة

بجانب الصداقة والخلة ، والطمع مع القناعة ، والشره مع العفة . أليس ينزع الى التآر كما يميل الى العفو ، أليس هذا كله مما تقتضيه جبلة الانسان وغيره ؟ إن المعلم الكامل هو الذى يستطيع أن يعتدل بين هذه الاحوال والحضال المتضادة ، ويقيم الميزان فى هذه النزعات والعواطف حتى يكسر سورتها ويخفف من شدتها ويكون عادلا معتدلا ، فتكون له من سجايها الطيبة مطية كريمة تبلغ به الغاية القصوى من الحق . أما الذين يزعمون أن ملاك أديانهم وقوام نحلهم العفو واللين فحسب ، وليس فى سيرة رسلهم إلا المسامحة وخفض الجناح ، فأنبؤنى - بفضلكم - كم يوما عمل أتباعهم بهذه السيرة فى مجتمعهم ، وإلى متى استمر واعدى هذا الهدى فى حياتهم الاجتماعية بين زمن قسطنطين أول الملوك المسيحيين إلى يومنا هذا ، وأى ملك مسيحي عمل فى دولته بسيرة نبيه ؟

لقد قامت الامة المسيحية دول كثيرة فى بقاع الأرض ، فخبرونى أى دولة مسيحية سنت لرعيها قوانين تلاثم سيرة رسولها من العفو عن الجناة ، واللين لمن أغلظ ، وخفض الجناح لمن اشتد ؟ وإذا لم تكن فى سيرة رسول من رسل الله أسوة لاتباع ذلك الرسول أنفسهم فكيف يكون حالها ؟ وإذا رجعت إلى حياة نوح ترى الغيظ والحق على الكفر وأهله وعلى الشرك ومن يدين به . وترى فى حياة ابراهيم جهادا فى تحطيم الاصنام وإبطال عبادة الأوثان . وفى حياة موسى قتالا للمشركين بالله ، وقد سن للمؤمنين به سننا اجتماعية وقوانين ملكية . وترى المسيح عيسى بن مريم يعفو ويصفح ويلين للناس ويخفف لهم جناحه فتمتلىء نفسك إعجابا بعفوه وعفته . وأما سليمان عليه السلام فيعجبك بجلالته وسلطانه وأهبة ملكه . وتمثل لك حياة أيوب معانى الصبر على المسكاره وشكر الله على الرغائب . ويمثلك يونس إعجابا بإنابته إلى الله وندمه على ما فرط منه . ويوسف عليه السلام يهديك كيف يقوم الانسان بدعوة الحق وهو أسير عان وكيف يصون نفسه ويستمسك بعفافه حين تراوده امرأة ذات جمال وجلال ومال وعظمة . وفى حياة داود

درس عظيمة وصحيحة عبرة إذ يبكي من خشية الله ويحمده ويدعوه متضرعا إليه . وفي سيرة يعقوب أسوة للرب فيما يرجوه من رحمة الله والثقة به والتوكل عليه عندما تظلم الدنيا في عينيه . أما سيرة محمد ﷺ فإنها تجمع ذلك كله وتشتمل على جميع هذه الخصال وتعم الأخلاق الكريمة بخدا فيرهما وما تفرق منها في سيرة نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وسليمان وداود وأيوب ويونس ويوسف ويعقوب عليهم الصلاة والسلام ، فكانت السيرة المحمدية بحر لحي تنصب فيه جميع الأنهار وتتصل به كل البحار من سير الأنبياء والرسل وهديتهم وسنتهم

روى الخطيب البغدادي في تاريخه بإسناد لين أن نداء سمع عند مولد النبي ﷺ أن طوفوا بمحمد جميع البلاد واغطسوه في قعر البحار ليعرف العالم كله ، ثم اذهبوا به إلى جميع الانس والطيور والحیوان ، وأعطوه من خلق آدم ومعرفة شيث وشجاعة نوح وخلة إبراهيم ولسان اسماعيل ورضا إسحق وبلاغة صالح وحكمة لوط وشدة موسى وصبر أيوب وطاعة يونس وجهاد يوشع ولحن داود وحب دانيال ووقار الياس وعفة يحيى وزهد عيسى ، واغمسوه في بحر أخلاق الرسل كلهم

والعلماء الذين رووا هذه الرواية في كتبهم أرادوا بها أن يعرفوا عن حقيقة سيرة الرسول وأنها كاملة جامعة ، وأن ما أعطى الرسل جميعا متفرقين قد أوتيته محمد ﷺ وحده ، وأن ما تفرق من مكارم الأخلاق في الرسل قد اجتمع فيه ﷺ

تأملوا سيرة محمد ﷺ تجدوا فيها كل ما كانت به حياته المثالية كاملة . أليس الرسول المنكي الذي خرج من بلده مهاجرا إلى يثرب يشبه الرسول الإسرائيلي الذي خرج من مصر يريد مدين ؟ أليس الذي أنزوى في غار حراء يعبد ربه كالذي قصد جبل سيناء ليُناجي ربه ؟ إن هذا يشبه ذلك مع فارق بينهما وهو أن عيني محمد كانتا مفتوحتين وعينا موسى كانتا مغمضتين ، وأن رسول الإسلام كان ينظر في داخله ورسول بني إسرائيل كان ينظر إلى خارجه

إن عيسى عليه السلام في ذهابه إلى جبل الزيتون ليلقي عظته يشابه محمداً ﷺ وقد ارتقى جبل الصفا لينادي معاشر قريش . والذي قاتل مشركي بلاد العرب في بدر وحنين ويوم الاحزاب وتبوك يشبه موسى الذي قاتل المؤابيين والعمونيين والأموريين

وإن الرسول محمداً ﷺ دعا على سبعة رجال من أعيان مكة فهلكوا ، وموسى دعا على فرعون ومن التف حوله حين رأوا بأعينهم آية بينة من الله مرة بعد أخرى لكنهم لجوا في عتو ونفور ولم يؤمنوا به فهلكوا مغرقين في البحر الأحمر ، فتشابهت سنة الرسول محمد وسنة الرسول موسى عليها الصلاة والسلام

إن محمداً نبي الله دعا بالخير لمن أراد قتله من المشركين يوم أحد ، وإن عيسى عليه السلام لم يدع على أحد وما زال يبغى الخير لأعدائه ، أليس هدى محمد رسول الله ﷺ يشابه من هذه الناحية هدى عيسى رسول الله ﷺ ؟ وإن محمداً رسول الله ﷺ حين تراه في فناء المسجد يقضى بين الناس بالحق ويحكم فيهم بالعدل ، أو في ساحات الحرب يقاتل الكفار والمشركين ، فكأنك ترى موسى رسول الله وهو يجاهد أعداءه ويقاثل الذين يعبدون الأوثان . وحين ترى محمداً رسول الله يعبد ربه ويتضرع إليه في خلوة عن الناس إما في حجرة منفردة أو في مغارة من الجبل وقد أرخى الليل سدوله فكأنك ترى عيسى وقد خلا بنفسه يوحد الله ويناجيه بالعبودية له

ولو رأيت نبي الاسلام وهو يذكر الله دائماً ويحمده ويسبحه في البكور والآصال وفي كل حال - فاذا بدأ بالاكل بدأه باسم الله ، وإذا فرغ منه حمد الله ، وإذا جلس مع أحد كان التذكير بالله من عمله في ذلك المجلس ، وإذا نام نام وهو يذكر ربه ويستعرض آلامه عليه - فكأنك برؤية نبي الاسلام قد رأيت النبي صاحب الزبور في ترتيله محامداً الله ونعمه . وكأنك ترى سليمان في جنوده وعليه جلال الملك وأبهة السلطان حينما ترى محمداً بين أصحابه وقد

فتفتح مكة ودخلها تحت رايات المجاهدين بأيديهم السيوف مصلنة لإقامة الحق ،
والعوالى السمر مشرعة لتقويض دعائم الباطل . أما إذا رأيتَهُ وهو محصور
مع ذويه فى شعب أبى طالب وقد مُنِع دخول الطعام والشراب إليه من
الخارج فكأنك ترى يوسف الصديق وهو فى سجن مصر يعانى شدة الظالمين
ويكابدُها

إن موسى قد جاء بالأحكام ، وداود امتاز بدعاء الله والتغنى بمناجاته ،
وعيسى بعث ليعلم الناس مكارم الأخلاق والزهد فى الدنيا . وأما محمد رسول
الله ﷺ فقد جاء بكل ذلك : بالأحكام ، ودعاء الله ، والتوجيه إلى مكارم
الأخلاق ، والحض على الزهد فى الدنيا وزينتها ، وكل هذا تجده فى القرآن
الحكيم لفظا ومعنى ، وفى السيرة المحمدية قدوة وعملا

ساقى . وأحب أن ألفت أنظاركم إلى ناحية أخرى من نواحي السيرة
المحمدية تدل على جامعيتها

إن فى الدنيا نوعين من المدارس : نوع يختص بفرع واحد من فروع
المعرفة ، كالتب ، أو الهندسة ، أو التجارة ، أو الصناعة ، أو الفنون الحربية ،
أو الزراعة ، أو الحقوق ، أو اللغة والآداب . ونوع يجمع هذه المعاهد
العلمية كلها ، فمن قصده استطاع أن ينتسب إلى أى فرع شاء من فروع المعارف
الانسانية . وهذا النوع الثانى هو الذى تهرع إليه طوائف الطلبة من جميع
البلاد فيجد فيه كل منهم ما تميل نفسه إلى التخصص فيه من العلوم ، وبهذا
سميت بمجموعة هذه المعاهد باسم (الجامعة) ، ومنها يتخرج قضاء المحام
والأطباء والمهندسون وقادة الجند والناهضون بعلوم الزراعة أو الصناعة أو
التجارة والمتخصصون بالآداب وعلومها والثقافة العليا وفنونها

ومن البين الواضح للتأملين أن المجتمع الانسانى لا يتم كماله ولا تسعد
حياته بضرب واحد من العلوم ، ولا يصنف خاص من أهل الحرف والصناعات
بل يحتاج إلى مجموع ذلك كله . وإذا استقصينا ما يعرفه التاريخ من سير الأنبياء ،

ولاحظنا ما خلفوه من ثمرات أشجارهم ، عملا بقول المسيح ، من ثمارهم تعرفونهم ، ، فأننا نجد لهؤلاء المعلمين الربانيين والأنبياء والمرسلين تلاميذ ومهتدين ، فالواحد منهم يكون له عشرة تلاميذ ، وآخر منهم يكون له عشرون تلميذا ، ونرى لبعضهم ستين أو سبعين ، ومائة أو مائتين ، وألفا أو ألفين ، ونادراً ما يكون لاحد الانبياء من التلاميذ والأصحاب ما يبلغ خمسة عشر ألفا . أما المدرسة الأخيرة من مدارس النبوة وهي مدرسة خاتم النبيين محمد ﷺ فقد كان تلاميذها يعدون بمئات الألوف

وإذا أردت أن تعلم من هم تلاميذ المدارس النبوية الأخرى ، ومن أين جاءوا إليها ، وفي أي البلاد ولدوا ، وما مبلغهم من العلم . ثم كيف كانت أخلاقهم ، وكما أخذوا من أخلاق نبيهم وشماله ، وكما كان تأثير تعليم نبيهم فيهم ، وما هي سيرتهم وهديتهم ، وكما صلحت أعمالهم باصلاح رسولهم لهم ، فانك إن تجد لاسئلتك هذه أجوبة عليها إلا فيما يتعلق بآخر مدارس النبوة ، فانك تجد لها جوابا على كل سؤال من هذه الأسئلة كلها بالتفصيل ، وتستطيع أن تقيد في دفترك أسماء تلاميذ هذه المدرسة ، وأما كن ميلادهم ، ووصف ما تعلموه منها ، ومبلغ تأثيرهم بأخلاق نبيهم ، ومعرفةهم بأحواله وشؤونه - كل ذلك تجده مسجلا مدونا مضبوطا بوضوح وجلاء .

وهلم بنا نعرض على جهة أخرى : إن جميع أصحاب الملل والنحل يدعون أن أبوابهم مفتحة للجميع . فتعالوا نرى من منهم كانت دعوته عامة لجميع الناس ، وأبوابه مفتحة لمختلف الأمم والطوائف البشرية بلا استثناء . ومنهم كانت حلقة في عهده مقصورة على رجال من أمة واحدة ، وعلى طائفة خاصة من تلك الأمة . إن جميع أنبياء بني إسرائيل لم تتجاوز دعوته بلاد العراق أو بلاد الشام أو بلاد مصر ، أي أنهم لم يخرجوا من الأرض التي كانوا يسكنونها ، ولم يوجهوا دعوتهم إلا لأمتهم من بني إسرائيل . ولذلك لا ترى في مدارس عيسى عليه السلام رجلا غير إسرائيلي ، لأنه إنما كان

يشهد الغنم الضالة من بني إسرائيل (متى ٧ : ٢٤) ، وإنما اقتصر على بني إسرائيل لثلاثي رغبة الصيادين إلى الكلاب (الانجيل) . وأصحاب الأديان في الهند لم يكن يخطر ببالهم أن يخرجوا من أرض الأمة الآرية المقدسة (باك أريه ورت) . نعم لقد نشر ملوك البوذية دينهم في خارج الهند ، وبلغوا دعوة بوذا إلى الأمم الأخرى ، لكن ذلك جاء بعد زمن الدعوة من أتباعها المتأخرين عنها ، كما فعل الذين نشروا المسيحية فيما بعد خارج دائرة إسرائيل . أما أصحاب الدعوة الأولون فقد خلت صحائف حياتهم من تعميم الدعوة حتى تشمل جميع بني آدم

والآن تعالوا نشاهد مدرسة الرسول العربي الأمي : أي طالب هذا ؟ هذا أبو بكر ، هذا عمر ، ذاك عثمان ، وذلك علي . وهذان طلحة ، والزبير . ومن هؤلاء ؟ هؤلاء تلاميذ من قريش البطاح بطاح مكة وذاتك من غير قريش ، انهما أبو ذر وأنيس من تهامة من قبيلة غفار . وهذان أبو هريرة وطفيل جابا من اليمن من إحدى قبائلها وتسمى دوس . ومن هذان ؟ هذا أبو موسى وذاك معاذ بن جبل قدما من اليمن من قبيلة أخرى . وهذا ضهاد ابن نعلبة من قبيلة الأزدي القحطانية . وهذا خباب بن الارت أخوتيم . ومن أي قبيلة هؤلاء القوم ؟ منقذ بن حبان ومنذر بن عائد من قبيلة عبد القيس استجابا لهذه الدعوة ووفدا إليها من البحرين على الخليج الفارسي . وفيهم عبيد وجعفر من سادة عمان . وفيهم فروة من معان في بلاد الشام . ومن هؤلاء الغرباء ؟ هذا بلال من بلاد الحبشة ، وهذا الأبيض يدعى صهيبا الرومي ، وهذا اسمه سلمان الفارسي من إيران ، وهذا أخو الديلم يدعى فيروز الديلمي ، وهذا سيخب ومسركبود من الأمة الفارسية . فما أنتم ترون نماذج لمن تتلذذ على نبي الإنسانية النبي الأمي العربي خاتم المرسلين ، لقد كانت حلقة هدايته مفتوحة لكل الأمم من شتى طوائف البشر

إن صلح الحديبية الذي اتفق عليه المسلمون والمشركون في سنة ٦ للهجرة

كان من شرائطه أن يكف كل من الفريقين عن القتال ، وذلك ما يدعو اليه الاسلام لأنه دين السلام والوئام ، وللمسلمين أن يبلغوا دينهم أينما أرادوا وماذا فعل رسول الاسلام بعد هذه الهدنة العظيمة الخطر الكبيرة الاثر؟ لأنه ﷺ أرسل في نفس تلك السنة كتباً إلى ملوك البلاد المجاورة دعاهم فيها إلى الاسلام ، وبلغهم رسالة الله التي بعث بها إلى الأمم . فبعث ﷺ دحية الكلبي إلى هرقل قيصر الروم ، وعبد الله بن حذافة السهمي إلى خسرو برويز ملك الفرس ، وحاطب بن أبي بلتعنة إلى المقوقس عزيز مصر ، وعمرو بن أمية إلى النجاشي ملك الحبشة ، وشجاع بن وهب الاسدي إلى الحارث الغساني سيد قومه في الشام ، وسليط بن عمرو إلى رؤساء النجاشية . أرسلهم ﷺ إلى هؤلاء الملوك والاقبال يكتب يدعوهم فيها إلى الاسلام ويبلغهم أنه أرسل إلى جميع الناس بالهداية العامة الشاملة

سادق . لقد تبين لكم أن مدرسة محمد رسول الله كانت جامعة للناس من جميع الطوائف وكانت عامة الأمم على اختلاف ألسنتهم وألوانهم وطبقاتهم في الثقافة والمجتمع ، وأنه لم يكن هناك أي قيد يمنع أي انسان من الالتحاق بها ، فكانها مادة كريم يدعو الجفكلى . فتعالوا نلق نظرة أخرى على هذه المدرسة لنصدر حكماً الصحيح على حقيقتها ومكائنها ومنزلتها من معاهد الهداية والحكمة ، وانرى إن كانت خاصة بعلم دون غيره من العلوم ، أم هي جامعة كبرى يجد فيها طلاب المعارف أجمعون كل ما ينشدونه ويتعششون إلى معرفته من حقائق الوجود ليختاروا منها ما يوافق أذواقهم ويلائم طباعهم ويروى ظمأهم . انظروا إلى مدرسة موسى عليه السلام تجدوا فيها عدداً من قادة الجيش أو قضاة المحاكم أو طائفة قليلة من ذوي المناصب الدينية ، واجتثوا عن نلاميد عيسى سلام الله عليه تجدوا فيهم طائفة من الزهاد والنسك يتنقلون بين سكك فلسطين وبتجولون في شوارع مدنها . أما الذين دخلوا في الاسلام واتبعوا محمداً ﷺ فوجدون فيهم أصحاب النجاشي ملك الحبشة وفروة

عظيم معان وذا الكلاع رئيس حمير وفيروزاً الديلي ومركبود من سادة اليمن ورؤسائها وعبيدا وجعفران من ولاية عمان . انظروا مرة أخرى تجدوا فيما يقابل هؤلاء الملوك والولاة والرؤساء بلالا ويامرا وصهيبا وخسبايا وعمارا وابا فكيهة من العبيد والرقيق والضعفاء وسمية ولبينة وزنيرة ونهدية وأم عبيس من الاماء والضعيفات . وترون كذلك في أصحاب محمد ﷺ ذوى العقول الراجحة والفكر الثاق والرأى الحصيف وأهل الحكمة والتجربة ممن عرفوا دغائل الأمور وجربوا شئون العالم ووقفوا على أسرار الدنيا وأداروا شئون الملك وساسوا البلاد كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي ومعاوية ، فهؤلاء حكموا الأمم فاحسنوا ، وأقاموا شرع الله في أرض الله بين مشرقها ومغربها فاتسعت دائرة حكومتهم إلى شمال إفريقيا وثور الهند ، ونسخوا بعدلهم ورحمتهم سلطان عظماء الملوك وقوانين الروم والفرس ، ونزلوا من قلوب الناس أكرم منزلة بعدلهم وإنصافهم ، ومن صفحات التاريخ الصادق المرتبة التي لم يبلغها فيه أحد غيرهم لا قبلهم ولا بعدهم

وإلى جانب الخلفاء الراشدين والملوك العادلين والسلاطين المنصفين من أتباع الرسول محمد ﷺ ترى طائفة غير قليلة من رؤساء الجند وقادة الجيوش من أصحاب الرسول كخالد بن الوليد وسعد بن أبي وقاص وأبي عبيدة بن الجراح وعمرو بن العاص ممن دوخوا الشرق والغرب وقوّضوا دولتين عظيمتين كانتا سببة على الانسانية ووصمة في جبينها بحكمها الجائر واضطهادها لرعاياها ، فكان هؤلاء القواد من أتباع الرسول ﷺ من أكبر الفاتحين في العالم ومن أصلب المحاربين عوداً وأشجعهم قلباً وأعلمهم بأمر القتال وتعبئة الجيوش وإدارة رحى الحروب ، وإن أسماءهم لا تزال رمزاً للمهابة والجلال في التاريخ العسكرى . فسعد بن أبي وقاص هو الذى فتح العراق واقتحم مملكة فارس وانتزع فيها التاج عن مفرق كسرى الظالم وألتي به تحت قدمى الاسلام . وخالد وأبو عبيدة هما اللذان أخرجا دولة الروم وجيشوشها

من ديار الشام وطهرها منهم أرض إبراهيم وجعلها في أيدي الوارثين لها من المسلمين . وعمرو بن العاص هو الذي أنزع مصر وأرض النيل من أيدي الروم الظالمين وقذف بهم إلى البحر ، وسار على أثره عبد الله بن الزبير وعبد الله بن أبي سرح متوغلين في شمال إفريقيا فتحا وهداية وإصلاحاً . هؤلاء هم فاتحو الممالك وقادة الجيوش الذين اعترف لهم بالسكفأة أعداؤهم وشهد التاريخ بعظمتهم وعلو كعبهم وجلال مجدهم

وبجانب هؤلاء القادة الفاتحين الباسلين ترى طائفة أخرى من ولاية المدن وحكام الاقطار من أصحاب رسول الله ﷺ مثل باذان بن ساسان في اليمن وعالم بن سعيد في صنعاء والمهاجر بن أمية في كندة وزياد بن ليبيد في حضرموت وعمرو بن حزم في نجران ويزيد بن أبي سفيان في تيماء والعلاء ابن الحضرمي في البحرين وغيرهم من أتباع الرسول حكموا الامصار وتولوا الولايات فسعد بهم الناس وذاقوا حلوة عدلهم وانتشر بهم السلام وساد بفضلهم الوثام بين الناس

وبجانب هؤلاء الولاة العادلين الأبرار والحكام المنصفين الاخيار ترى في أصحاب رسول الله ﷺ ثلة من العلماء الربانيين والفقهاء المتأهين كعمر بن الخطاب وعلي بن ابي طالب وعبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود وعبد الله ابن عمرو بن العاص وأمهاة المؤمنين عائشة وأم سلمة وأبي بن كعب ومعاذ ابن جبل ويزيد بن ثابت وابن الزبير رضی الله عنهم ، الذين وضعوا فقه الاسلام وسنوا للناس قوانين أنزلتهم من واضعى القوانين للعالم منزلة سامية وهناك جماعة خامسة ممن اعتنوا بالرواية وحفظ الوقائع والحوادث كأبي هريرة وأبي موسى الأشعري وأنس بن مالك وأبي سعيد الخدري وعبادة ابن الصامت وجابر بن عبد الله والبراء بن عازب وغيرهم من أصحاب الرسول الذين رووا سنن الاسلام وأحكامه وحفظوا أوامره ونواهيه وأحصوا الوقائع والأخبار

وبجانب أولئك جماعة سادسة يبلغ عددها سبعين صحابياً من أصحاب
الصفة الذين لم يكن لهم بيت يأوون إليه إلا فناء المسجد ، ولم يكن لهم من
متاع الدنيا إلا ما على أجسادهم من أسمال بالية ، فكانوا يخرجون إلى الصحراء
يحتطبون منها ويبيعون ما يجمعونه في السوق ويقتاتون بثمره ، وإذا
بقي في يدهم شيء أنفقوه في سبيل الله وفرغوا للدين وانقطعوا لتعلم أحكامه
وعبادته ربهم

ثم ارجعوا البصر إلى هؤلاء الأصحاب تروا فيهم زاهداً ناسكاً متوكلاً
على الله كأبي ذر الغفاري الذي لم تظل السماء ولم تقل الأرض مثله في صدق اللهجة
وكلية الحق ، وكان لا يدخر الطعام لغيره ويعد ادخاره منافياً للتوكل على الله ،
ولذلك لقبه الرسول ﷺ بمسيح الإسلام . وفيهم سلمان الفارسي الزاهد الورع
والتقي الصالح . وفيهم عبد الله بن عمر بن الخطاب الذي قضى ثلاثين حولاً
كاملاً في عبادة الله وعرضت عليه الخلافة فأبأها قائلاً : لا أتولى خلافة
تسفك فيها قطرة من دم المسلمين . وفيهم مصعب بن عمير الذي كان يلبس قبل
إسلامه الديباج الثمين والحريير الفاخر ونشأ في حجر النعيم والشرف وتقلب
في مجبوحة العيش ورغده ، ثم لبس في الإسلام المسوح والخشن من الثياب
المرقعة ، ولما استشهد في سبيل الله لم يكن له ثوب صاف يستر جسده كله
فاضطروا عند دفنه إلى أن يغطوا قدميه بالحشيش . وفيهم عثمان بن مظعون
الذي دعى فيما بعد بأنه أول ناسك في الإسلام . وفيهم محمد بن مسلمة الذي
قال أيام الفتن : لو دخل على مسلم بيده سيف مسلول يريد قتلي لم أكن لأقاتله
دفاعاً عن نفسي . وأما أبو الدرداء وما أدراك من أبو الدرداء ، فهو القاضي
العالم الذي كان يقضى نهاره صائماً وليله قائماً

إن من أصحاب رسول الله ﷺ من قصصت عليك ومنهم من لم أقصص
عليك . ومن ذا الذي يستطيع أن يوفي البيان حقه ؟ ! فتعال أرك منهم جماعة
من مديري أمور الأمة وساستها المحنكين كطلحة والزبير والمغيرة والمقداد

وسعد بن معاذ وسعد بن عبادة وأسيد بن حضير وأسعد بن زرارة وعبد الرحمن بن عوف ، وفيهم من التجار أصحاب المال الدر والثراء الوفير من أهل مكة ، أو من أصحاب الحقول والحدائق الغلب من أهل المدينة

ولا تتقدم في البيان قبل أن نحكي ذكرى الذين قتلوا منهم في سبيل الله لا لجرم ارتكبه سوى أن قالوا «ربنا الله» ثم استقاموا ، وما تقموا منهم إلا أن آمنوا بالله العزيز الحميد . وفيهم من لم يقتل قتلة يستريح بها ، بل قطعت لحومه وكسرت عظامه وأوذى في سبيل الله ، وهذا ما وقع لهالة ابن أم المؤمنين خديجة من زوجها الأول الذي مزق جسمه تمزيقا وقطعت أوصاله تقطيعا . وسمية أم عمار التي قتلها أبو جهل بالرمح . وأما ياسر فقد أوذى بأيدي الكفار إيذاء شديدا إلى أن لحق بربه . وخباب الذي صلبه المشركون . وزيد الذي طأ رأسه أمام السيف لينال منه كيف يشاء ويعمل فيه عمله . وكذلك حرام بن ملحان وأصحابه التسعة والستون قتلوا في ديار الغربة عند بئر معونة بأيدي أعراب من بني عضية ورعل وذكوان . وإن مائة رام من بني لحيان جرحوا عاصما وأصحابه السبعة في يوم الرجيع حتى أئختهم الجروح . وقتل أصحاب ابن أبي العوجاء وكان عددهم تسعة وأربعين بأيدي بني سليم في السنة السابعة للهجرة . واستشهد كعب بن عمير الغفاري وأصحابه بذات أطلاق . فانظروا كم صلب لذات الله من أبناء هذا الدين الأولين وكم قتل لوجه الكريم وكم سفك من دماهم في سبيله . فاذا كان من الفخر عند غيرنا أن يصلب واحد في سبيل الله ونجاة خلقه فنحن قد صلب وقتل مئات من سلفنا الأولين لذات الله تعالى وحده ولنجاة الانسانية كلها من الوثنية والضلالة والشرك

إن النفس إذا ماتت استراحت ، سواء في ذلك أقتلت بحمد سيف أم بسنان الرمح أو صلبت ، فهي تذوق سكرة الموت لحظة ، وتنال بيطش المنية وزهوق النفس ثم تستريح ، وأكبر من ذلك وأشد منه عذابا حياة المسكابين للبغي والظلم أعواما ، والصابرين على الأذى في سبيل الله صبرا جميلا ، فمنهم من

ذاق أنواع العذاب لثباته على قول الحق ، ومنهم من وضعت الحجارة المحفأة على صدورهم وصرعوا في الرمضاء وحرّ الهاجرة وكانوا يتقلبون على ذلك ويتململون ويسحبون على وجوههم لينصرفوا عن قول الحق ويصبأوا عن عقيدة الاسلام فلا يباليون بذلك ويصرون على توحيد الله والشهادة بالرسالة المحمدية .

ثم ألم بأنك نبأ الذين حصروا في شعب أبي طالب جيعا كيف كانوا يبيتون الليالي ويقضون الايام وهم يفتاتون بأوراق الطلح بعد أن فنى زادهم وصفر وطابهم وأعوزهم القوت . إن سعد بن أبي وقاص قد مسه ألم الجوع في ليلة شديدة من تلك الليالي فخرج من شعب أبي طالب يطلب شيئا يتبلغ به ليذهب بعض ما به من ألم السغب ، فلم يجد إلا قطعة جافة من إهاب ، فغسلها وشواها وأكلها بالماء .

وعتبة بن غزوان أيضا كان من الذين امتحنوا في شعب أبي طالب بأيدي المشركين ، وهو يقول : إني وأصحابي السبعة قد دميت أفواهنا من أكل هذه الأوراق والأشياء التي نقتات بها

وخباب لما أسلم وعلم باسلامه المشركون ألقوه على البحر الملتب وأمسكوه عليه حتى انطلق البحر بالصديد والقيح الذي سال من ظهر خباب

وبلال كان يذهب به سيده الى أرض ذات حجارة تلببها أشعة الشمس في وسط الهاجرة فيلقيه عليها ثم يضع على صدره جنديا ثقيلا حارا ، وربما شد عنقه بالحبل فيجره جراً ألياً في سكك مكة

وكذلك فعل بأبي فكيهة : ربطت رجله بالحبل وسحب على الأرض وخنق . وقد وضع مرة على صدره حجر ثقيل حتى ضاقت أنفاسه واندلج لسانه

وكذلك عمار أودى إيذاء شديدا ، فكان يجندل على الرمضاء ويضرب

ضرباً مبرحاً . بل إن الزبير كان عمه يلفه بالحصير ويدخن عليه من أسفل .
وسعيد بن زيد كان أهله يضربونه فيصبر . وعثمان كان عمه يضربه . فقابل
هؤلاء كلهم البلايا والمحن وذاقوا العذاب الشديد برباطة جأش وثبات قلب
وقوة إيمان فأشربت دماؤهم من هذا الرحيق الإلهي الذي تناولوه من كأس
الإسلام فلا يتحولون عنه مدى الحياة

إخواني ، تأملوا . أليس هؤلاء هم العرب الذين كانوا في معزل عن العمران
يعبدون الأوثان ويعكفون على الأصنام ، وكانوا في جاهلية ضارين فيها
بجرانهم ؟ فما بهم انقلبت أحوالهم وتغيرت شئونهم ؟ إن إرضهم لا تزال هي
الأرض ، وسماؤهم كما كانت ، وبلادهم لم تتغير . فكيف أنجلي عنهم ظلام
الجهل ، وكيف نفخ فيهم ذلك الأمل^١ روح الدين الحق فأصبح جاهلهم عالماً
ومحاربهم مسلماً ، وماذا علمهم حتى انقلب الفاسد صالحاً والمفسد مصلحاً ،
والذي لم يكن يحسن شيئاً لم يلبث أن صار يدير الملك ويصرف شئون
الحكومة ويسوس أمور الرعايا . وكيف نبغ منهم ذور العقول الراجحة
والآراء السديدة والأفكار الثاقبة ؟ ان الرسول الأمل^٢ الأعزل الذي لم يحمل
في شبابه سلاحاً ولم يملك من قبل بلاداً كيف أقام للامة العربية - التي لم تكن
الامم تقيم لها في كفة السياسة العالمية وزناً - دولة ذات عظمة وجلال ،
واكتشف في نفوس رجالها كنزاً من القوة لا ينفد ، وكيف جعل هذا الأمل^٣
من هذه الامة - التي لم تكن تعرف الله ولا تعلم توحيد ربوبيته - عبادة
ناسكين يحيون الليل بذكر الله ، ويبلغون رسالاته في النهار

لقد أخذت بأيديكم فأريتكم مسجد هذا النبي ﷺ في المدينة ، وزرتم معي
جامعته النبوية الكبرى زيارة كاملة ، فاجتمعتم باصناف من تلاميذه ، ولقيتم
من أصحابه العلماء والفقهاء وواضعي النظم والأحكام ، وتعرفتم بالجندي
الباسل والقاضي العادل ، وتشرفتم بزيارة العظام من ولاته وحكامه ، وتعرفتم
بالفقراء والمساكين والملوك والسلاطين ، وقابلتم السادة الأحرار والعبيد

الأبرار . وعرضت عليكم نماذج من استشهدوا في سبيل الله ، وماتوا ابتغاء مرضاة الله ، من الغزاة والمجاهدين ، فما هو رأيكم في كل ذلك وبماذا تحكمون؟ إن أكبر ظني فيكم أنكم حكمتم وقطعتم في حكمكم بأن محمداً رسول الله ﷺ كان جامعاً للسكالات البشرية ومثلاً أعلى للمحامد الانسانية والصفات العليا ، و :

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

كيف لا وهي المحاسن المحمدية المتنوعة ، والمحامد النبوية المختلفة ، تراءت في أصحابه جميعاً وظهرت في رفقاءه وتجلت في جلسائه . فبنوره استنار فؤاد الصديق الاعظم ، وبحكيمته امتلأ قلب الفاروق الأكبر وعقله حكمة وثقوب ففكر وسداد رأى ، ومنه اكتسب ذو النورين عثمان الأنور رحمته وخيريته وفضائله ، ومن بلاغته تفجر البيان على لسان على كرم الله وجهه

وكل ما ترى في خالد وأبي عبيدة وسعد وجعفر من تديير الحرب وإحكام الرأي في تعبئة الجيوش وزحفها ، وما ترى في الصديق من العزيمة والامانة وحرية الرأي وغنى النفس والزهد في الأموال والإعراض عن زينة الدنيا وزخارفها ، وما تراه من التبطل الى الله والانقطاع له في ابن عمر وأبي ذر وسلمان وأبي الدرداء ، وما تجد في ابن عباس وأبي كعب وزيد بن ثابت وعبد الله بن مسعود من علم جم وفقه عميق في الدين ورأى في الأحكام سديد ، وما تلاحظه على بلال وصهيب وعمار وخبيب من السكينة والسلوى والطمانينة وقوى الإيمان والحنين الى لقاء الله ، كل أولئك مقتبس من أنوار محمد نبي الله ومهبط الوحي ومحط القرآن صلاة الله وسلامه عليه ، فهو كأنه الشمس المضيئة تشرق فتثير بأشعتها قلل الجبال وبطن الأودية وصحارى الأرض ووهابها وبطاحها وتلألأ بضوئها لجج الأنهار الجارية ونباتات الحقول السندسية كما تلمع بها البقاع القاحلة والرمال التي لا آخر لها ، فيأخذ كل منها نصيبه من الضوء على قدره ، بل كأنه **وَسَيَلَّمَ** غيث يهطل من سحابة درور فيصيب الجبال الشام والغابات اللقاء والصحارى القاحلة والساحات

الواسعة والبطاح العريضة والحدائق الزاهية ، فيسقى جميع ذلك فينبت نباتات شتى بالأوراق الجميلة والأزهار المنعشة والأشجار المتنوعة . نعم ، كان الصحابة — كسائر البشر — متفاوتين في طباعهم ومواهبهم وجبيلاتهم . لكنهم اختلفوا جميعا بالاسلام واتحدوا واشتركوا في غاية واحدة ، فكانوا يعملون لوجه الله ويتغون بعملهم مرضاته عز وجل . سواء في ذلك قضائهم وولاتهم وفقراؤهم وأغنياؤهم ورعائهم ورعايهم وغازاتهم وشهدائهم وجنودهم وقوادهم والمعلون منهم والمتعلون والتجار والعباد والناسكون ، فكان الإخلاص رائدهم وهداية الخلق أملمهم وإصلاح البشر غرضهم ، فالصحابة هداة حيثما حلوا ، وعاملون لإصلاح المجتمع البشرى أينما ذهبوا . فاذا اختلفت طبائعهم وتوعدت ألوانهم وتفاوتت مظاهرهم فقد جمعتهم كلمة التوحيد ووحدتهم الكتاب العزيز واتجاههم جميعا إلى قبة واحدة . فاسلكوا سبيلا ولا عملوا عملا إلا ابتغوا به إصلاح العالم وتقويم المجتمع البشرى ومواساة بنى الانسان وإعلاء كلمة الحق وتقديم العمران البشرى نحو السلام والأمان ونشر الوثام .

إخواني وخلائي . لقد بينت لكم في هذه المحاضرة ما كان في الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم من خلال جامعة وخصال وجامعية ، وقد أشرت إلى مظاهرها العديدة ونواحيها المختلفة . وإخالكم قد ألقيت بما درستم في طبيعة الكون من ألوان مختلفة ، وما عرفتم في طبائع البشر من مواهب شتى — وهذه الدنيا ليست إلا مظهراً من مظاهر الحياة متنوعة الألوان — أن العالم لا يمكن أن تكون هدايته إلا بالمصلح الأخير للدنيا وهو خاتم رسل الله محمد صلى الله عليه وسلم الذي اجتمعت فيه خلال الإرشاد كلها وخصال الإصلاح للنوع البشرى بأجمعه ، ولذلك قال له الله عز وجل ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ﴾ فوجه الرسول صلى الله عليه وسلم الدعوة إلى كل من يدعى بحبة الله بأن يتبعه ويطيع أمره ،

ونادى الملوك في ممالكهم والرعاع في شوارعهم والمعلمين في مدارسهم واللامية
في فصولهم والفقراء في أكواخهم والأغنياء في قصورهم ، كما دعا المظلومين
والمقهورين والمخذولين ، بل أهاب بالعلم كله أن يتبعوا سبيله ويقتفوا أثره ،
لأن سيرته الشريفة هي المثل الأعلى وفيها الأسوة الكاملة لكل من يحب الخير
ويبتغي الصلاح لنفسه .

اللهم صل وسلم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين .

المحاضرة السادسة

الناحية العملية من السيرة المحمدية

(لقد كان لكم في رسول الله أسوةً حسنة)

كيف تتبع الرسول ، وفيم تتبعه ؟ ذلك ما أتحدث لكم عنه من السيرة المحمدية في ناحيتها العملية ، وذلك ما خلت منه صحائف حياة الأنبياء عليهم السلام . أما لو نظرتم إلى هذه الناحية في السيرة المحمدية فستجدون حياة مليئة بالأعمال الجليلة ، عامرة بشتى الأعمال . وهذا الباب من كتاب سيرته صلى الله عليه وسلم من أوسع الأبواب وأعظمها . وبه يحكم من شاء أن يحكم أى نبي هو خاتم النبيين وسيد المرسلين . أما من سبقه من الأنبياء والرسل فلم يصل إلينا من تفاصيل حياتهم ما يكون لنا أسوة فيه ، لأن الذى عرفناه من ذلك لا يشفى علة ولا يروى غلة . والأحاديث الحلوة ، والمواعظ الحسنة ، والتعاليم العالية ليست قبلة في الدنيا . لكن الذى يعوز الناس هو العمل بها . وهم إذا بحثوا عن العاملين بالمواعظ السليمة والحكم الرائعة والأقوال الماثورة والأمثال السائرة كانوا كأنهم يبحثون عن عنقا . مغرب أو الكبريت الأحمر .

إن أحلاق المرء هي المرآة الصافية لسيرته . ومظهر جلى من مظاهرها ، وأى كتاب سماوى غير القرآن يشهد لم تنزل عليه بأنه قد تحلى بالأخلاق الحسنة والعادات السنية . وأن صاحب ذلك الكتاب أعلى قدراً وأرفع مكانة من سائر الناس لما هو عليه من جليل الأعمال وقويم الأخلاق . أما القرآن فقد أذاع بين أعداء الرسول وأوليائه قول الله عز وجل (إن لك لأجراً غير ممنون ، وإنك لعل خلق عظيم) . وإذا كانت إحدى هاتين الجملتين معطوفة على الأخرى فانهما مربوطتان ربط العلة بالمعلول ، فالثانية علة للأولى ،

فأجر الرسول لا ينقطع وثوابه من الله لا ينفد ، إذ الرسول ذو خلق عظيم ، وأعماله وأخلاقه بلغت من العلو والسمو المبالغ الذي لا ينقطع معه أجر صاحبها ولا يقل ثوابه ، لأن معين خلقه فياض لا ينضب ونبع حسناته فوار لا يفرض وقد حق للنبي الأسمى العربي أن يؤنب الناس بقول الله سبحانه ﴿ لم تقولون مالا تفعلون ﴾ وهو لم يأمر أحداً بأمر إلا وقد سبقهم إلى العمل به .

ادرسوا سيرة الواعظ العظيم عيسى بن مريم عليه السلام وصعوده جبل الزيتون ليعظ الناس ، وقارنوا ذلك بسيرة الداعي الهادي محمد رسول الله ﷺ وصعوده جبل الصفا يدعو أمته ، فان رأيتم أحدهما لم يقدر له العمل بما قال للناس ولم يتم ذلك له ، فانكم سترون سيرة الآخر عامرة بكل ما أمر به الناس وحثهم عليه . فالذي يعفو ويصفح مع المقدرة يعد حلماً حقاً وغفوراً صدقاً ، ويكون عمله هذا من أمثل أخلاق البشر وأفضلها . أما الذي يسكت عن غيظ لضعف وعجز فلا يعد سكوته عفواً ولا حلماً ، لأن العفو يفهم أن يكون مع القدرة . والذي لا يقتل أحداً ولا يسيء إلى الغير ولا يضرب إنساناً ولا يسلب مالا ولا ينهب متاعاً ولا يبني لنفسه بيتاً ولا يدخر أموالاً تعد فضائله هذه سلبية ، أما إذا كان يتقصد المظلوم من القتل ظلماً ، وينصر الضعيف ويدفع عن أموال الناس أيدي السلب والنهب ويؤوي الذين لا يبت لهم ويتصدق بالمال على المحتاجين إليه فان فضائله تعد إيجابية ، وتسمى أعمالاً صالحة . والدنيا تحتاج إلى هذه الفضائل الإيجابية . والقرآن يذيع عن النبي الكريم أنه رءوف رقيق القلب ﴿ فيما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ﴾ وهذه أكبر شهادة على رقة قلب الرسول ورأفته ورحمته ، ومن زعم أنها دعوى فانه يرى الدلائل الساطعة تدعها والبراهين الواضحة تؤيدها . ولو لم يسكن الرسول ﷺ لنا دم الأخلاق عفواً حلماً لتفرقت عنه هذه الجماهير من العرب الذين نشأوا على العنجية والإباء والشتم إلى حد الإسراف في الصلابة . ولرأفته بهم وحنه عليهم قال الله عز وجل فيه ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم

بالمؤمنين رءوف رحيم ﴿ فمن الله على العرب بهذا الرسول وقال لهم انه يعز عليه أن تبقوا في ضلال ، ويشق عليه أن تعموا في ظلمات الكفر والشرك ، وأن تعرضوا عن الحق وتلجوا في عتو و نفور ، وهو يبغى صلاحكم ويود خيركم ويحب فلاحكم ، وهذا هو الذي يدعو إلى نصحكم ويحفزه لمبدأيتكم وإبلاغ الرسالة إليكم ، فمن لبي دعوته وقبل رسالته وأقبل على ما عند الرسول من الحق البين والخير الكثير كان أهلاً لأن يرعى الرسول جانبه ويخصه بعنايته ورحمته . والرسول وإن يكن مبعوثاً إلى البشرية كافة فإن من آمن به وصدق بما جاء به فإن له من رافة الرسول ورحمته وشفقته أوفر حظ وأكبر نصيب .

هذه هي شهادة القرآن ، والقرآن أحكام وتوجيهات أنزلت على رسول الله محمد ليبلغها للناس ، وسيرة الرسول هي تفسير ما في القرآن من تلك الأحكام والتوجيهات ، وحياته كلها وما صدر عنه فيها من أقوال وأفعال هي تفصيل لما جاء في القرآن ، فكل حكم جاء به القرآن قد امتثله الرسول ومثله للناس بفعله وبينه بقوله ، فما من شيء أمر به الرسول — من الإيمان بالله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وأداء نسك الحج وبذل الصدقة والجهاد والإيثار وتوجيه العزيمة واحتمال الصبر على النوائب وشكر الله على النعم والتعامل مع الناس بالفضائل ومكارم الأخلاق — إلا وهو مستمد من القرآن أو من الوحي الإلهي ﴿ لا ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى ﴾ ، وما من حكم أو توجيه في القرآن إلا وقد بينه الرسول للناس بقوله وعمله وخلقه هدياً وسمتاً . جاء بعض الصحابة إلى أم المؤمنين عائشة يسألونها أن تصف لهم أخلاق الرسول وتصرفاته ، فأجابتهم : ألم تقرأوا القرآن الكريم ؟ لقد كان خلق رسول الله ﷺ الرسول وخلقه معانيها وتفسيرها . وليس في الدنيا إنسان أكثر علماً بالرجل من حليلته ، فهي التي تعلم من فضائل زوجها وأخلاقه وعاداته ما لا يعلمه أحد

غيرها . ولما ادعى الرسول النبوة كان قد مضى على زواجه بخديجة خمسة عشر عاما . وهذه مدة تكفي المرء أن يعرف أحوال صاحبه وأخلاقه وعادانه معرفة تامة . فحين سمعت خديجة أن محمدا ﷺ نزل عليه الوحي بادرت بتصديقه وأمنت به . بل إن الرسول حين فزع من نزول الوحي عليه وبجىء الملك إليه - لأنه لم يعهد ذلك من قبل - هدأت خديجة جأشه وربطت على قلبه وخففت عنه ما يلقاه وقالت له : إن الله لا يخذلك . فإنك تصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتنصر المظلوم ، وتقرى الضيف ، وتنصر على نوائب الحق . وهذا الذى ذكرته خديجة هو الذى كان يتحلى به الرسول من مكارم الأخلاق وفضائل النفس قبل أن يوحى إليه .

وإن أم المؤمنين عائشة التى صحبت الرسول تسع سنوات وكانت أحب أزواجه إليه بعد خديجة تقول فى وصفه ﷺ : إنه لم يكن يعيب أحدا ، ولا يجزى على السوء بسوء ، بل كان يعفو ويصفح ، وكان بعيدا عن السيئات . إنه لم ينتقم من أحد لنفسه ، ولم يضرب غلاما ولا أمة ولا خادما قط ، بل لم يضرب حيوانا ، ولم يرد سائلا إلا إذا لم يكن عنده شئ .

وعلى " صحب النبي ﷺ منذ صباه الى أن شب ، فلم يكن أحد من أهل بيته أعلم منه بأخلاقه ﷺ ، وهو يشهد لرسول الله أنه كان طلق الوجه ، لين الجانب ، خافض الجناح ، دمث الأحلاق ، رحيم . ولم يكن فظا ولا جافيا ولا ينطق بسوء ، ولا يتتبع عورات الناس ، ولا يتجسس على عيوبهم . فان سأله أحد ما لا يرضى سكت ولم يبد له ما يسخطه ، فينظن من يعلم خلق الرسول ماذا يريد ، لأنه لم يكن يحب أن يكسر قلب أحد بل كان يأسر القلوب ويؤلفها لأنه كان رءوفا رحيم . فيقول على كرم الله وجهه : انه ﷺ كان كريما جوادا ، وفاضل سخيا ، صادق القول لين العريكة ، من جالسه أحبه ، ومن رآه بديهته هابه . ويقول ناعته : لم أر مثله قبله ولا بعده . وقد أبدى دكبن ، المؤرخ الانكليزى الذائع الصيت هذا الراى نفسه حين درس سيرة الرسول ﷺ

ويشهد هند - ابن خديجة من زوجها الأول ، وهو ربيب الرسول في حجره - أنه صلى الله عليه وسلم كان لين الطبع غير جاف ولا لفظ ، ولم يكن يسوء أحداً ولا يصدر عنه نيل من شرف أحد أو غض من كرامته . وكان يشكر الناس على اليسير من عملهم الطيب ، وبأكل ما يقدم له ولا يعيبه ، وما كان يفضض أو يقتص من أحد لنفسه ، بيد أنه إذا انتهك أحد شيئاً من محارم الله لم يقم الغضب عليه شيئاً (السائل) .

هذه شهادات أقرب الناس إليه صلى الله عليه وسلم من خالطوه وعاشروه وعرفوا دخائله . وهي تدل على أن سيرته الطاهرة كانت أعلى ما تكون عليه سيرة أفضل البشر . ومن أفضل سيرته وأعلاها أنه بعد ما أرحى إليه لم يأمر أتباعه وأصحابه بأمر إلا وقد سبقهم إلى العمل به . فدعا الناس إلى ذكر الله ومحبته ، ولو راقبت حياته نفسها لرأيتها ملائمة لهذه الدعوة ، لأنه لم تكن تمضي عليه ساعة من نهار أو ليل إلا وهو يذكر الله بقلبه ويحمده بلسانه ، فكان لسانه رطباً يذكر الله لا يفر عنه طرفة عين ، فإذا أكل أو شرب ذكر اسم الله ، وإذا فرغ من ذلك حمد الله ، وإذا أخذ مضجعه أو استيقظ من نومه ذكر الله ، وإذا نهض أو جلس سبح الله أو حمده . وإذا لبس جديداً شكر الله ، حتى أن أذكاره ودعوته التي حفظها الناس عنه في مختلف الأحوال شغلت فراغاً واسعاً من كتب الحديث ، وجمعت في كتاب (الحصن الحصين) الذي يبلغ مائة صفحة ، ومن قرأ هذه الأدعية بقضى العجب ويوقن بأنه صلى الله عليه وسلم كان يحب الله ويخشاه ويهاب جلاله ، فكان كما وصف الله في القرآن عباده الصالحين (الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم) وكما شهدت عائشة بأنه صلى الله عليه وسلم كان يذكر الله ولا يفقل عن ذكره أبداً .

وأمر الناس بالصلاة وحضهم على إقامتها والمحافظة عليها أشد المحافظة ، فإذا تحسبون الرسول كان يعمل في نفسه بما كان يأمر به غيره ؟ انه صلى الله عليه وسلم كان يقيم الصلاة ويحافظ عليها أكثر من غيره ، كان المسلمون يقيمون الصلوات

المفروضة خمساً ، وكان عليه السلام يتطوع بالزيادة على ذلك في صلاة الضحى وصلاة الاشراف وصلاة التهجد . وكان عامة المسلمين يصلون سبع عشرة ركعة المكتوبة عليهم ، وكان هو عليه السلام يصل في اليوم والليلة خمسين إلى ستين ركعة من المكتوبة والنوافل . لقد سقطت عن عامة المسلمين فريضة التهجد بعدما فرضت عليهم الصلوات الخمس ، لسكن الرسول كان يقوم الليل ويصلي صلوات لا تسئل عن حسنن وطولهن حتى كانت قدماه تنورمان من طول القيام ، فقالت له عائشة يوماً - وقد رأت ما يعانى عليه السلام في قيام الليل - : إن الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، فما بالك يا رسول الله تلتقى العناء وتعب هذا التعب الشديد؟ فأجابها عليه السلام : « أفلا أكون لله عبداً شكوراً؟ » ، وكان في هذه الصلوات معنى محبة الله أغلب عليه عليه السلام من معنى الخوف ، فكان يطيل الركوع حتى يخيل إلى من يراقبه أنه ربما قد نسى السجود . وكان يقيم صلاته من بدء الوحي في فناء بيت الله أمام المشركين الذين كانوا يعادونه ويؤذونه إيذاء شديداً . وقد هجم عليه بعض المشركين وهو في الصلاة فلم يترك صلاته خوفاً منهم . وكان جنباه يتجافيان عن المضجع ، وكان قليلاً من الليل ما يهجع ، ويبت ساجداً أو قائماً والناس نيام . وأشد ما يكون إقام الصلاة حين يلتقى الجمعان في ساحة الحرب والسيوف مصلتة والرماح مشرعة والقلوب واجفة ، ومع ذلك فإنه إذا حان وقت الصلاة والحرب كما وصفنا ، اصطف المسلمون للصلاة ونبيهم إمامهم . فيتناوب بعضهم الصلاة وبعضهم الحرب وإمامهم ثابت في الحالين إلى أن يؤدوا فريضة الله لا يمنعهما عنها مانع .

أيها القارىء ، أحب أن أطوى لك من صحائف القرون السالفة ثلاث عشرة ورقة لأعود بك إلى السنة الثانية من الهجرة . فتعال معي فننظر إلى ساحة بدر : هؤلاء مؤمنون ، وهؤلاء مشركون . لقد التقى الجمعان ، واشتد القتال بين المشركين والمؤمنين ، وحى وطيس الحرب . أين هو الرسول ياترى؟ ها هو ذا ساجد بين يدي رب العالمين بدعوه ويسأله النصر المبين بقلب ذا كرم

ولسان بالدعاء ناطق وناصية لعظمة الله ساجدة على الأرض . لقد أقام الصلاة لأوقاتها ولم يؤخرها إلا مرتين : فقد فاتته مرة في غزوة الخندق حين تألب عليه المشركون واليهود ولم يهلوه حتى يؤديها في وقتها، ومرة أدج الليل بطوله ثم غفا غفوة هو وأصحابه فطلعت عليهم الشمس ولم يستيقظوا حتى أيقظهم بأشمتها، ففضى ما فاتته من الصلاة . ثم لم تفته صلى الله عليه وسلم حتى في مرضه الذي توفي فيه ، بل قد اشتد به المرض ووهنت قوته فخرج مع ذلك متهاديا بين رجلين من حجرته إلى أن بلغ المسجد وصلى مع الجماعة . وقد غشى عليه ثلاث مرات قبل وفاته بثلاثة أيام فكان كلما هم أن يذهب إلى المسجد غشى عليه ففاتته الصلاة مع الجماعة . هذا ما كان عليه الرسول من عبادة الله وذكره ، وهذا ما تركه خلفه لمن يأتسون به في عبادته وذكره الله عز وجل .

وأمر المسلمين بالصوم ، وليس على المسلمين إلا صوم رمضان . ولكن ما ظنكم بالرسول صلى الله عليه وسلم وصومه ؟ إنه قلما كان يمر به شهر ، أو أسبوع من شهر ، إلا كان يصوم فيه . تقول عائشة : كان صلى الله عليه وسلم يصوم حتى يظن أنه لن يفطر . ونهى المسلمين عن صوم الوصال ، لكنه يواصل الصوم يومين بل ثلاثة أيام متوالية لا يأكل فيهن ولا يشرب ، وذلك الذي يقال له صوم الوصال . وكان بعض الصحابة يحب أن يقتدى به في ذلك فيقول صلى الله عليه وسلم ، لست كأحدكم ، أيكم مثلي ؟ إن ربي يطعمني ويسقيني ، وربما كان يصوم شهرين متواليين : شعبان ورمضان . وكثيرا ما كان يصوم الأيام البيض (الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر) من كل شهر ، وكان يصوم ستا من شوال ويوم عاشوراء من المحرم ، وكثيرا ما كان يصوم يوم السبت ويوم الخميس من كل أسبوع . كذلك كان دأبه وهديه في الصوم .

وأمر المسلمين بإيتاء الزكاة وإنفاق المال في الخير لكنه بدأ ذلك بنفسه : وقد علمت شهادة أم المؤمنين خديجة له في ذلك يوم قالت له : إنك تحمل الكل ، وتعين على نوائب الحق ، وتسكب المعدوم . إنه لم يأمر الناس بأن

يتبعوه في ترك الدنيا ، ولم يقل لهم ضجوا بكل ما في أيديكم من أموال ، ولم
يخبرهم بأن ملكوت السموات موصدة أبوابه في وجوه الأغنياء . وإنما الذي
أوصاهم به أن يتصدقوا ببعض أموالهم كما قال الله عز وجل ﴿ وما رزقناهم
ينفقون ﴾ . هذا بينما رسول الله نفسه لم يكن يدخر من المال شيئاً في بيته ،
بل كان ينفق في سبيل الله جميع ما كان يملكه ، ولم يكن قليلاً ما كان يأتيه من
خمس الغنائم من ذهب وفضة ومتاع وغيره من عرض الدنيا ، فكان يخرج
عنه كله لغيره من الفقراء والمساكين ، ولم يكن يتمتع هو ولا أهل بيته
بمتع الحياة الدنيا ، فكان حظه وحظ أهل بيته من الدنيا الفقر والتعفف .
وكان من سنته بعد أن فتحت أرض خيبر أن يوزع على أزواجه من الطعام
والحبوب ما يكفيهم عاماً ، ولكنه قبل أن ينقضى العام كان ينعقد ما وزعه على
أزواجه فيمسمهم الجرع والسف لأنه كان ينفق على المحتاجين وعلى الضيوف
ما يجده في بيوت أزواجه . يقول عبد الله بن عباس : إن رسول الله ﷺ
كان أسخانا وأجودنا ، وهو أسخى ما يكون في شهر رمضان ، ولم يقل لسائئ
« لا ، قط طول حياته . ولم يأكل شيئاً وحده مهما كان قليلاً بل يشرك فيه
أصحابه . وقد آذن الناس أن « من مات وعليه دين فدینه على » أقضيه عنه ،
وما ترك من ميراث فيرثه لورثته . جاءه يوماً أعرابي فقال : يا محمد ، إن هذا
المال ليس لك ولا لأبيك ، فأقر منه جمل . ثم قال رسول الله ﷺ من الشعر
والتمر ، ولم يسخط عليه ما أغلظه من القول . ثم قال : إنما أنا قاسم وخازن ،
والله هو المعطى . يقول أبو ذر : كنت يوماً أمشى مع رسول الله ﷺ في
حرة المدينة فاستقبلنا جبل أحد ، فقال : أبا ذر اقلت : لبيك يا رسول الله .
قال : ما بسرني أن عندي مثل أحد ذهباً تمضي على ثلاث ليال وعندى منه
دينار ، إلا شيء أرسده لدين .

إخواني . لا تحسبوا أن ما قاله ﷺ إنما هو كلمات عذبة وألفاظ يتجمل
بها ، بل قال ما قاله عن عزيمة ، ولم يظهر للناس إلا ما كان يسكنه صدره ويعمل

به مدة حياته . جاءه مرة من البحرين ذهب وفضة وأموال جملة فأمر بوضع ذلك كله في فناء المسجد ، ثم غدا على الناس يصلي بهم الصبح دون أن تقع عينه على ذلك المال في الجهة التي وضع فيها ، فلما انصرف من الصلاة دعا الناس وطمع يوزع المال عليهم حتى فرغ منه فقام يفيض بديه وثوبه لثلاثا ليكون علق بثوبه الطاهر شيء من غبار ذلك المال . وجاءه من فدىك أربعة جمال موقرة بالطعام . ففضى به بعض ديونه ، وآتى منه بعض الناس ، ثم آل بلالا : هل بقي من ذلك الطعام شيء ؟ فأجاب بلال : لقد بقي منه شيء وليس ها هنا من يأخذ . فقال عليه السلام لا أدخل بيتي ما بقي منه شيء . وات تلك الليلة في المسجد ، فلما أصبح بشره بلال قائلا : إن الله قد وضع عنك . يعني أن بقيمة الطعام قد قسمت ولم يبق منه شيء . فشكر الله ودخل بيته ذات يوم بعد صلاة العصر على غير عادته ، ولم يلبث أن خرج منه ، فاستغرب الناس ذلك ، فقال لهم : اتى تذكرت في الصلاة أن في بيتي شذرة من الذهب فخشيت أن يحمى الليل وهي في بيت محمد . ودخل بيته ذات يوم حزينا كئيبا فسئل عن ذلك فقال : يا أم سلمة إن ما جاءنا من الدنانير السبعة فديقي في الفراش ، وقد حان المساء . وبما يدل على زهده عليه السلام في الدنيا ومتاعها أن الرسول صلى الله عليه وسلم مرض مرضه الذي توفى فيه . وكان يتغلب على فراشه من شدة المرض ، فتذكر وهو في هذه الحالة أن في بيته دنانير ، فأمر أن يتصدق بها وقال : أياقي محمد وبه وقد خلف في بيته دنانير ١٩ فهذا ما كان عليه عليه السلام في حياته من إنفاق المال والصدقة .

لقد رغّب محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم في الآخرة وزهّد في الدنيا ، وحث على القناعة بالقليل منها والكفاف من العيش . فلننظر إلى عيشه كيف كان يعيش ويحيا . لقد علمتم أن الله بسط على المسلمين الدنيا ووسع في أرزاقهم فكانت تجبى إليه الأموال من الخراج والعشر والجزية والزكاة والصدقات ، وكانت قوافل الإبل تحمل الطعام والمال إلى المدينة ، أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم

يكن له حظ من تلك الأموال الكثيرة، وكان أهل بيته في ضنك وكفاف. تقول عائشة رضي الله عنها: توفي رسول الله ﷺ ولم يشبع يومين متواليين. وتقول: لم يكن في بيته يوم التحق ﷺ بالرفيق الأعلى سوى صاع واحد من شعير، وكانت درعه مرهونة عند يهودى بصاع من شعير. كان الرسول ﷺ يقول: ما لابن آدم من دنياه غير بيت يأوى إليه، وثوب يلبسه، وخبز جاف يأكله، وماء يشربه، (الترمذى). ولم ينطق ﷺ بهذه الكلمات في الزهد بالدنيا إلا وقد رضي لنفسه بهذا القدر، وعمل به طول حياته، ولم يمد عينه إلى زهرة الدنيا وزينتها، فكانت له حجرة مطينة غير مشيدة جدرانها، وكان سقفها من الخوص والوبر. تقول عائشة: لم يَطْوُ ثوبه أبداً. تعنى أنه لم يكن له ثوب آخر غير الذى على جسده الطاهر. جاءه مرة سائل يشكو الجوع الشديد، فأرسل إلى أزواجه يطلب للسائل طعاماً من بيوتهن، فلم يجد عند إحداهن شيئاً غير الماء. ويقول طاحه: رأيت رسول الله ﷺ يوماً مضطجعاً على فرش المسجد يتململ من الجوع. وشكاً إليه بعض الصحابة الجوع ذات مرة وكشفوا عن بطونهم فإذا حجر قد شده كل واحد على بطنه، وأراهم بطنه وقد شد عليه حجرين. وكان صوته ﷺ يضعف أحياناً من شدة الجوع. وذهب مرة إلى بيت صاحبه أبى أيوب الانصارى وهو جائع، فصنع له أبو أيوب طعاماً وقطف له بعض الرطب من حديقته، فلما قدم إليه الطعام أخذ منه خبزاً ووضع عليه شيئاً من اللحم وقال: ابشوا به إلى فاطمة فانها لم تأكل شيئاً منذ أيام. وكان يحب بنته وسبطيه حباً جماً، غير أن حبه لم يحمله على أن يكسومهم لباساً ناعماً أو يحلى بنته حلية ثمينه. ورأى فاطمة قد لبست ذات يوم قلادة من الذهب جاءها بها زوجها على كرم الله وجهه فقال ﷺ لها: يا فاطمة أتجبين أن يقال أن بنت محمد قد لبست طوقاً من نار؟ فنزعت تلك القلادة من عنقها واشترت بثمنها عبداً وأعتقته. ورأى عائشة قد لبست سوارين من ذهب فأمرها أن تنزعهما فنزعتهما حين قال لها:

هذا لا ينبغي لآل محمد . وكان يقول : يكفي الانسان من الدنيا ما يتزود به الغريب في سفره . هذا قوله ، أما عمله فيدل عليه ما روى أن أحد الصحابة دخل عليه فرآه قد أثر الحصر في جسمه الشريف فقال : ألا نهدى إليك فرشاً وثيراً ؟ فأجابه : مالي ولدنياكم ، ليس لي إليها حاجة إلا كما يستظل الراكب في طريقه ليستريح ساعة من نهار ثم يمضي قدماً . وفي السنة التاسعة للهجرة وكانت رقعة الدولة الاسلامية قد امتدت إلى اليمن والشام ولا ينفذ فيها إلا أمره حتى أنه لم يكن هو يملك إلا إزاراً وسريراً خشناً لافرش له ووسادة خشوها ليف وقليل من الشعر وجلد حيوان في ناحية من البيت وقربة ماء معلقة على وتد ، فإذا كان ذلك هو تزهيده الناس في الدنيا ، فهذا هو عمله الذي رأيتم .

إخواني . لاشك أنكم سمعتم كثيراً من الناس يخطبون في « الايثار » ويحشون الناس عليه ، فهل رأيتم مثلاً عملياً للإيثار في صحيفة حياة واعظ ؟ إذا شئتم أن تروا الأمثلة عليه فالتمسوها في سيرة الرسول الأعظم الذي علم الإنسانية فضائل « الايثار » وحذرنا عواقب « الأثرة » . أنتم تعلمون مبلغ حبه لابنته فاطمة رضي الله عنها ، ومع ذلك فإنها كانت تطحن بيدها حتى يجلت ، وتحمل قربة الماء على صدرها حتى اخضر . لجاءته ذات يوم تسأله خادمة — والإمام يومئذ كثيرة — فقال لها : يا فاطمة ، لم أفرغ بعد من حاجات أهل الصفة فكيف أفضى حاجتك ؟ ويروي أنه قال لها : إن أيتام شهداء بدر سبقوك في أمر الخزادم والعبيد . وأهدت إليه صحابة رداء في أحد الأيام ، فنظر إليه أحد الحاضرين وقال : ما أجمل هذا الرداء ، فدفعه إليه .

وأراد أحد الصحابة أن يقيم مأدبة في فرح له ، ولم يكن عنده ما يقدمه للأضياف ، فأتى النبي ﷺ يستعينه ، فأرسله إلى عائشة لتعطيه سلة دقيق كانت في بيتها ، فذهب ورجع بها ، ولم يبق في بيت الرسول تلك الليلة ما يأكله .

وذهب مرة بأصحاب الصفة إلى بيت عائشة وقال لها : هلمي ما عندك من طعام ، فجئني بطعام من نخالة ، فلم يشبعهم . فقال لها : هلمي شيئاً آخر ،

عجىء بحساء من تمر، ثم بقدح من لبن. ولم يسكن في بيته غير ذلك فكان النبي
آخر ما قدمه للأضياف، فأثرهم بكل ما عنده.

وإن شئت أن تشاهد المثل الأعلى للثقة بالله والاعتماد عليه فشهد ذلك
فه بيت هذا الرسول من الله. فإن الله أمره بقوله ﴿ فاصبر كما صبر أولو العزم
من الرسل ﴾ فامثل أمر ربه. وأنت تعلم أنه بعث في أمة أمية ذات حمية
وأنفة تمنعها أن تسمع كلمة مخالفة لعقائدها ومزاعمها، وهان عليها أن تموت
في سبيل ذلك. لكن الرسول ﷺ قام برسائه صابراً مثبراً فكان يوحد الله
في المسجد الحرام ويصلي على أئمة المشركين في فناء المسجد الذي كان نادياً
لهم وجمتمعهم، فكان يركع لله ويسجد أمامهم غير مبال بهم. ولما نزل قول
لله سبحانه ﴿ فاصدع بما تؤمر ﴾ صعد جبل الصفا ونادى المشركين، فلما
اجتمعوا إليه بلغهم دعوة الله. وقد امتحنوه بضروب من الأذى حتى ألقوا
عليه مرة سلاً جزور وهو قائم يصلي في فناء البيت الحرام، بل أرادوا مرة
أن يخنقوه بالرداء، وألقوا الشوك في طريقه، ولكنه صبر كما صبر أولو
العزم من الرسل.

ولما هم عنه أبو طالب أن يخرج من ذمته ويمسك يده عن حمايته، قال له
وقد حمت أفتقه: «يا عم، إن قريشاً لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في
يساري لأنتهى من تبليغ هذه الرسالة». وإن قريشاً قد حصرتة وبني هاشم
في شعب أبي طالب مدة ثلاثة أعوام ومنعوا الطعام حتى كان الصبيان يتضورون
جوعاً. واضطر الرجال أن يقتنوا بورق الشجر، ثم يتوا قتلها، لكن الرسول
ﷺ لم يداخله الخوف ولم يتردد في تبليغ الرسالة التي بعث بها. ثم خرج
إلى المدينة واختفى في طريقه مع صاحبه أبي بكر في غار ثور وتبعه المشركون
حتى بلغوا مدخل الغار واقتربوا منه ولو نظروا إلى أقدامهم لرأوه، وفرغ
أبو بكر في تلك الساعة العصبية فقال: يا رسول الله، إنما نحن اثنتان فقال له
ﷺ بصوت تمازجه الطمأنينة وما ظنك باثنين الله ثالثهما، لا تحزن، إن الله معنا.

ووعدت قريش من يأتي به جائزة قدرها مائة من الإبل ، فخرج سرافقة بن
جعشم يركض فرسه وييده رجمه حتى اقترب من الرسول فقال أبو بكر :
يا رسول الله قد أدركنا ، وكان أبو بكر يكثر الالتفات يمينا ويسارا ، أما
الرسول فكان هادىء النفس مطمئن القلب يذكر الله ولا يلتفت إلى شيء .
وبعد أن نجاه الله وبلغ المدينة لم يأمن غوائل قريش ومكائد اليهود فكان
محاطا بالأخطار من كل جانب حتى كان المسلمون يحرسون بيته في الليل فنزلت
هذه الآية ﴿ والله يعصمك من الناس ﴾ فخرج لساعته من الخيعة وقال للذين
يحرسونه : اذهبوا فإن الله وعدني بعصمته ، وتولى حفظي .

ورجع من غزوة نجد . فاستظل بشجرة في ساعة الهاجرة وتفرق عنه
أصحابه ولم يبق عنده أحد . ولما غلبته عيناه جاءه أعرابي من المشركين وقد
سل سيفه ، فاتبعه الرسول ﷺ . فقال له الأعرابي : « من يعصمك مني ؟ »
(تأمل حرج هذا الموقف) فاجابه ﷺ وجاهشه رابط وقلبه مطمئن بالإيمان :
« الله » ، فاطرقت هذه الكلمة سمع الأعرابي حتى تأثر بها وأغمد سيفه .

وخرج المسلمون إلى ساحة بدر في فلة من السعد والعمد وهم لا يزيدون
على ثلاثمائة وثلاثة عشر مقاتلا بعضهم معه سيف لارح وبعضهم معه رخ
ولا سيف معه ، وعدوهم نحو ألف مقاتل في سلاح تام وعتاد كامل ، فالتقى
الجمعان وحمل وطيس الحرب . ترى أين هو قائد جيش المسلمين ؟ انظر ،
هاهو قد اعتزلهم لاجئا إلى ربه يدعو تارة ويستفتح على المشركين ، ويسجد
لله تارة وهو يقول : « اللهم أنشدك عهدك ووعدك ، اللهم إن شئت لم تعبد
بعد اليوم » .

وربما وقع الخلل في صفوف المسلمين وتفرقوا عن الرسول ، فبقي هو
ثابتا في موضعه كالجبل الذي لا يزعه شيء . واثقا بربه متوكلا على تأييده راجيا
نصره ، كما وقع في سفتح أحد حين تفرق عنه أكثر الصحابة . ثبت هو مكانه ،
والمشركون تارة يحملون عليه بالسيوف ، وأخرى يشدون عليه بالرماح ،

ويرمونه أحيانا بالحجارة والسهام حتى انكسرت ثيابه وشرخ رأسه ودخلت في رأسه حلقة المغفر . ففي تلك الساعة الرهيبية كان وانقا بنصر الله الذي وعده بعصمته فلا يخذله . وكذلك وقع في حنين حين كانت سهام المشركين تقع على المجاهدين المسلمين كال مطر ، فنفرق المسلمون ، لكن الرسول ﷺ لم يبرح مكانه ، بل ظل ثابتا يدعو الناس إلى الله وهو يقول :

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

ثم ترجل عن مطيته وقال : أنا عبد الله ورسوله ، ورفع يديه يسأل الله ويدعوه .

إخواني . هل سمعتم بقائد باسل لا يبالي بقلة جيشه ونقص عدتهم ، ولا ينكص على عقبيه ولا يشحب من ساحة القتال وان تفرق عنه جنده ، ويستغنى عن سلاحه باستجداد ربه وطلب نصرته ؟ ذلك كان مبلغ ثقته بالله ، ويقينه بنصرته واعتماده على مدده .

وإخالكم سمعتم بواعظ يعظ الناس بأن يحبوا أعداءهم ، ويحثم على مودة مبغضينهم ، وأن يزجروا الطير تمر سعداً للذين يزجرون لهم الطير تمر نحساً ؛ لكنني لا أحسبكم رأيتم مثالا عمليا لاتعاط الناس بهذه المبادئ . فتعالوا معي إلى مدينة الرسول لنرى أمثلة رائعة للعمل بالمبادئ . لا أظنكم ترون مثلها في أمكنة أخرى . واتركوا ما جرى في مكة فإن النبي ﷺ لم تكن له فيها قوة فلا تضرب المثل منها للحلم والعفو عن مقدره . لكنه لما خرج من مكة ومعه صاحبه أبو بكر تعقبهما سراقه وهما في طريقهما إلى المدينة وكان يطمع بجائزة قریش وهي مائة من الإبل لمن يأتيها برأس الرسول ، فجعل يركض فرسه والطمع في الجائزة يستفزه حتى دنا منهما ، وخاف أبو بكر على الرسول ودعا الرسول ربه أن يعصمهما من شره فساخت قوائم فرس سراقه في الرمل فاضطر أن يترجل وجعل يستقسم بالألزام كعادتهم في الجاهلية فخرج له الذي يكره ثلاث مرات ومع ذلك ظلت قوائم الفرس في الرمل فأيقن سراقه

بالشر وعزم على الرجوع ، فنادى الرسول وطلب منه الأمان وأن يكتب له بذلك كتاباً وأن لا يؤاخذه يوم تعلق كتابته فيتغلب على قريش ، فأمر الرسول أبا بكر فكتب له كتاب الأمان ، فلما فتحت مكة ورأى سراقه بعينه كيف تغلب الرسول ﷺ وعلت كتابته دخل في الاسلام ولم يؤاخذه الرسول بما كان يريد من قتله ، بل لم يسأله عن ذلك البتة .

وقد علمت أبا سفيان ومكانته من مشركي قريش ، ونشاطه في مقاومة الاسلام حتى لم يدع النبي ﷺ يقر قراره ويطمئن باله في المدينة ، وهو الذي زحف بالجيوش وعبأ المشركين في بدر وأحد والخندق وكان قائدهم في معظم الحروب التي قامت بين المسلمين ومشركي العرب ، وكم من مسلم قتل وجرح جرح في تلك المعارك ، لكن أبا سفيان هذا مع كل ما تقدم منه جاء إلى النبي ﷺ مع عمه العباس قبل فتح مكة ولو أنه قتله لكان بذلك معذوراً ، ولكنه — وهو الذي بعثه الله رحمة للعالمين — قد وسعت رحمته أبا سفيان فشمله بعفوه . ولم يكسب بالعفو حتى أكرمه وأعزه ونادى في الناس يوم فتح مكة : « من دخل دار أبي سفيان فهو آمن »

وعرفتم هنداً زوج أبي سفيان وعملها في الحروب ، وهي التي كانت مع لداتها من نساء المشركين ترحض وتحرض على القتال وتخطف في غزوة أحد ، وهي التي مثلت بعم النبي ﷺ حمزة ، فلما رأى النبي ﷺ عمه حمزة بعد الحرب وقد مثل به جزع لذلك المنظر المؤلم ، ومع كل هذا فقد أتته هند يوم الفتح متنقبة فلم يتعرض لها ولم يسألها عما فعلت ، بل عفا عنها وصفح . فلما رأت هذا العفو النبيل أكبرته ولم تتألك أن صاحت قائلة : يا محمد ، لم يكن أهل خباء أبيض إلى من أهل خبائك قبل اليوم ، وأنا اليوم ليس أهل خباء أحب إلى من أهل خبائك .

وبعد فتح الطائف خرج وحشى قاتل حمزة رضى الله عنه هارباً يلتمس مكاناً آخر فاختم به ، فلما أظلم سلطان الاسلام هذا انجأ إلى حشى وحشى

قال له قائل : إنك لاتعلم ما تعلم من أمر محمد ﷺ ، إنك ان تجد لنفسك مأمنا إلا عنده . فحضره خائفا ، فلما وقع عليه نظر النبي ﷺ غض عنه بصره وتذكر في تلك اللحظة عمه حمزة وقتله بيد هذا الرجل ، فذرفت الدموع من عينيه الشريفتين ، وها هو القاتل أمامه ولو أراد أن يقتص منه لكان ذلك حقا وعدلا ، لكنه عفا عنه واكتفى بأن صرفه قائلا : إليك عني ! فاني إذا رأيتك تذكرت عمي حمزة وشهادته .

وهذا عكرمة وأبوه أبو جهل كانا أعدى عدو للاسلام والمسلمين ولرسول الله خاصة ، فأبو جهل آذى النبي الكريم آذى لم يؤذه أحد مثله ، وابنه عكرمة قاتل المسلمين فلما فتح الله مكة لرسوله خاف على نفسه مما فعله هو وأهل بيته بالنبي والمسلمين ، ففر ناجيا بنفسه إلى اليمن ، وكانت زوجته قد أسلمت من قبل وعرفت الرسول حق المعرفة ، فذهبت بنفسها إلى اليمن وربطت على قلب زوجها وهدأت روعه ورجعت به إلى المدينة ، فلما بلغ النبي ﷺ قدومه سارع إليه يرحب به حتى سقط عنه رداؤه ثم قال لعكرمة بن أبي جهل وهو فرح مسرور : مرحبا بالراكب المهاجر ، وهل تعملون بمن يرحب رسول الله ﷺ ، ومن هو هذا القادم الذي فرح ﷺ بقدومه حتى سقط عن منكبته رداؤه ، وشمله بعفوه وصفحه ؟ إن هذا كله لرجل سبق منه قبل إسلامه أن قاتل المسلمين وآذاهم ، بل هو ابن الذي ألقى عليه ﷺ سلاجزور ، والذي هم أن يهجم عليه وهو يصلي في المسجد الحرام ، والذي هم أن يخنقه بالرداء ، والذي أشار في دار الندوة بقتل حامل هذه الرسالة الالهية إلى الانسانية ، والذي أوقد نار الحرب بساحة بدر وكاد للاسلام المسكايد ولم يقبل الصلح . هذا ابن ذلك العدو الألد ، ولم يكن هذا الولد قد اعتزل أباه بل شاركه في جميع فعلاته . فلما قدم على النبي ﷺ وهو في أوج قوته هس له وبش ورحب به واستقبله بوجه طلق وصدر رحب (١)

(١) الناشر : ثم كان عكرمة من أجلاء الصحابة وكبار المجاهدين والقائمين رضي الله عنه

وهبار بن الأسود هو الذي كان في الحقيقة قاتل زينب بنت الرسول ﷺ وله فعلات أخرى وجرائم شتى وقد خالف المسلمين أشد الخلاف ، فلما فتح الله مكة لنبيه أهدر ﷺ دمه ، فأراد هبار أن يهرب إلى فارس ، ثم عدل عن ذلك وبداه له أن يحضر مجلس الرسول ﷺ ، فلما جاءه قال : يا رسول الله ، كنت هممت أن أفر إلى بلاد الفرس ، لكنني تذكرت عفوك العام ، وصفحك الشامل ، فجتئت معترفاً بجميع ما بلغك من ذنوبي . فلما سمع النبي ﷺ اعترافه شمله بعفوه الذي وسع أعداءه جميعاً وفتح له باب رحمته الذي ما زال مفتوحاً للجميع .

وعمير بن وهب تأمر على قتل النبي ﷺ مع صفوان بن أمية بعد وقعة بدر ، فخرج إلى المدينة يترصد النبي ﷺ ومعه سيف مسموم ، فوقع أسيراً بأيدي المسلمين وثبتت عليه جرائمه ، فخلى النبي ﷺ سبيله ولم يمسه بسوء .

وكان صفوان بن أمية لما تأمر مع عمير بن وهب على حياة النبي ﷺ وحرص عميراً على إتمام هذه الجريمة نعهد لعمير بأن يعول عياله ويقضى عنه ديونه لو أنه هلك في هذه المغامرة ، فلما فتح الله مكة للنبي ﷺ فر صفوان هارباً من مكة إلى جدة ليركب منها البحر إلى اليمن ، فجاء عمير إلى النبي ﷺ يخبره بذلك ، فأعطاه ﷺ الأمان لصفوان ، فطلب عمير من النبي ﷺ أمارة على أمان صفوان فأعطاه عمامته ، فلما لقي عمير صفوان وألح عليه بالرجوع أبدى له الخوف على نفسه فذكره عمير بما كان من النبي ﷺ لما وقع في أسر المسلمين وحدثه بما جعل عليه النبي ﷺ من كرم النفس وسعة الصدر وبجاجة الخلق وعظيم العفو ، فانقاد له صفوان وذهب إلى المدينة ، فلما حضر مجلس النبي ﷺ قال له : يا عمير أنتك قد أعطيتني الأمان ، فهل هذا حق ؟ فأجابته ﷺ نعم . فقَالَ للنبي ﷺ : لست بداخلك بيتك حتى تمهاني شهرين ، فأجابته : لقد أمهلتك أربعة أشهر . ولم تنقض تلك المدة حتى صلح حال صفوان وتغير قلبه ودخل في الاسلام .

ولما فتح رسول الله ﷺ خيبر معقل اليهود العظيم وحصنهم المنيع، صنعت يهودية طعاماً ودعت إليه النبي ﷺ فأجاب دعوتها، فقدمت له لحماً مسموماً، فلما تناول منه أعلمه الله بذلك فأمسك يده عنه ودعا باليهودية فسألها عن الشاة المسمومة فاعترفت بجريمتها، وقد بلغ من حلم رسول الله ﷺ أن تجاوز عنها ولم يؤاخذها على ذلك بسوء، وبقي مدة حياته ﷺ يشعر بأثر ذلك السم وتقدم آنفاً أن الرسول ﷺ عند منصرفه من نجد استظل في الهاجرة بشجرة وعلق فيها سيفه ثم ساوره النوم وقد ابتعد عنه الصحابة وتفرقوا لحاجتهم، إذ جاءه أعرابي من المشركين كان يرصده فأخذ السيف واخترطه ودنا من الرسول، فاستيقظ ﷺ، فقال له الأعرابي: من يعصمك مني؟ فقال له الرسول وقلبه مطمئن وجأشه رابط: الله! فلما سمع المشرك هذا الجواب الذي لم يكن يرتقبه تأثر وأغمد السيف. وفي غضون ذلك رجع بعض الصحابة والأعرابي لا يثق لم ينصرف، فلم يتعرض له الرسول ولم يعاقبه على ما كان هم به. وكذلك وقع في أسر المسلمين أعرابي كان راصداً لقتل الرسول، فلما أحضر إليه ﷺ ذعر الأسير، فسكن الرسول روعه وخفف عنه وقال له: لو أردت قتلي ما قدرت عليه.

وقبض المسلمون على ثمانين من المشركين يوم فتح مكة، وكانوا ممن يحرصون على قتل الرسول، فلما بلغه أمرهم أمر بتخليئة سيئهم ولم يمسه بسوء إخواني: انكم تعلمون الطائف وأهلها، وكيف قابلوا الرسول بالشر والأذى أيام كان في مكة يعاني صنوفاً من المضاعب والمعضلات. إن أهل الطائف لما عرض عليهم الرسول نفسه ليبيروه، جبهوه وردوه أقبح رد، ولم يصغوا إلى دعوته. وإن سيد الطائف ورئيسها عبد ياليل استهزأ به هو وعشيرته، وأغرى به طعام أهل الطائف وسفلتها ليسخروا منه. فلما مر بالطريق وقد اضطفوا صفيين رموه بالحجارة فخرحت قدماء وسالت منهما الدماء على حدائه. وكان ﷺ كلما جلس يستجم من التعب يتمعنونه من الجلوس

وإذا مر بهم يرمونه بالحجارة . وإن ما لقيه من أذى أهل الطائف لم ينسه طول حياته . ولقد سأله عائشة بعد ذلك بتسع سنين عن أشد ما لقيه من بلاء فأخبرها بأنه يوم الطائف . وكان بعد ذلك أن زحف المسلمون على الطائف في السنة الثامنة للهجرة وحاصروها فأطالوا حصارها واستعصى عليهم حصنها الحصين الذي قتل فيه كثيرون منهم ، فهم الرسول أن يرجع عنهم ، لكن أصحابه أبوا إلا الفتح وسألوا النبي ﷺ أن يدعو على أهل الطائف ، فرفع يديه إلى السماء يدعو فقال : اللهم اهد أهل الطائف ، اللهم أن قلوبهم للإسلام وممكنه فيما .

هذه هي رحمة الرسول وسعة صدره وبجاجة خلقه وكرم نفسه . يدعو بالخير للذين آذوه بالشر أشد الأذى ، وأبوا أن يجيروه حين استجار بهم ، ثم قاتلوه أشد القتال . ومع كل هذا لم يسأل الله لهم إلا أعظم ما يعلمه من الخير وهو الهدى . أرايتم رجلا آخر في الدنيا بلغت الرحمة من قلبه هذا المبلغ ؟ أجيئوني بالله عليكم ولا تقولوا إلا الصدق !

دارت رحى الحرب على المسلمين بعد أن كانت الغلبة لهم ، وذلك لأنهم خالفوا أمر الرسول ، واستهوتهم أموال المشركين فاشتغلوا بجمع الغنائم ، وحينئذ كر عليهم العدو فانهزموا وزلزلت أقدامهم ، فأحاط المشركون بالرسول ورموه بالسهم والحجارة وقاتلوه بالسلاح فانكسرت ثنيته وشج رأسه ودخل فيه ثلاث حلقات من البيضة وتضرج بالدم . فلم يزد ﷺ في ذلك الموقف الرهيب على أن قال : « كيف تفلح أمة تقتل نبيها ؟ اللهم اهد قومي فانهم لا يعلمون ، . وإذا كان المسيح عيسى بن مريم قد قال في عظة الجبل « أحبب عدوك ، فان محمداً رسول الله لم يقتصر على إرشاد الناس بلسانه بأن يحبوا أعداءهم ، بل أراهم بسيرته وعمله كيف يكون موقفهم من أعدائهم .

إن عبد بالليل — وأظنكم تذكرون اسمه — قد جبهه الرسول هو وعشيرته بالمكروه وآذوه أذى شديداً . فلما نزل مع قومه على الرسول ﷺ في

المدينة بعد ذلك أنزله في مسجده : وضرب له قبة فيه ، وجعل يزوره بعد كل
عشاء ، ويقص عليه ما كان يلقي وهو في مكة من عناء وجهه . ومن هو عبد
ياليل ؟ هو الذي استقبل الرسول ﷺ في الطائف بالأذى ، ورجمه بالحجارة
وسامه الخسف . فهل عهد من أحد فيما مضى أن يحب عدوه ويعفو عنه بمثل
هذه الساحة عند المقدرة ؟ ولما فتح المسلمون مكة ودخلوها أعزة ظافرين
اجتمع رجال قريش وأشرفها بفناء المسجد الحرام ، وفيهم من كان قد شتم
الرسول وأذاه ضروب الأذى ، وفيهم من كان قد اتمر عليه بالقتل ، وفيهم
من كذب برسائله واقتربى عليه ، وفيهم من قاتله وتذرع بكل وسيلة نحو
الاسلام ، وفيهم من طعن النبي بالرخ وضربه بالسيف ، وفيهم من آذوا فقراء
المسلمين وضعفاءهم وكروا صدورهم وظهورهم بالجمر الملتهب ، كل أولئك
من رجال قريش وساداتها كانوا يوم فتح مكة واقفين منكسي رؤوسهم
صاغرين ، ولعلمهم كانوا يتذكرون ما سلف منهم وتحز ذكراه في ضنائرهم
مترقبين أن يوقع بهم الرسول جزاء ما اقترفوا ، وحق لهم أن يخافوا ، فان
الذي أجلوه عن وطنه وأخرجوه من داره قد عاد إليهم فاتحاً عزيزاً يقود تحت
راياته عشرة آلاف من الأبطال الباسلين الذين ينتظرون أوامر سيدهم لينفذوها
في ذلك الموقف الرهيب سألهم الرسول : ماذا ترون أنى فاعل بكم ؟
قالوا : خيراً . أخ كريم وابن أخ كريم . فقال ﷺ : أقول اليوم ما قال
يوسف لإخوته (لا تريب عليكم اليوم) اذهبوا فأنتم الطلقاء .

هذه هي عجة الأعداء والعفو عنهم . وهذا ما حققه محمد رسول الله ﷺ
وضرب به المثل للساحة التي لا عهد للدنيا بمثلها ، فذلك هو العفو والصفح ،
وتلك هي دمانة الخلق وسعة الصدر وكرم المعدن . إنه لم يدع الناس إلى فضيلة
إلا بدأ بها بنفسه . لم تكن دعوته كلمات عذبة يرسلها على الناس ، ولكنها
كانت عملاً يتقدم به إلى الإنسانية ليكون لها منه أسوة وقدوة .

إن دعاة الديانات الأخرى يسمعون الناس مواعظ حلوة من أقوال

أنيابهم ومصالحهم . أما دعاة الاسلام فيقدمون للانسانية أمثلة عملية من سنة نبيهم وهدى . ولذلك كتب الله الخلود لهذه السنة وهذا الهدى ، والدين الاسلامي كما يدعو الأمم إلى كتاب الله يدعوها كذلك إلى سنة نبيه الكريم : ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ﴾ . إن هذا يدل على أن الرسول نفسه مثال لهذه الدعوة ، وحياته حياة مثالية للبشر جميعا . وهذا من خصوصيات الاسلام ، فسما سن الاسلام للناس القوانين والأحكام ، عرض عليهم كذلك حياة النبي ﷺ لتكون مثالا لهم يقتدون بها في حياتهم . ولذلك كان يقول لهم ، صلوا كما رأيتموني أصلي ، وكانوا يتداولون أخباره في آداب المعاشرة مع الأولاد والأزواج ويروون قوله ﷺ ، خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلي .

ولما وقف بعرفات في حجة الوداع كان عدد أصحابه من حوله نحو مائة ألف أو يزيدون ، فبلغ رسالات ربه الأخيرة ، وأعلن فيهم أحكامه ، وأبطل بقايا رسوم الجاهلية ، وبما مابقي عالقا من آثار مفسدها ، واستأصل شرها وأزال أسباب الحروب بين الأمة العربية وأبطل دواعي الملاحم التي لم تكن قبل ذلك تنقطع . ولكنه لما أعلن ابطال دواعي الجاهلية بدأ بنفسه أولا فقدم من عمله ما يدعو الناس إلى أن يقتدوا به ، فخطب مائة ألف من العرب الذين شهدوا موسم الحج قائلا لهم :

« إن دماء الجاهلية موضوعة تحت قدمي ، وأول دم أضعه دم ابن ربيعة ابن الحارث ،

وأبطل ربا الجاهلية ، وأول ربا أبطله ربا عمه العباس بن عبد المطلب وتأتى الكرامة والشرف مع النفس والمال . وإن معالجة الأمور المتعلقة بأعراض الناس وشرفهم من أشد الأمور وأعضلها . وإصلاح ذلك يعد غضا من كرامات الناس ونيلا من شرفهم ، لذلك قلما اجترأ المصلحون على إصلاح الرسوم الفاسدة المتمكنة من نفوس الناس والضاربة جذورها في أعماق قلوبهم

حتى إنها لتجرى في عروقهم مجرى الدم . أما الرسول ﷺ فإنه علم الناس
المساواة بين جميع الطبقات ، ودعاهم إلى الأخوة الانسانية بأدق ما تصل إليه
معانيها ، حتى إن الرقيق الذي كان في اصطلاح الجاهلية أذل الناس وأحقرهم ،
دعا الاسلام الناس إلى أن يعاملوه معاملة الأخ والمثيل . وبدأ النبي ﷺ
بنفسه فاتخذ غلامه زيدا بمنزلة الابن ، وسوى بين الرقيق والعربي الحر الكريم
المحمد الشريف النجار . وكان قد بلغ الإباء والفخر والخيلاء بالعرب إلى أن
كانوا يراعون ذلك في الحرب أشد المراعاة ، فكانت القبائل تنفاضل في
درجات الشرف والكرم ، والذي يزعم لنفسه أنه أشرف من غيره وأرفع
قدراً يشمخ بأنفه مترفعاً عن أن يدنس سيفه في القتال بدم من يراه دونه شرفاً
وكرماً ومنزلة . أما الرسول ﷺ فقد أذن في الناس أن الناس كلهم لآدم
وآدم من تراب : لا فضل لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي إلا بالتقوى
(إن أكرمكم عند الله أتقاكم) وبهذا التعليم الجديد أعلن أن الناس كلهم
سواسية إلا بالفضائل ، فلا تعلو طبقة على طبقة ولا طائفة من القوم على طائفة
أخرى ، وأصبح السيد والمولى والغني والفقير سواء لا يتفاضلون إلا بالنفوس
الرضية والأعمال الصالحة . ولم يبق للنسب وزن في ميزان الاسلام . واحتاج
هذا التعليم إلى عمل يؤيده ويقويه ويقم له وزناً في أعين الناس . وكان النبي
ﷺ لمسا نبي زيد بن حارثة وزوجه زينب بنت جحش (وأما أميمة بنت
عبد المطلب عمه النبي ﷺ) . وكان المتبني في نظام الجاهلية مثل الولد من
الصلب ، فكانوا يحرمون على أنفسهم نكاح حلائل من اتخذوه ابناً لهم كما
يحرمون نكاح حلائل الأبناء من الصلب ، وقد جر هذا الحكم الجاهلي مفاصد
عظيمة في حياة الأسرة عند العرب ، فلما جاء الاسلام باصلاح رسوم الجاهلية
الفاصلة أبطل بعضها وعدل بعضها ، فلما أراد أن يبطل أحكام الجاهلية في
المتبني ، مست الحاجة إلى أن يبطل هذا الحكم الفاسد بعمل من أعمال الرسول ،
ولا يخفى أن الشرف من أشد ما يحافظ عليه الناس ولا سيما العرب ، فأقدم

الرسول على مادعا إليه من إبطال حكم التبنى ، وتزوج زينب حليمة زيد بعدما طلقها زيد ، وبذلك أحى هذا الرسم الفاسد ولم يبق له أثر بعد عين .

إن حياة الرسول ملأى بالأمثلة ، وعامرة بالوقائع التي تدل على أنه ﷺ قدم حياته للإنسانية لتكون أسوة لابنائها . وأنا طمعاً منى في الإيجاز ، ووقفاً بالسامعين عند هذا الحد لكيلا يسأموا ، أمسك عن الاطناب في هذه المحاضرة لأن الوقت قصير والبحث طويل .

إخواني . تأملوا حياة الأنبياء من آدم إلى عيسى . وتفكروا فيمن سلف من المصلحين والذين بعثوا بهداية الخلق : من الشام إلى أقصى الهند ، فهل تعرفون واحداً منهم عمرت حياته بمثل هذه الأعمال الجليلة المتنوعة ، وبمثل هذه الأفعال العظيمة الكاملة التي يرى فيها الناس أسوة لهم ومنهاجاً لحياتهم الشخصية والاجتماعية ؟

واليكم الآن كلمة واحدة . إن أحد الواعظين والخطباء يذكر في مواظبه وخطبه ، الحب الالهي ، بكلمات عذبة وألفاظ فضيحة رائعة . ولكن — كما قيل — إن الشجرة تعرف من ثمرها . فإذا كان أثر الحب الالهي الطاهر في حياته العملية ؟ ولكن تعالوا ادرسوا سيرة هذا الرسول العربي الذي كان يحب الله ، تجدوه قائماً في ظلمات الليل يصلي والناس نيام . ثم ترونه باسطاً ذراعيه إلى السماء يسأل ربه إقامة الحق وتيسير الخير ، وقلبه خاشع ، وطرفه داعم ، ولسانه رطب بحمد الله وتسيحه وتمجيده . أليست هذه هي صورة الحب الالهي في أكمل حالاتها ؟

إن نبي الله عيسى بن مريم لما قبض عليه أعداؤه وأرادوا صلبه ، انطلق لسانه منسادياً : « لا يلي ، لا يلي ، لم سبقتنى ! ، أي : ربي ، ربي ، لماذا تركتني وخذلتني . أما محمد رسول الله فإنه لما دنا من الموت ، وأيقن أنه تارك هذه الدنيا ، وكادت روحه الطاهرة تفيض صاعدة إلى ربه ، أخذ يناجي ربه قائلاً :

اللهم إلى الرفيق الأعلى ، ، فهو في حنين شديد إلى لقاء ربه ، وفي شوق
عظيم إلى رفيقه الأعلى . فأى الجملة أدل على الحب الإلهي ، وأيهما أصرح
في الحنين إلى لقاء رب العالمين عز جلاله وعظم سلطانه ؟

اللهم صل عليه وعلى سائر إخوانه من الأنبياء والمرسلين



المحاضرة السابعة

رسالة رسول الاسلام الى جميع الانام

سادق . بيئت فيما سبق من المحاضرات الست أن حياة الانبياء هي التي يجدر أن تتخذ أسوة ، وأن سير الرسل هي التي تستحق أن تكون قدوة لبني آدم أجمعين من بين سائر الطوائف العليا من الناس . وأن السيرة التي تستحق أن تكون أسوة لجميع الناس إلى يوم القيامة من بين سير جميع الانبياء والمرسلين هي سيرة محمد ﷺ في حياته الشريفة .

ولما تبين أن سيرة الرسول العربي هي السيرة المثالية ، وفيها الأسوة الكاملة للعالم كله ، فإن لسائل أن يسأل : ما هي الحياة الكاملة والسيرة الجامعة في هذا الرسول ، وأي شيء في رسالته للناس من رب العالمين ، وماذا بلغ الناس عن ربه ، وما هي الأحكام اللازمة في رسالته التي بعث لأجلها هذا النبي الذي ختم الله به رسالاته واغناهم به عن أي نبي يأتي بعده ، وكيف أصلح خاتم الرسل برسالته الأحكام السالفة من الانبياء السابقين وأكمل ما كان ناقصاً منها بسبب مقتضى البيئة وطبيعة الحال ؟

لا شك أن الله سبحانه قد بعث كثيراً من الانبياء في مختلف العصور ، وأنزل للبشر أحكاماً على السنة رسله . وقد قلنا مراراً ، وأثبتنا بدلائل واضحة أن أولئك الرسل خصت رسالاتهم ببعض الأمم ولبعض الأزمان ، لذلك لم تمس الحاجة إلى حفظها من عوامل التصحيف والتحريف ، ولم تتعلق عناية الله بصيانتها من أيدي البلى وعبث الدهر ، فضاعت أصولها المعاصرة لأصحابها أو قريبة العهد منهم ، ووجدت بعد ضياعها تراجم دخلها كثير من التغيير والتبديل فبعثت التراجم عن أصلها كل البعد واختلفت وألحق بها وزيد فيها

كثير بما لا أصل له في الصحف المنزلة . وإن ضياع تلك الأصول الأولى دليل واضح على أن تلك الرسائل كانت لزمن محدود قد مضى ولولا ذلك لاقتضت حكمة الله بقاء أصولها .

أما ما بعث الله به خاتم رسله محمداً ﷺ فقد أتى حفظه ، وسبقني محفوظاً من كل تحريف أو تصحيف إلى يوم القيامة ، لأنه آخر رسالات الله ، وسبق للبشر ما بقي في الدنيا بشر . ولذلك أعلن الله صفة السكال والتام لهذه الرسالة ووعده بحفظها ، ولم يعلن مثل ذلك ولم يعد به في أي كتاب آخر من كتبه وأية رسالة من رسالاته ، بل على العكس من ذلك نجد النص في سفر التثنية من التوراة (١٨ : ١٥) على أن رسالة موسى مؤقته وأن الله باعث غيره بغيرها « يقيم لك الرب إلهك نبيا من وسطك — من إخوتك — مثلي ، له تسمعون » ، وقال (١٨ : ١٨) : « أقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم مثلك ، واجعل كلامي في فمهم ، فيكلمهم بكل ما أوصيه به » ، و (٣٣ : ١ - ٢) : « هذه هي البركة التي بارك بها عبد الله موسى بنى إسرائيل قبل موته فقال جاء الرب من سيناء ، وأشرق لهم من سعير ، وتلألا من جبل فاران (١) ، وأتى من ربوات القدس ، يمينه نار شريعة لهم . فهذه الآيات من سفر التثنية في التوراة تدل على أن الله يبعث نبيا مثل موسى في يمينه نار شريعة ملتبه ، وأن الله يلتقي في فمهم كلاما فيكلم الناس بكل ما يوحيه الله إليه . وهذا أوضح دليل على أن شريعة موسى لم تسكن آخر الشرائع ولا أدومها إلى يوم القيامة . وهذا النبي أشعيا يبشر ببعثة نبي آخر في الاصحاح ٤ من السفر المنسوب إليه . وفي سفر ملاخي بشارة برسول من رسل الله ، وكذلك سائر أسفار بنى إسرائيل والزيور تدل كلها على أن ما كان عندهم لم يسكن آخر رسالات الله ، ولا اتصفت شريعتهم بالبقاء والدوام . وادرسوا الأناجيل كذلك

(١) بركة فاران هي التي سكنتها هاجر وابنها اسماعيل كما في سفر التكوين ٢١ : ١

فانكم تجدون في انجيل يوحنا (١٤ : ١٦) : « وانا اطلب من الآب أن يعطيكم
فارقليطا آخر ليبقى معكم إلى الأبد . وفيه (١٦ : ١٢ - ١٣) . وإن لي
أمورا كثيرة أيضا لأقول لكم ، ولكن لا تستطيعون أن تحملوا الآن ،
وأما متى جاء ذلك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق ، لأنه لا يتكلم من
نفسه . فهذه الآيات من الانجيل دالة دلالة ليس فيها إبهام على أن ما في الانجيل
ليس آخر رسالات الله ، ولم تتم به رسالات الله ، بل سيأتي بعده نبي آخر
تكمل به رسالة عيسى بن مريم . أما الرسالة المحمدية فلا تنفي بني آخر يأتي
بعدها ، ولا بأنها ناقصة متكاملة بشيء يتلوها . إن الرسالة المحمدية تنادي بأنها
كاملة وأنها تامة لا نقص فيها (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم
نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً) (المائدة : ١) . ومحمد ﷺ هو القائل
« ختم بي النبيون » ، « ألا نبي بعدى » ، « وانه آخر لبنة في بناء النبوة . كل
هذا من الدلائل الساطعة على أن رسالة محمد ﷺ هي الرسالة الخالدة من رب
العالمين لجميع العالمين إلى يوم الدين . ولذلك تولى الله حفظها وصيانتها وعصمتها
بقال عر من قائل (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) .

إخواني . بقى سؤال آخر لا بد من الجواب عليه : هل أتى نبي آخر غير
محمد ﷺ برسالة عامة لجميع البشر ، وهل جاءت من الله رسالة غير الاسلام
حملت دعوتها الناس جميعا ؟ إن بني إسرائيل قصروا الدنيا على أنفسهم فجعلوها
محدودة بمحدود بلادهم ، بل زعموا أن إله العالمين هو إله أمتهم وحدها وخصوه
عالي بأنفسهم من دون الناس . لذلك نرى أنبياء بني إسرائيل وأسفارهم لم
يضم دعوتها لغيرهم من الأمم ، ولا تزال الشريعة الموسوية والدين اليهودي
مقصورين على الإسرائيليين لا يتجاوزانهم إلى غيرهم ، وأسفارهم لا تتخاطب
لغيرهم ولا تدعو لإلهم إلا أسباطهم ، بل إن عيسى المسيح لم يرفع إلا غم بني
إسرائيل الضالة ، ولم يبلغ رسالته إلا في قراهم وأرضهم والمنسويين إليهم ؟
لم يرغب في إعطاء خبز الأولاد للكلاب .

وكذلك صحائف (وبدا) الهندية وهي السكتب المقدسة التي يدعى الهنادك
أنها منزلة على أنبيائهم من السماء ، لا تطرق نبرات تلاوتها آذاننا غير آذان
الامة الآرية ، وجميع الناس من غير الآريين أنجاس مناكيد . وآذان الشودر
(أى الانجاس) إذا سمعت آيات (وبدا) فليصب فيها الرصاص المذاب !

أما الرسالة المحمدية فهي الأولى والأخيرة من رسالات الله التي جعلها الله
للناس كافة أحمرهم وأصفرهم وأبيضهم وأسودهم عرباً كانوا أو عجماً من
الصين شرقاً إلى أقصى الجزائر البريطانية شمالاً يستوى فيهم التار والافرنج ،
ذلك لأن إله رسول الله ﷺ هو إله جميع الأمم وهو رب العالمين ﴿ الحمد لله
رب العالمين ﴾ فهو لأجل ذلك مرسل للإنسانية كلها ﴿ رحمة للعالمين ﴾ ،
فرسالة الاسلام رسالة تعم جميع البشر ﴿ إن هو إلا ذكرى للعالمين ﴾
(الانعام ١٠) ، ﴿ تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً .
الذي له ملك السماوات والأرض ﴾ (الفرقان : ١ - ٢) ، فحمد ﷺ
نذير للدنيا كلها ، ورسالته تعم العالم أجمع ، وحينما ينفذ حكم الله فلتسكن شريعة
الاسلام قائمة ورسالة محمد نافذة . وقد جاء في سورة الاعراف ﴿ قل يا أيها
الناس إني رسول الله إليكم جميعاً الذي له ملك السماوات والأرض ﴾ ،
وهذه الآية تعلن عموم الرسالة المحمدية إلى كل من يبلغه نداؤها وتصل إليه
دعوتها ﴿ وأوحى إلى هذا القرآن لآنذرکم به ومن بلغ ﴾ (الانعام ١٩) .
فثبت من هذه النصوص أن الاسلام وحده هو الذي أعلن عموم دعوته
للإنسانية كلها وأنه هو الدين التام السكامل الجامع للمحاسن وإن يأتي بعده
دين غيره . جاء في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال «بعثت الأنبياء قبلي إلى
أمتهم خاصة ، وبعثت إلى الأمم كلها عامة ، وهذا يؤيد دعواي ، والتاريخ
يشهد لها شهادة لا ترد . وكما أن السيرة المحمدية كاملة تامة ، وفيها الأسوة
بجميع البشر ، كذلك دين الاسلام الذي جاء به محمد ﷺ كامل دائم وفيه صلاح
العالم ورشاده .

ولسائل أن يقول : دلوني على حقيقة الرسالة المحمدية التي أكل الله بها
الآديان ، وتمت بها نعمة الله على العالمين ، وبها بعث الله خاتم أنبيائه بالسيرة
الكاملة والأسوة الشاملة لجميع البشر مدى الدهر . والجواب على ذلك أن
الدين يشتمل على أمرين : أمر يتعلق بقلب الانسان ويسمى (الايمان) ،
وآخر يتعلق بجوارحه وبما يملكه ويدعى (العمل) . والعمل ينقسم إلى ثلاثة
أقسام : أولها يتعلق بالله وهو العبادة ، والثاني يتعلق بما يتعاطاه الناس بعضهم
مع بعض وهي المعاملات ومعظمها القوانين والأصول ، والثالث يتعلق
بآداب النفس وآداب المجتمع وهي الأخلاق . فالدين إذن عقائد ، وعبادات ،
ومعاملات ، وأخلاق . وهذه الأقسام الأربعة اكتملت بالرسالة المحمدية
وتعاليم خاتم المرسلين فبلغت الغاية التي ليس وراءها غاية .

والآن تعالوا نستعرض الكتب السماوية لنقارن ما فيها من هذه الأقسام
الأربعة : أما التوراة والانجيل فالذي فيهما من العقائد لا يروى الغليل ولا يشفي
الغليل . نعم ، نجد فيها ذكراً لوجود الله وتوحيده ، لكننا لانجد فيهما دليلاً
يؤيد ذلك ولا برهاناً يحمل النفوس على التصديق به ، كما لانجد فيهما ذكراً
للصفات الالهية التي تزكو بها الروح الانسانية ، وتطهر بها نفوس البشر ،
وتنشأ بها محبة الله وعرفانه .

فقبل البعثة المحمدية لم يكن الناس يعرفون هذه الأمور ، ولا كشفت
لهم الحجب عن حقيقة النبوة والرسالة والوحى والالهام ، والصلة بين الله
ورسله ، ومكانة الأنبياء ومنازلهم ، وكيف يؤمن الناس بالنبوة وما معنى
الايمان بالأنبياء وما معنى عصمتهم . هذه المسائل كلها لم يتكشفت أمرها ولم
يقف الناس على بيانها قبل الرسالة المحمدية ، لأننا لم نر نبياً من الأنبياء تصدى
لذلك وأفاض فيه . أما الجزء على الأعمال ، وأمر الجنة والنار ، والحشر
والنشر ، والقيامة والحياة بعد الموت ، فكل ذلك غامض قليل الوضوح في
التوراة ، ولا نقرأ عنه في الانجيل إلا فقرتين في جواب يهودى ، والجنة والنار

لا نرى عنهما إلا فقرتين كذلك . بينما الرسالة المحمدية هي التي أفاضت في هذه الأمور بوضوح عظيم .

وإذا أردت أن تعرف الملائكة من التوراة يلتبس عليك أمرهم ، وقد يشق عليك أن تميز بين حديث التوراة عن الله وحديثها عن الملائكة (انظر سفر التكوين ١٨ : ١ و ١٩ : ١) وذكر فيها الملائكة ، والتبست في الانجيل حقيقة روح القدس التباساً تاماً حتى لا يتسنى للقارىء أن يميز بين الله وروح القدس ، بل يصح عنده أنه إله أو ملك . أما الرسالة المحمدية فقد أوضحت أمر الملائكة ، وكشفت عنهم الحجب ، فأصبح مدلول هذا اللفظ بيننا واضحاً ومكانة الملائكة وأعمالهم معينة معلومة وأسماؤهم مذكورة ، فهم وسائط بين الله ورسله ، وينفذون إرادة الله في تدبير العالم وتصريف الأمور في الدنيا . كل ذلك تراه مفصلاً في آي الذكر الحكيم .

هذا في العقائد بما قد فصلته الرسالة المحمدية وأوضحت أمره . أما في الأعمال ورأسها عبادة الله ، فإن التوراة تتوسع في ذكر القرايين وآدابها وشرائطها ، وفيها ذكر الصوم والأدعية ، وفيها ذكر بيت إيل أو بيت الله . ومع ذلك فإن هذه الأمور غير واضحة ولا تسترعى أنظار الناظرين حتى أن منهم من جنح إلى إنكارها . وفيما عدا ذلك فإننا لا نجد في التوراة أنواع العبادات وأقسامها ولا طرقها ولا آدابها ولا تعيين أوقاتها ، وليس هنالك عناية تامة بتعليم العبادة للناس ، وقد أهمل جانب عظيم من كيفية ذكر الله ودعائه ، فلا نرى ما يدل على تعليم دعاء خاص لرب العالمين ، وكيف يدعو الناس ربهم ويسألونه حاجاتهم . وترى في الزبور أدعية كثيرة ومناجاة للرب طويلة ، لكن ليس فيه ذكر لآداب العبادات وشرائطها وأوقاتها ، أما الانجيل فعلمنا ترى فيه ذكر العبادات ، بل ليس فيه ذكر للعبادة البتة . نعم نجد في فقرة منه (متى ٤ : ٢) ذكراً لتكشف المسيح وصيامه أربعين يوماً . وفي الانجيل أيضاً اعتراض اليهود على المسيح بأن أصحابه لا يصومون . وفيه ذكر

دعاء دعا به عيسى عليه السلام في الليلة التي أرادوا صلبه فيها ، وفي ذلك الموضع دعا آخر له ، لكننا لا نجد ذكراً لعبادات أخرى .

أما الاسلام ففيه الصلاة والصوم والحج ، مفصلة آداب كل منها وشرائطه ، وموضحة طرق عبادته وسننها . وهو يرشد الناس إلى كيفية ذكر الله ، وبأى دعاء يدعون ، وبأى كلمات بليغة يسألون رب العالمين . وقد عين لهم مواقيت الصلاة والصوم والحج ، وأحكام هذه العبادات وسننها ، وكيف يسألون ربهم فيها ليستنزوا رحمته ويستغفروا ذنوبهم ، وكيف يتضرعون إليه ويخشعون له ويناجونه في سرهم ويذكرونه في علانيتهم ، وكيف يتوبون إليه معترفين بذلاتهم ، منيبين إليه منها متوخين تزكية نفوسهم ، وتنزيه أرواحهم ، وتطهير قلوبهم ، والتقرب إلى ربهم بكل ما ينالون به مرضاته ، لتسكون روح الدين قائمة وحقيقته مدوسة .

والقسم الثاني من الأعمال : المعاملات . وتستطيع أن تسميها قوانين المملكة وأصول المعاشرة ، وهذا الضرب من الأعمال مفصل تفصيلا وافيا في رسالة موسى عليه السلام ، وأقرت الرسالة المحمدية أكثره لكنها خففت من شدة أحكامه ووسعت ماضاق منها فجعلتها صالحا لتسكون قوانين عالمية . وكانت دائرة العمل بها محصورة بيني لإسرائيل فلما أضاف إليها الاسلام ما نقص منها أصبحت جديرة بأن يدعى العالم كله لأن يتخذها قوانين إنسانية عالمية . ونحن لا نرى ذكراً لقوانين المملكة في الزبور ولا في الانجيل ، وقد نجد في الانجيل بعض الأحكام في الطلاق ، أما الأمور الأخرى فلا أثر لها فيه . مع أن الدين العالمي الأبدى الذي يتكفل بحاجات المجتمع البشرى يتحتم أن يشمل قوانين الدولة وأصول المعاشرة . ولما كان دين عيسى المسيح عليه السلام خاليا من هذه القوانين فقد اضطرت الأمم المسيحية إلى استعارة هذه القوانين من الأمم الوثنية كالأغريق والروم . بينما الرسالة المحمدية اكتملت فيها هذه القوانين ، لأنها نظرت إلى هذا الضرب من حاجات الأمم نظرا ثاقبا حكما ، فاستوعبته

من جميع نواحيه مستقصية جهاته كلها ، فلم تترك ناحية منه إلا وقد أتمتها ، فسنت قوانين كلية أفاضتها على أصول جامعة استنبط منها الأئمة المجتهدون والأصوليون من فقهاء العلماء أحكاماً لحاجات جدت ومقتضيات حدثت ، ولا يزالون يستنبطون منها . واستمر هذا العمل الفقهي في هذه القوانين ألف سنة من أعمار الدول الإسلامية الراقية ذات المدنيات الزاهرة والحضارات الزاهية ، وعمل بذلك المسلمون في مختلف بقاع الأرض وأقطارها ، ولا يعرف العالم كله إلى الآن قانوناً أعدل ولا أرحم بالإنسانية ولا أصلح لها من قوانين الإسلام .

والقسم الثالث من الأعمال والأخلاق ، وإننا نجد في التوراة أحكاماً عديدة تتعلق بالأخلاق ، منها سبعة تعد أصولاً ، وليس في هذه الأصول السبعة إلا أصل واحد إيجابي وهو الأمر بطاعة الوالدين والبر بهما ، أما الستة الأخرى فكلها سلبية وهي النواهي : لا تقتل ، لا تسرق ، لا تزني ، لا تشهد على جارك شهادة زور ، لا تتخادن حليلة جارك ، لا تطمع في مال جارك . وبعض هذه الأصول داخل في بعض ، فهي في الحقيقة أربعة .

والانجيل ردد هذه الأحكام السبعة كما هي في التوراة وزاد عليها الحث على محبة الغير ، فجاء بزيادة واحدة على ما في التوراة . أما الإسلام فقد جاء بأحكام كثيرة في المعاشرة ، وبقوانين مفصلة في المعاملات ، وأفاض فيما كان نهراً حتى جعل منه بحراً . وفي الليلة التي أسرى فيها بالرسول ﷺ أعطى الله أهل الإسلام اثني عشر حكماً أساسياً منها واحد في التوحيد ، وكلها مذكورة في سورة الاسراء (٢٣ - ٢٩) . وفيها خمسة إيجابية ندعوها أوامر ، وخمسة سلبية تسمى النواهي :

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا : إِمَّا يَبُلُغْنَا عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهَا أَلْفٍ وَلَا تَنْهَرْهَا وَقُلْ لَهَا قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾

كريمًا . واخْفِضْ لَهَا جَنَاحَ الدُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْنِي كَمَا رَبَّيَانِي
صَغِيرًا . رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نَفُوسِكُمْ : إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ
غَفُورًا . وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ،
إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ، وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا . وَإِنَّمَا
تُعْرِضَنَّهُ عَنْهُمْ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَّهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا .
وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا
مَحْسُورًا . إِنْ رَبُّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ، إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا
بَصِيرًا . وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشِيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ، إِنَّ قَتْلَهُمْ
كَانَ خَطِيئَةً كَبِيرًا . وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْجَ إِذْهُوَ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا . وَلَا تَقْتُلُوا
النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ سُلْطَانًا
فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا . وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ
أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ، وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا . وَأَوْفُوا
السَّكِينِ إِذَا كَلَّمْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطِ السَّمِيقِ ، ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا .
وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ
كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا . وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ، إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ
وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا . كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا . ذَلِكَ
مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ﴿

- ١ — بر الوالدين وطاعتهما . و ٢ — إيتساء كل ذى حق حقه .
- و ٣ — الإحسان إلى اليتامى . و ٤ — الوزن بالتقسطاس المستقيم .
- و ٥ — إيفاء الكيل . و ٦ — الوفاء بالوعد (هذه أمور خمسة إيجابية)
- ١ — لا تقتل أولادك . و ٢ — لا تقتل نفساً . و ٣ — لا تقرب الزنا .
- و ٤ — لا تقف ما ليس لك به علم . و ٥ — لا تبذر في النفقة واقتصد فيها .
- (وهذه أمور خمسة سلبية)

فإذا قارتم بين ما جاء به القرآن من الأحكام الأساسية وما جاء به الإنجيل والتوراة تبين لكم حقيقة الرسالة المحمدية ، ويتضح لكم أنها أكملت ما كان ناقصاً في الرسالات السابقة التي لم تهتم بذكر الأحكام الأساسية . ولم تقتصر رسالة الإسلام على تكميل هذا النقص ، بل عنيت بحل معضلات المجتمع البشري في الأخلاق ، ووجهت الإنسانية إلى الطريق المثلى في قواها ، ونهت الإنسان إلى نقائصه وعيوبه وأمراضه النفسية ، ووصفت له دواء كل داء من أدواء النفوس ، وأخذت بيده إلى الجادة الوسطى في الأعمال والأخلاق والمعاملات هذا ما أكملته الرسالة المحمدية من الناحية العملية .

ولو شئنا أن نعبر عن جميع تعاليم الإسلام بأسلوب موجز ، جاز لنا أن نعبر عنها بهاتين الكلمتين الوجيزتين : الإيمان ، والعمل الصالح (١) . فهاتان الكلمتان تشملان جميع ما جاءت به رسالة محمد ﷺ وتحيطان بكل ما أكملته من عقيدة ، وعمل ، وخلق ، وحسن معاملة . فهما قوام الإسلام وزبدة ما جاء به محمد رسول الله ، وهما في الواقع قوام الفلاح والنجاة وملاك السعادة . فن

(١) والإيمان الاسلامي بضع وسبعون شعبة ، وقد استقصاها أعلام الاسلام فأروها تدور حول شيتين لثالث لهما : الحق ، والخير . وكل شعبة من شعب الإيمان الاسلامي لا ريب أنها تدخل إما في باب الحق ، أو في باب الخير . والعمل الصالح هو عمل المؤمن بما هو مؤمن به ، فلا يكون العمل صالحاً إلا إذا كان من عمل الحق أو من عمل الخير . وهذا هو الاسلام .
عجب الدين

آمن بالله إيماناً لا يزعه شيء ، وأطاع الله فيما أمر به من حق وخير ، وعمل بذلك عملاً صالحاً لا يشوبه سوء ، أفلح ونجا . وقد وصف الله في كثير من الآيات شأن المؤمنين الذين يؤمنون بالله ويعملون عملاً صالحاً وبشرهم تارة بقوله « أولئك هم المفلحون » ، وتارة بأنهم « أولئك هم الفائزون » . فالفلاح البشري والفوز الإنساني يرجع إلى الإيمان بالله والعمل الصالح بما أمر .

وقد كان بودنا أن نبسط القول في الإيمان والعمل الصالح ونوفيهاما حقهما من البيان والشرح ، لولا أن هذا الموقف لا يساعد على ذلك . والذي يعيننا الآن من الكلام على الرسالة المحمدية ناحية الكمال فيها وإتمامها ما كان ناقصاً في الديانات السابقة مما يرجع إلى العقائد والأعمال ، فأصلحت ما كان من قبل فاسداً ، وردت البدع الطارئة ، وقعت المفساد العظيمة الفاشية التي شوهت وجه الإنسانية ، وكانت باباً لكل شر وأصلاً لكل فساد ، وبذلك سدت في أصول الدين جميع الثلمات التي تسربت منها المفساد فكانت سبباً في انحطاط الإنسانية عن مستواها الكريم .

وأول مسألة عني بها الشرع المحمدي كرامة الجنس البشري ومكانته من سائر المخلوقات . وهي مسألة ترجع إلى أمر التوحيد ، فالإنسان قبل الإسلام كان يرى نفسه أحط منزلة من معظم المخلوقات والموجودات . كان يهاب كل ما عظمت جثته ، ويطأطئ رأسه لكل ما يبدو له أسود حالكا أو أبيض لامعاً ، ولكل ذي لب سائح أو لعاب قاتل . وبلغ خوفه من مظاهر الطبيعة ومن المخلوقات الضارة ، ورجاؤه من الأشياء التي يرتقب نفعها ، أن صار يعبد الحجارة الصم والجبال الشم والبحار الزاخرة والأنهار الجارية والأشجار الخضراء والأمطار الهاطلة والنيران الملتهبة والصحارى الخفيفة والأفاعى السامة والأسود الزائرة والبقر الحلوب والشمس البازغة والنجوم الزاهرة والليالي المظلمة والأشباح المهيبة ، وفي الجملة كان يعبد من المخلوقات كل ما يخشى شره أو يرجو خيره ، انقاء لضرره أو طمعاً في خيراته . فلما بعث محمد برسالة الله

أعلن جميع البشر بأن هذه المخلوقات كلها إنما خلقت لهم ولم يخلقوا لها ،
وأنها مسخرة لهم فلا يليق بهم أن يسجدوا لشيء منها . وقال لهم : أيها الناس ،
أنتم خلفاء الله في هذا العالم ، وقد سخر لكم كل ما فيه جميعا . إن الدنيا لكم
ولستم لها ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ﴾ البقرة ٣٠ .
﴿ وهو الذي جعل لكم خلافت الأرض ﴾ - (الأنعام ١٦٥)

ولاجل استخلاف بني آدم في الأرض سميت منزلتهم بين جميع المخلوقات
وشرّفهم الله وكرّمهم ﴿ ولقد كرّمنا بني آدم ﴾ (الاسراء ٧٠) فهل يجوز لخليفة
الله في الأرض وقد كرمه الله أن يسجد لمن هو دونه ، ويعبد ما هو أصغر منه
شأناً؟ وكيف يسجد بنو آدم لشيء غير الله والعالم مسخر من الله لهم ﴿ ألم تر أن
الله سخر لكم ما في الأرض ﴾ (الحج ٦٥) . ﴿ هو الذي خلق لكم ما في
الأرض جميعا ﴾ (البقرة ٢٩) . ﴿ والأنعام خلقها لكم فيها دفاً ومنافع ﴾
(النحل ٥) . ﴿ هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه
تسيمون . ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ﴾
(النحل ١٠ - ١١) . فلبني آدم الأرض وما فيها من الشجر والخضر ومن
الثر والزهر وغيرها من المنافع والمرافق بما لا يعد كثرة ولا يحصى وفرة ،
ولهم السماء وما فيها من الشمس والقمر والنجوم . ﴿ وسخر لكم الليل والنهار
والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ﴾ . (النحل ١٢) . ولهم البحر
وفيضانه ، والنهر وجريانه ﴿ وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً
وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله
ولعلكم تشكرون ﴾ . (النحل ١٤) . والقرآن الحكيم حافل بكثير من
هذه الآيات .

فدلت الرسالة المحمدية بذلك على أن موقف الانسان من هذا العالم موقف
السيد الكريم مما سخر له ، وموقف المتوج بتاج الخلافة الإلهية من كل ما هو
مستخلف فيه . فالإنسان مكال باكليل الجلال والعظمة ، لا يفوقه شيء من

موجودات الكون ، والكون كله دون الإنسان ، وهو نقطة دائرة العالم
والإنسان عينه والغاية من خلق العالم ولأجله جعلت الدنيا . وما يثير العجب أن
يركع الإنسان لمخلوق أو يسجد لما هو دونه أو يعبد شيئاً خلقه الله له ،
وكيف يفعل الإنسان ذلك وقد كرمه ربه وشرفه وفضله على جميع ما في
العالم تفضيلاً .

ولما جهل الإنسان قدر نفسه جعل يرفع رجالاً من أمثاله فرق درجاتهم ،
ويحمل أناساً في مكانة رفيعة لا يستحقونها ، وقد كان يبلغ الأمر بالإنسان إلى
أن يعبد الإنسان . أما رسالة محمد ﷺ فقد عرفت الناس بأقدارهم وأنزلتهم
منازلهم وأعطت كل ذي حق حقه فلم تنقص من حقه شيئاً ولم ترفع أحداً من
الناس فوق مكانته التي يستحقها ، فكما لم تحطَّ عزيزاً عن عزته الجدير بها لم
ترفع أحداً فوق المقام اللائق به ، وبذلك دلت الإنسان على شرفه وعلائه ،
وعلمته أنه مهما كان رفيعاً وذا سلطة وبأس فانه لن تبلغ به رفعة أن يعبد كما
كان يريد الفراعنة أن يعبدوا ، ومهما كان طاهراً عابداً متبتلاً فلا ينبغي لإنسان
أن يركع له أو يرجو منه ما لا يرجي إلا من الله أو يخشاه كخشية الله ، ومهما
حاز من المال الكثير والثراء العظيم فليس له أن يستعلي بذلك على إخوانه
من خلق الله . إن رسالة محمد ﷺ قد قطعت الفساد واجتذت الشر من أصولها
وأعلنت في الناس بوضوح وجلال هذه الحقيقة : ﴿ ولا يتخذ بعضنا بعضاً
أرباباً من دون الله ﴾ (آل عمران ٦٤) وأذاعت في العالم عن الأنبياء أنفسهم
وهم اسمي مراتب البشر أنهم لا ينبغي لأحد منهم أن يقول للناس ﴿ كونوا
عباداً لي من دون الله ﴾ (آل عمران ٧٩)

ليس في عالم الشهادة أرفع قدراً من الأنبياء ، ولا في عالم الغيب أعلى درجة
من الملائكة ، ومع ذلك لا يجوز أن يتخذ الناس أحداً من الأنبياء أو الملائكة
معبودين لهم ﴿ ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً ﴾ (آل عمران ٨٠)
فالرسالة المحمدية رفعت مكانة الإنسان وقد كانت منحطة من قبل فصار لا يخضع

ولا يخنى رأسه لغير الله ولا يسجد إلا له ولا يمد يده سائلاً غيره ، إذ لا معطى لمن منعه الله ، ولا مانع لمن أعطاه الله (وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله) (الزخرف ٨٤) . (ألا له الخلق والأمر) . (الأعراف ٥٤) . (إن الحكم إلا لله) - (الأنعام ٥٧) - (ولم يكن له شريك فى الملك) (الفرقان ٢) .

ثم تأملوا أمر التوحيد بعد علمكم بأن الرسالة المحمدية رفعت درجة الانسان وعرفته بقدر نفسه ، إن هذه الرسالة أوضحت حقيقة التوحيد ورفعت عن وجهه الحجب الكثيفة وأزاحت عنه ظلمات الشرك ، فتجرد من كل ما نسجته حوله أبدي الأوهام الباطلة والعقائد الفاسدة ، فليس فى تعاليم الاسلام ما يدل على أن الله أشرك قيصر معه فى الحكم وأن قيصر حاكم مثله فالاسلام محض الحكم كله لله ، ليس لأحد فيه من نصيب ، فله الحكم فى السماوات والأرض وله الأمر فىهما .

سادق . إن الانسان وقد اعتر بالخلافة الإلهية على الأرض وارتشف كأس المحبة لله وحده ، هل يعقل أن يسجد بعد ذلك لغير الله ، وهل يخامر قلب المؤمن بالله أى خوف من الظلة أو النور ، ومن المياه والرياح . وهل يخشى ملكاً عظيماً ، أو يوجس فى نفسه خيفة من صحارى واسعة أو جبال شامخة أو أرض رحبة أو بحار زاخرة حتى يسجد لها أو يدعوها خوفاً أو طمعاً إن المؤمن لا يخشى إلا الله ، ولا يبالي بغير الله ، ولا يطمع فى ثراه ثرى ، ولا يرجو غنى إلا من الله الفنى عن كل شىء . انظروا إلى تعاليم الاسلام كيف بلغت بالانسان ذروة الشرف وسنام المجد . وتأملوا كيف رفعت الرسالة المحمدية المستوى البشرى ووجهت المجتمع الانسانى نحو الحق والخير

وأمر آخر وهو أن الرسالة المحمدية أذنت فى البشر أن الانسان نزاع إلى الخير ، وأن فطرته بريئة فى الأصل ، ثم تطرأ عليها أعماله فتجعله آثماً مذنباً أو تقياً صالحاً . فسيئاته التى يقترفها هى التى تؤثر فيه فتجعله شيطانا مريداً ، كما أن

حسانته التي تصدر عنه هي التي تجلو نفسه وتهذبها فيكون بها ملاكاً طاهراً .
ان هذه لبشرى عظيمة هتف بها محمد رسول الاسلام في بني آدم ، بعد أن
كانت الأديان المنتشرة في الهند والصين من سالف الأيام تنشر الايمان بالتناسخ
وبعث الأرواح - بعد موت أصحابها - في أجساد أخرى أرفع منزلة مما
قبلها إذا عملوا أعمالاً سالحة ، أو في أجساد أذل وأحقر مما كانت فيه من قبل
إذا اجترحوا السيئات . وقد ذهب إلى هذا التناسخ بعض النسوكي ممن ينتمون
إلى حكام الأغر يق ، وجرء هذا الاعتقاد الفاسد وبالاعظما على معتقديه ،
فأصبحت حياته حياة إكراه وإجبار ولا اختيار له فيما يعمل ، فكأنه آله
صغيرة تحركها آله كبيرة ، وأنه ولد مذنباً ، بل ولادته في الدنيا نذير له بأنه
مجرم آثم .

وجاءت المسيحية فثبتت في الناس عقيدة أن كل مولود يحمى من ساعة
ولادته خطيئة أيه الأول آدم ، فالمولود يولد آثماً مخطئاً وإن لم يخطيء في
الواقع ، والمخطيء الآثم يجبلته يحتاج إلى المغفرة من شخص آخر لم يولد آثماً
ولم يخطيء . فيفدى هذا الشخص الاخير بنفسه خطيئة بني آدم ليذهب
بسيئاتهم . وهذا ما نشرته المسيحية المعروفة عند الناس داعية بني آدم إلى
الايمان بالفادى .

أما محمد رسول الله فقد بشر الانسان بأنه يولد غير آثم ولا مجبول على
الخطيئة ، ولا مسئول عن خطيئة أيه الاول آدم ، وانه يعيش عيشة لا إكراه
فيها ولا إجبار ، وهو خير في حياته بين أن يعمل سالحاً ان شاء فيجنى ثمرة
صلاحه ونزاهته ، وبين أن يعمل عملاً سيئاً فيكون بعمله مذنباً آثماً (والتين
والزيتون وطور سينين وهذا البلد الامين ، لقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم
ثم رددناه أسفل سافلين ، الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) (سورة التين)
فالاسلام بشر بني آدم بأن قوامهم أحسن ، وفطرتهم أفضل ، وجبلتهم أعدل ،
وأهم بعد هذا الاعداد الالهى انما يفسدون أو يصلحون بأعمالهم وبما يختارونه

لأنفسهم ﴿ ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها
وقد غاب من دساها ﴾ (سورة الشمس)

وهل من دليل أوضح على حسن جبلة الانسان ونزاهة فطرته وطهاره
أصله من قول الله فيه ﴿ إنا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً
بصيراً . إنا هديناه السبيل : إما شاكراً وإما كفوراً ﴾ — (سورة الدهر)
﴿ يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك في أي
صورة ما شاء ركبك ﴾ (سورة الانفطار)

وإن رسول الله الذي يتحرك لسانه بالوحي ، ويصدر منطقته عن إلهام ،
قد جعل الدين والفقرة بمعنى واحد ، أي انها كلمتان لمعنى واحد . فأصل الفطرة
هى الدين الذى دعى الانسان إليه ، والاشم عارض يعرض للإنسان ولاحق
يطرأ عليه . ويقول الله عز وجل ﴿ فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التى فطر
الناس عليها لا تبدل خلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾
(سورة الروم) . وقد فسر الرسول هذه الآيات فيما رواه البخارى فى تفسير
سورة الروم من صحيحه فقال صلى الله عليه وسلم ما من مولود يولد إلا على الفطرة ،
فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج كل بهيمة صحيحة سليمة هل ترون
فيها سكاء .

إن البشرى التى بشر بها الرسول صلى الله عليه وسلم بنى آدم هى أن كل انسان مختار
فيما يفعله غير مكره عليه ولا مجبر ، وليست حيراته الحاضرة نتيجة لحياته الماضية
فمن آمن بالرسول فقد تغيرت وجهة نظره الى أعماله ، فلا هو كئيب واجم
ظناً منه بأنه مكره على عمل هو استمرار لحياة سالفة . فكل من آمن بالرسالة
المحمدية أصبح بفضله حراً طليقاً من الأوهام الباطلة والعقائد الفاسدة التى
قيدت حياة البشر وغلت أيديهم .

ان الدنيا قبل بعثة رسول الاسلام صلى الله عليه وسلم توزعتها عقائد باطلة وأوهام
سخيفة ، فكان أهل كل دين فى مملكة من الممالك يحسبون أن مملكتهم هى الدنيا

كلها ، فكان براحة الهند ومتصوفوها يرون أن بلادهم هي أرض الله الممتازة ، وما خرج عنها لا نصيب له من رحمة الله ، لأن الله لا يريد الخير الا لقطان بلادهم . وأمر الرسالة الالهية والهداية الربانية قد اختص به بعض البيوتات من سدنة المعابد لا يعدوهم أبداً . وكذلك كان زردشت يحسب أن الاله انما يعنى بأمر بلاده المقدسة وحدها وبأهل وطنه الأخيار ، ولا تعنيه بلاد أخرى ولا أمة أخرى . وبنو اسرائيل يظنون أن رسالات الله خاصة ببعض أسباطهم وأنها حقهم الموروث .

أما الاسلام فقد وسع على الانسانية ما ضيقه الآخرون ، وأعلن أن الناس كلهم سواسية ، وأن دعوة الله غير مخصوصة ببلاد دون أخرى . فشرق الدنيا ومغربها وشمالها وجنوبها وفلسطين وفارس والهند ، كل قد خلا فيها رسول أو نبي ، وأن الله تعالى تستوى عنده الأمم واللغات في بعثة الأنبياء ، فشمس النبوة أشرقت على البشر جميعاً ونالأت فيهم أنوار الرسالة ﴿ وان من أمة الا خلا فيها نذير ﴾ (سورة فاطر) — ﴿ ولكل قوم هاد ﴾ (الرعد) ﴿ ولقد أرسلنا من قبلك رسلا الى قومهم ﴾ — (سورة الروم) . فاليهود لا يؤمنون بنبي ليس منهم ، والنصارى لا يوجبون على أنفسهم الايمان بنبي من بني اسرائيل أو غيرهم ، ولا يرون اذا لم يؤمنوا ببعض الانبياء أن ذلك يخل بشيء من دينهم . وكذلك الهنادك لا يعتقدون بأل الهام الالهى والوحى الربانى نزل على بلاد غير بلادهم . وهكذا شأن المجوس أتباع زردشت فإنهم يذهبون الى أن الدنيا كلها مظلمة سوداء فلا نور الا ببلادهم بلاد النار .

أما الرسالة المحمدية فقد أعلنت أن الدنيا كلها لله وحده ، وأن سكانها أجمعين من خلق الله ، وأن الأقوام على اختلافها سواسية في نعمه وآلاته ، وكلهم نالوا نصيباً من دعوته وحظاً من رحمته ، وما من بلاد عمرتها أمة الا وقد أضاء فيها نور من هداية الله ، وبعث فيها نبي دعاها الى الحق وبلغها أوامر الله ونواهيها .

وقد علمت مما سلف أن الاسلام فرض على كل من دخل فيه أن يؤمن بجميع أنبياء الله ورسله وبالكتب السماوية التي أوحى الله بها من قديم الزمان ، وليس بمسلم من لم يؤمن بالأنبياء كلهم وبالكتب المنزلة على الرسل المبعوثين من قبل ، فالرسل الذين سماهم الله في القرآن يجب على المسلم أن يؤمن بهم لإيمان تفصيل ، والذين لم تذكر أسماءهم يؤمن المسلم بهم لإيمان إجمال بأنهم كانوا صادقين هداة للبشر ، وكانوا يتابعون الخير والحكمة ، وقد وصف الله المسلمين بأنهم ﴿ الذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك ﴾ (البقرة) . وفي موضع آخر من البقرة ﴿ لكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتب والنبيين ﴾ وفي سورة البقرة أيضا : ﴿ كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله ﴾ . فليس للمسلم أن يؤمن ببعض الرسل ويكفر ببعض . وقد خاطب الله المسلمين جميعا بقوله ﴿ يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل ﴾ (النساء ١٣٦) .

سادق . هل تعلمون أحدا علم مثل هذا التعليم فسوّى بين الهداة من جميع الملل والنحل في إعظامهم وإكرامهم والأدب معهم والاعتراف بحميلهم وتصديقهم فيما دعوا إليه من حق ؟ وأين ترون مثل هذه الروحانية العظام والإخاء الشامل ؟ أجيبي بصدق : أليس رسول الاسلام رحمة للعالمين حيث علم الناس كيف يرعون شرف الهداة وعظمة حملة الرسالات الإلهية ، فعمت دعوته واتسعت رحمته حتى نال كل شعب من شعوب البشر وكل أسرة من أسرهم نصيبا من ذلك . ولقد اتخذ المتديثون بجميع الديانات وسائط ووسائل بينهم وبين الله ، معتقدين أنهم لا يصلون إلى الله المعبود إلا أن يتوسط بينهم وبينه من زعموه أهلا لذلك ، فكانت السدنة وخدمة المعابد وسائط الناس إلى الله في قديم الزمان ، وحتى اليهود اتخذوا من سبط لاوى ومن تناسل منه شفعا بينهم وبين ربهم ، والنصارى جعلوا بعض الحواريين وخلفائهم من

الرهبان والقسيسين وسائل يتوسلون بهم إلى الله ، وقد غلوا في رفع مراتبهم حتى بلغوا بهم مبلغا لم يبلغه مقرب عند الله فزعموا أن ما يربطه هؤلاء الشفعاء في الأرض فهو مربوط في السماء وما حلوه في الأرض فهو محلول في السماء ، وأن لهم أن يغفروا للناس خطاياهم ويسقطوا عنهم آثامهم ، وأن العبادة لا تقبل عند الله إلا بوساطتهم . وكذلك براهمية الهند زعموا أنهم مخلوقون من يمين الله وأنهم الوسائط بين الخلق والخالق ، وأن العبادة الهندوكية لا تقبل إلا بهم وعلى أيديهم . أما الإسلام فلا يعترف بطائفة خاصة من سدنة المعابد وخدام المساجد وأحبار الدين ، وليس في الإسلام رهبانية ، ولا يرضى أن تكون فيه قبة تتخذ الدين مهنة ومصدر رزق ، وليس لأحد أن يعطى أو يمنع ، وما بيد أحد شيء من أمر الحل والعقد بل كل ذلك بيد الله فهو الذي يغفر الذنوب وحده ، وليس بين العبد ومعبوده والمخلوق وخالقه أى تدخل لأحد في عبادة الله ومناجاته ، ولكل مسلم أن يصلى بالناس وأن يؤمهم وأن يذبح أضحيته بيده ، وأن يعقد الفكاح ويقوم بجميع أمور الإسلام وأوامره . والإسلام يعلم أتباعه قول الله عز وجل ﴿ ادعوني أستجب لكم ﴾ وأنه يجيب دعوة الداعين مباشرة وبلا واسطة ، فكل مسلم يدعو ربه متى شاء ويناجيه ويثبه حزنه ويشكو إليه ضره بلا أى واسطة . فالمسلم هو قسيس نفسه وهو برحمها حين يعبد ربه متحرراً من قيود البراهمة والقسيسين .

لقد بعث الله رسله وأنبياءه إلى البشر بالهداية وإصلاح المجتمع الانساني ، ولكن الناس أفرطوا فيهم أو فرطوا . فمنهم من غلا في تعظيمهم فرفعهم من منزلة الرسل والأنبياء والهداية إلى منزلة الاله المعبود أو إلى منزلة شبيهة بذلك ، وإنك لترى في هياكل الشام وبابل ومصر تماثيل الكهنة والأحبار تمثل الله عز وجل وتتحل بعض صفاته ، وكذلك الهنادك جعلوا الأنبياء المبعوثين فيهم بالهداية والحكمة آلهة متجسدة ، وكذلك فعل أتباع بوذا والجنينيون بصلحاء ملتهم وهداة نحلثهم فاتخذوهم أربابا ، وهذا ما فعله النصارى

بنيهم عيسى بن مريم سلام الله عليه فاتخذوه ربا ودعوه ابن الله سبحانه وتعالى
عما يقولون علوا كبيرا . ذلك ما أفرط به الناس في حق الأنبياء . وآخرون
قصروا في حقهم وفرطوا ، كما فعل بنو إسرائيل في كل من تكهن أو تحدث
عن أمر المستقبل فجعلوه نبيا . ولا يتوقف مقام النبوة عندهم إلا على أن
يتحدث أحد كهانهم في أمر المستقبل ، أو أن يتوسم أمراً فيقع ، ولا يلزمه
أن يكون بمن يتقى المآثم فضلا عن أن يكون عند الله معصوما صالحا ، لا لجل
ذلك ترى في صحف بني إسرائيل أموراً منسوبة إلى الأنبياء تنافي النبوة وهي
بين أن تكون غير صحيحة أو يكون من وقعت منهم غير أنبياء .

فلما ظهر الاسلام وصف مكانة الأنبياء اللاتفة بهم ، وعين منزلتهم عند
الله ، وأعلن أنهم عبيد الله وليسوا أشباهه ولا أنداداً له ، وأن الله لا يتجسم
في صورهم ، وأنهم ليسوا أبناء الله ولا أقرباءه ، إنهم إلا بشر بعثوا إلى
بشر . وأن جميع أنبياء الله كانوا من قديم الزمان بشرا لا غير . وكذلك قال
محمد خاتم النبيين ﷺ : « إنما أنا بشر مثلكم ، فاستغرب الكفار ذلك وقالوا
« أبعث الله بشرا رسولا ، فقال الاسلام « قل إنما أنا بشر مثلكم ، « هل كنت
إلا بشرا رسولا ، . وكل هذه آيات من كتاب الله الحكيم .

إن الأنبياء مع قرب منزلتهم من الله وشرفهم وعلو مكانهم عنده ،
لا يملكون من تدبير العالم شيئا ، ولا يقدرون على ما لا يقدر عليه إنسان مثلهم ،
وكل ما صدر عنهم مما عجز عنه الآخرون فيأذن الله وأمره . وقد وصفهم
الاسلام بأنهم وإن كانوا بشراً كغيرهم من البشر إلا أنهم أعلى منزلة وأسمى
مكانا من سائر الناس ، فهم يكلمون الله ويوحى إليهم وقد عصمهم الله من
الذنوب وطهرهم من رجس الآثام ، فكانوا أعف كرام الاخلاق لتكون على
أيديهم هداية المجرمين والآئمين من الناس ، وقد يجري الله آياته وبيناته على
أيديهم ، ليقوموا بتعليم الناس الصلاح والرشاد وليزكوهم ويظهرهم ، فيجب

لهم على الناس أن يكرمواهم ويمظموهم ويعملوا بهدايتهم ، لأن الله أرسلهم هداية
مصلحين وشرفهم برسالته ووجيه وكلامه .

هذا ما علمه الاسلام للناس من الاقتصاد والاعتدال في أمر الأنبياء وفاء
بحقهم بلا غلو ولا تقصير ، وهذا ما كان جديراً بالاسلام لأنه جاء مكلاً
لتوحيد رب العالمين .

إخواني : لقد طال بنا الحديث ، ومضى هزيع من الليل ، وبقي شيء كثير
بما أريد أن أقصه عليكم . فلنتختم هذا الحفل بالصلاة والسلام على رسول الله
الأمين الذي ختم به تعليمه الأخير للناس إلى يوم القيامة .



المحاضرة الثامنة

السيرة المحمدية من الناحية العملية

إخواني : اليوم آخر اجتماعي بكم ، بعد أن استمر شهرا . ومحاضرة اليوم آخر المحاضرات الثمان . وقد حاولت في المحاضرتين الماضيتين أن ألمّ بكل ما يتعلق بأصول الاسلام ، وما يرجع إلى مبادئه وقواعده وسننه . ولكن أتى لي أن أوفي ذلك ؟ ومن ذا الذي يستطيع أن يجمع ضوء الشمس بيده ، أو يحصى نجوم السماء ؟

إن الأديان السالفة قبل الاسلام ، التي كانت دعوتها إلى توحيد الله ، قد تطرق إليها الفساد في أمر التوحيد لوجوه ثلاثة : الأول التشبيه والتمثيل أي أنهم قد شبهوا الله بغيره من خلقه . والثاني أنهم جعلوا صفات منفصلة عنه ومستقلة . والثالث أنهم اغتروا بكثرة المظاهر في العالم ، وخذعوا بضروب من مصنوعات الله وآثار مقدوراته ، فلما من الله على الإنسانية بالاسلام أزال به الأوهام وكشف خفايا الشبهات فانجملت عن البصائر غياهب التمثيل والتشبيه .

وإليكم أولا أمر التمثيل : فإن أهل الملل والنحل من غير الاسلام اختاروا طرقاً واتخذوا وسائل لمعرفة ما لله عز وجل من الصفات الجليلة ، والصلة التي بينه وبين خلقه ، فشبهوه بجل جلاله بأجسام مختلفة ، ومثلوا صفاته في ضروب من الصور والأشكال ، فلما طال عليهم الأمد بقيت هذه الصور الممثل بها وزال عن قلوب الناس اسم الله الذي لم يزل ولا يزال ، فصارت المشبه بها أوثانا وأصناما وتمائيل ، وطلق الناس يعبدونها ويسجدون لها ظنا منهم بأنها مظاهر صفات الله ومشاهد قدرته ، وتفننوا في تصور صفات الله بهذه التماثيل

المنحوتة والأوثان المصنوعة . ومن ذا الذي يشك في أن الله يحب عباده ويرأف بهم ويحن عليهم ؟ لكن الجاهلين جعلوا لحب الله عبادة ، ولرأفته بهم تمثالا من حجر أو غيره . والأم الآرية اتخذت تمثال المرأة رمزا للحب الإلهي فانها عندهم مظهر الحنان والأمومة وإلهة الحب والغرام ، فعبروا عن حب الله بنوع من العبادة ، وعن حنانه عليهم بحنان الأم على ولدها ، فانقلب الإله عندهم أما حنوننا ، ونحتوا له صورة أم حنون ، وأخذوا يعبدونها ويسجدون لها . والطوائف الأخرى من الهنالك قد أظهرت هذا الحب الإلهي لعباده وحنانه عليهم بما بين الحليلة وزوجها من المودة والمحبة ، فاخترت لفيث من الرجال زى النساء وهيتهن ونأثوا وتحنثوا شكلا وأخلاقا ، على زعم أن الله يحبهم كما يحب الزوج حليلته .

وكذلك ظهر الإله عند الروم والإغريق في صورة امرأة .

أما الأم السامية فقد تمثلت الإله عندها رجلا وأبا ، إذ كان ذكر المرأة عندها على ملا من الناس مخالفا الآداب السامية . وكان الأب هو رأس الأسرة وأصلها . ويدل عليه ما استخرج من بطون الأرض في بابل وأثور وديار الشام من تماثيل تصور الإله بصور الرجال . وكذلك بنو إسرائيل يظهر أنهم في بدء أمرهم كانوا يتصورون الله بصورة الأب ويحسبونه والدا ، ويحسبون الملائكة وسائر الناس أولاد له ، ثم ضاقت نطق تفكيرهم ، فلم يبق للإله أولاد عندهم سوى بنى إسرائيل . ويوجد في بعض صحف بنى إسرائيل ما يدل على أن الرابطة كانت بين الإله وبنى إسرائيل كالرابطة التي تكون بين الزوج وحليلته ، وأن بنى إسرائيل وأورشلم حلائل والإله زوجهن (تعالى الله عما يقولون ويتصورون) .

وقد أخطأ المنتسبون إلى المسيح عليه السلام فجعلوا ما كان بادىء بدء استعارة كأنه حقيقة ثابتة ، وانقلب تشبيه الإله بالأب لحنانه على نبيه عيسى

عليه السلام ورأفته به فاعتبروه حقيقة ، وإياله الذي لم يلد ولم يولد اعتبروه
والدأ وعيسى ولده .

وشبيه بذلك ما نجده عند قدماء العرب من ظنهم بالله أنه أب والملائكة
بنات له ، فلما بزغت شمس الاسلام انكشفت ظلمات التشبيه والمثيل كلها ،
وانجلى قتام الشرك ، وأهمل استعمال جميع الكلمات التي تفضي إلى الاشرار
بالله ، منذ نادى رسول الاسلام ﷺ بهذه الحقيقة (ليس كمثل شيء) ،
ثم نزلت سورة من قصار سور القرآن تحت الأوهام الباطلة كلها والعقائد
الفاسدة التي نسجها الناس حول وجود الله ، وهي قول الله عز وجل (قل هو
الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد) فكان
الاسلام بذلك طاهراً من دنس الشرك نقياً من كل شوائبه .

إخواني وخلاتي . إياكم أن تظنوا أن الرسالة المحمدية نفت شيئاً مما لله
عز وجل من عظيم الرأفة وواسع الرحمة بعباده ، أو أبطلت ما لله في عباده
من حنان . إنها لم تفعل ذلك ؛ بل وثقت حبل الله الذي يسره لعباده وزادته
قوة . وإنما أبطلت ما زاد على ذلك من أوهام تفضي إلى تجسيم الله أو تمثيله
بشيء من خلقه ، وحت وسائل كاذبة تجر إلى الاشرار بالله مما اتخذته الأمم
السالفة فضلت به ، وأضلت . وفيما عدا ذلك فإن الإسلام أشاد بما بين الله
وعباده من رابطة هي أشد وأقوى من كل ما يمت به المخلوقون بعضهم إلى
بعض من نسب ورحم وآصرة ودم ، فالإنسان الذي يعيش في طاعة الله أقرب
إلى الله من قرابة الولد لوالده وقرابة الزوجة من زوجها .

انظروا كيف أراد الله أن يعلم الصالحين من عباده بأنه يحبهم كما يحب
الآب أولاده فأمرهم أن يذكروه كما يذكرون آباءهم أو أشد ذكراً . فهو
عز وجل لم يشبه نفسه بالآب ، لكنه شبه حبه بحب الآب ، واجتنب ما يدل
على القرابة الواشجة والرحم الماسية ، فأبقى من هذه العلاقة ما يدل على الحب
ثم زاد الحث على أن يذكروه أشد وأكثر بما يذكرون آباءهم بقوله (أو أشد)

ذكر آية لأن الصلة بين العبد وخالقه أشد وأسمى من جميع ما يمت به المرء
لى أحد من ذوى قرابته ، فقال تعالى ﴿ والذين آمنوا أشد حبا لله ﴾ .
والاسلام لا يسمي الله أباً للناس ، بل يدعوهم رب العالمين ، لأن الرب أعلى
مكاناً من الأب ، وإن الصلة بين الابن وأبيه عارض يفتى ، والصلة بين
المربوب وربّه أثبت وأبني لأنها مستمرة من أول نشأة المخلوق إلى أن تنتهى
حياته بلا انقطاع ، فانه ودود رموف حنان بأكثر مما فى الرجال من الود
لاودانهم ، وما فى الأب من الشفقة والرأفة نحو بنيه ، وما فى الأم من الحنان
على أولادها ، ومع ذلك فانه سبحانه ليس بأب ولا أم ، وهو منزّه ومقدس
عن كل شائبة من شوائب البشرية .

والامر الثانى الذى أفضى بالأديان القديمة إلى فساد العقائد فى معنى
التوحيد : مسألة الصفات الإلهية . ومنشأ ذلك أن أتباع الأديان الأخرى
قد فصلوا صفات الله عن ذاته ، وجعلوها مستقلة عنه . وبذلك تعددت الآلهة
وكثر فى جميع الفرق الهندوكية من الدين البرهمى ، لأنهم اتخذوا من كل
صفة إلهية إلهاً ، وجسموا تلك الصفة فى صورة أو صاغوها فى قالب ثم
وسعوا نطاق الشرك وطبقوه على جميع ما شئت به صفات الإله من مختلف
التشايه ومتنوع التماثيل ، وصاغوا هذه الصفات وما شئت به فى صور وتماثيل
وأوثان ، وبعد أن كان الله إلهاً واحداً لا إله غيره صار لهم ثلاثون وثلاثمائة
مليون من الآلهة . وتفصيل ذلك أنهم أرادوا أن يعبروا عن قوة الله وقدرته .
وظاهر أن اليد من مظاهر القوة والبطش ، فنحتوا لله تعالى يدين قويتين من
الحجر ، بل سولت لهم أنفسهم أن ينحتوا له كثيراً من الأيدي . وحاولوا أن
يعبروا عن حكمته البالغة فجعلوا له رأسين ، واتخذوا له وثناً ذراً رأسين . وإذا
تأملنا نخل الهنادك الكثيرة العدد بدا لنا أنها لم تكثر هذه الكثرة الهائلة
ولم تفرق إلى فرق كثيرة ؛ إلا لأجل تجسيمهم صفات الإله . فان لله عندهم
ثلاث صفات عظيمة : الخلق ، والقيام على المخلوق ، والأمانة . وإن شئت فقل

أن تعبر عن هذه الصفات بالخالقية ، والقيومية ، والإماتية . وقد جعلت الفرق من الهنادك هذه الصفات الثلاث أشخاصا مستبدين أطلقوا عليهم أسماء : برهما ، ووشنو ، وشيو . فبرهما رمز للخالق ، ووشنو هو القيوم ، وشيو هو المميت . ونجمت عن ذلك ثلاث نحل : نحلة يعبد أتباعها برهما ، ونحلة لإلهها وشنو ، ونحلة معبودها شيو . وقد انفصل بعض هذه الفرق عن بعض . وهناك فرقة منهم تعبد فروج الرجل والمرأة لأنهم تمثلوا بها صفة الخلق وأرادوا أن يمثلوها بجسم كما فعلوا في الصفات الأخرى فهداهم سوء بصيرتهم إلى أن فروج الرجال والنساء من أكبر الأسباب للخلق في هذا الكون فاتخذوا لها صوراً وأوثاناً وجعلوا يسجدون لها ويتقربون إليها .

وفي النصرانية صفات إلهية ثلاث : الحياة ، والعلم ، والإرادة ، تمثلوها ذواتا سموها الأفاقيم الثلاثة : فالأب رمز للحياة ، وروح القدس رمز للعلم ، والأبن رمز للإرادة .

ونجد مثل ذلك في عالم الأصنام عند قدماء المصريين والأغريق والروم . وإن محمداً ﷺ بعث بتقنين آراء الأمم في صفات الله فظهر خطأ تلك المذاهب وفسادها ، وبين أن الله واحد ، وأن صفاته الكثيرة ليست أشخاصا منفصلة عنه ، وأن من جعل الله الواحد اثنين أو أكثر مغترا بتعدد أسمائه الحسنى وصفاته العليا فقد ضلّ وغوى وحاد عن سواء السبيل . فالقرآن أعلننا بأن الله ﴿ رب العالمين ﴾ وأن ﴿ له المثل الأعلى ﴾ وأنه ﴿ نور السموات والأرض ﴾ . وكان نصارى العرب يدعون الخالق بالرحمن لا تصافه بالرحمة ، أما عامة المشركين فكانوا يدعونه «الله» ونزل القرآن تصديقا لها ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن ، أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى ﴾ وفي سورة الشورى ﴿ فالله هو الولي وهو يحيي الموتى وهو على كل شيء قدير ﴾ وفيها أيضاً ﴿ ألا إن الله هو الغفور الرحيم ﴾ وفي سورة الزخرف ﴿ وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله وهو الحكيم العليم ﴾ وفي سورة الدخان ﴿ إنه هو السميع

العليم . رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين . لا إله إلا هو يحيي ويميت ربكم ورب آبائكم الأولين ﴿٣٦﴾ أما برهما بمعنى الخالق ، ووشنو بمعنى القيوم ، وشيو بمعنى المميت فدلول الثلاثة كلها واحد هو الله الخالق القيوم المميت ، والموصوف لا يتعدد مهما كثرت صفاته ﴿٣٧﴾ فله الحمد رب السموات ورب الأرض ورب العالمين . وله الكبرياء في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴿٣٨﴾ (الجنانية ٣٦ - ٣٧) . ﴿٣٩﴾ هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم . هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون . هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم (الحشر ٢٢ - ٢٤) .

فإنه واحد وإن كثرت أسماءه وتعددت صفاته ، وهذه الكثرة ليست فى ذاته بل فى صفاته ، وإنما علنا ذاته الواحدة الموصوفة بالصفات الكثيرة بسبب رسالة محمد ﷺ . أما الأديان الأخرى فقد جعل أتباعها الله الواحد آلهة متعددة بتعدد صفاته ، فسبحان الله عما يشركون . وقد بين الإسلام وأحسن البيان بأن القدوس والخالق والملك والمؤمن والجبار والعزيز والمصور والرحمن والرحيم هو الله ليس غير .

والمنشأ الثالث للشرك كثرة أفعال الله وتنوع شئونه . وحين رأوا أن الله تصدر عنه ضروب من الأعمال حسبوا أنها تصدر عن مصادر متعددة وأن لها فاعلين كثيرين ، فحلمهم فساد رأيهم على أن جعلوا لكل عمل عاملا مستقلا ، فاعتقدوا أن الذى يحيى غير الذى يميت ، ومن يحب العباد غير الذى يبغضهم ، فاتخذوا لها للعلم ، وإلها للثروة والرزق ، فتعدد الواحد بذلك وصارت الآلهة بعدد الأفعال . أما الإسلام فقد أخبر بأن الأفعال وإن كانت كثيرة فإن الفعال هو الله الواحد العزيز المتعال .

إن جميع ما فى الدنيا من الأعمال ينقسم إلى قسمين : الخير ، والشر . وقد عجب الذين زاغت بصائرهم كيف أن الواحد يفعل فعلين متضادين ، فذهبوا

إلى أن من يصدر عنه الخير لا يأتي منه ضده ، فعبد أتباع زردشت الهين اثنين أحدهما للخير والآخر للشر ، وسماوا مسدى الخير (يزدان) ومصدر الشر (أهرمن) وتصوروا أن هذا العالم ساحة حرب يعترك فيها هذان القرنان المتصارعان . وما حملهم على هذا الفساد في العقيدة إلا خطأهم في فهم الخير والشر .

والحق أنه ليس في الدنيا شيء يصح أن يطلق عليه اسم الشر . فالنار لاشك أنها تمحرق ، ولكن الاحراق في نفسه لا يعد خيراً ولا يسمى شراً ، فإن أوقدتها لتنضج عليها غذاءك أو لتقتبس منها قبساً تصطلي به من البرد فإن عملك هذا هو الذي يعد إحساناً ويطلق عليه اسم الخير . وإذا أضرت النار لتحرق ماوى يأوى إليه فقير بانس لم يرتكب ذنباً فإن عملك هذا هو الذي يعد سيئة وشراً ، بينما النار نفسها ليست بنفسها خيراً محضاً لاشر فيه أو شراً محضاً لاخير فيه ، وأنت الذي جعلتها بعملك خيراً أو شراً . والسيوف القاطع لا يعد خيراً ولا شراً ، بل أنت الذي تتخذ منه ذريعة للخير أو للشر . والظلام لا يعد شراً لكنك إن تسترت به في جوف الليل لترتكب فيه سوء فالشر هو عملك لا الظلام . وإن تواريت فيه لتعمل صالحاً أو أويت فيه إلى الراحة والدعة فهو خير .

وقد خلق الله الأرض والسماء وجعل بينهما أشياء : الريح والسحاب والماء والنار والطين ، وخلق منهن أشياء وخص كل شيء بخصيصة ، وبث فيه قوة تناسبه ، ثم خلق الانسان ووهبه الحكمة البالغة والبصيرة النافذة والآراء السديدة ، فنظر هذا المخلوق في الكون وتأمل حسن تقويمه وعجيب تنسيقه وبديع نظامه ، فليكه الإعجاب به وملا نفسه الاستغراب منه . فلم يتالك أن انطلق لسانه قائلاً ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ ثم نادى في خشوع وخضوع لرب العالمين ﴿ إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ﴾ كما فعل إبراهيم خليل الله . وبجانب هذه الطائفة

من البشر طوائف أخرى لم يكن لهم من بليغ الحكمة وسداد الرأي وثاقب الفكر ما ينقذهم من جهود الله والكفر به ، فالتبست عليهم حقائق العالم ، واشتبهت لهم خواص الأشياء والقوى المودعة فيها ، فجعلوا المادة علة العالم وسبب خلقه وقالوا ﴿ ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ﴾

إن العالم لا يضل ولا يسهو ، ولا يرشد ولا يهدى ، ولكن الإنسان هو الذي يهتدى بسليم فطرته وسديد رأيه وسلامة قلبه ، أو يضل بسوء تفكيره وخطأ رأيه وقبح تأمله . وإن شئت قلت : إن العالم يهدى من يهتدى به ويضل من يضل به . وما أنزل الله من كتبه - التوراة والإنجيل والقرآن - يهدى الذين يحسنون تدبره وتلاوته فتطهرون قلوبهم إلى ما فيه من حق ويؤمنون به ، وآخرون يتلون ما أنزل الله من حق فيزدادون ريبا به ولا تسكن نفوسهم إليه فيجحدون ويكفرون ، مع أن الكلام واحد ، إلا أن تأثيره في القلوب مختلف : فيخرج هذا منه مؤمنا به ، ويخرج ذلك منه كافرا به ، وكلاهما من خان الله الواحد . والذي يستنتج من كثرة الأفعال وتعددتها واختلافها كثرة الفاعلين فقد أخطأ ، وإن بيد الله تعالى الخير والشر والهداية والضلال ، وكل ما ترى في الكون وفي الناس من ضروب العجائب وأنواع الغرائب فهمي من بديع السماوات والأرض وجميل صنعته وعظيم قدرته ، فهو الذي لا إله الا هو وحده لا شريك له ﴿ يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا وما يضل به إلا الفاسقين . الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون ﴾ (البقرة ٢٦ - ٢٧) .
﴿ والله لا يهدي القوم الكافرين ﴾ .

فهذه الآيات تدل على أن الضلال والهدى يرجعان إليه عز وجل ، لكن الانسان هو الذي يختار بادية ذي بدء ما يفضى به إلى الضلال أو الهدى ، فمن فسق عن أمر ربه أو قطع الرحم وأفسد في الأرض وكفر جاءه من الله

الضلال ، والضللال لا يتقدم الفسق والقطيعة والافساد في الأرض بل هو يعقب هذه الحلال ويتلوها .

إن الله عز وجل خلق بني آدم ودلهم على الخير والشر وبصرهم بالحسن والسيئ . ثم أمرهم بالخير ونهاهم عن الشر وهداهم الطريق المستقيم ، وحذرهم سوء العقبي إذا عصوه ﴿ إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا ﴾ وهو الذي قد خلق كل شيء خيره وشره ﴿ ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو ﴾ (سورة غافر) . ﴿ والله خلقكم وما تعملون ﴾ (الصافات) ثم بين لهم الخير من الشر والحسن من السيئ . ﴿ أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾ وما تقدم تعملون أنه لا يوجد في الدنيا خير لذاته ولا شر لذاته ، وإنما يكون الأمر خيرا أو شرا باختيار الانسان وبعمله ، فإذا سلك الصراط المستقيم كان بذلك راشدا واهتدى ، وإذا سدر في الفساد والغي وآثر بنيات الطريق على الطريق المستقيم ضل وغوى . وإذا صح اختياره لما ينفع ويسعد أصاب الخير وأتى بالحسن ، وإذا ارتكب الشطط في اختيار ما يضر أصاب الشر وكان من المخطئين . والذي يظن أن للكون إلهين اثنين لأن في الكون خيرا وفيه شرا فقد زاعت بصيرته وأخطأ الحقيقة ﴿ إنما إلهكم إله واحد ﴾ والله وحده خالق كل شيء ﴿ هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلا هو فأنى تؤفكون ﴾ (فاطر ٣) . والله قد بلغ رسالاته وأحكامه بالسنة أنبيائه ومرسله ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ﴾ (فاطر ٣٢) ، ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويمفو عن كثير ﴾ (الشورى ٣٠) ، ﴿ فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها ﴾ (الشمس) .

ما من دين خلا من العبادة لله ، لكن الأديان القديمة حسب أتباعها أن الدين يطالبهم بإبذاء أجسامهم وتمذيبها ، وأن الغرض من العبادة إدخال الألام

على الجوارح ؛ وأن الجسم إذا ازدادت آلامه كان في ذلك طمـارة للروح
ونزاهة للنفس .

وعن هذه العقيدة نشأ التبتل عند الهنادك والرهبانية عند النصارى ،
وابتدعوا من رياضات الجسم أنواعا عجيبة أشدها على الجسم أفضلها عندهم
وأقربها إلى الله في زعمهم : فمنهم من آلى على نفسه ألا يغتسل طول حياته ،
ومنهم من لا يلبس إلا المسوح والثياب الخشنة ، وبعضهم آلى على نفسه أن
يعيش عربان إلا من خرقه يستتر بها ماضيا على ذلك مهما أثرت فيه حمارة
القيظ أو زمهرير الشتاء ، ومنهم من لزم كهفا فلا يبرحه أبدا ، وبعضهم اختار
لنفسه أن يبقى واقفا في حر الشمس طول حياته ، ومنهم من يحلف ألا يقتات
إلا بورق الشجر ، ومنهم من بقى ضرورة حصورا لا يتزوج ، ومنهم من يعد
من العبادة والقربة إلى الله منع التناسل ، وفهم من يرفع إحدى يديه في الهواء
ويبقى كذلك طول عمره حتى تيبس يده وتجف ، وكان بعضهم يحبس نفسه
ما استطاع وهو يحسب أن ذلك من العبادة ، ولا يزال في الهند من يتعلق
بشجرة منكسا رأسه إلى تحت . وهذا كله وأمثاله بما كان عليه أتباع الأديان
قبل مبعث محمد رسول الله ﷺ ظانين أن أعمالهم هذه من أقرب الوسائل
إلى الله ومن أفضل ما تزكى به النفوس وتطهر به الأرواح ، فأنقذ الله عز وجل
الانسانية من هذا العذاب الأليم والأذى الشديد بالرسالة المحمدية الكاملة ،
وأرشدهم إلى أن ما يحسبونه عبادة من هذا السخف والشر إنما هو من الملامى
التي يتعلل بها من زاغ بصره والتوى عليه الرأى فظن في الله غير الحق ، وقد
أعلنت الرسالة المحمدية للناس هذه الحقيقة : « إن الله لا ينظر إلى صوركم ،
بل ينظر إلى القلوب التي في الصدور ، وما يفعل الله بتعذيبكم لأجسادكم
وجوارحكم » (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها) وجعل الرهبانية بدعة من
عند الناس لا من عند الله (ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم)
(الحديد ٢٧) . وفي الحديث النبوى « لا ضرورة في الاسلام ، وأنكر على

الذين حَرَّموا على أنفسهم طيبات الدنيا فقال عز وجل ﴿ قل من حَرَّمَ زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ﴾ (الأعراف ٣٢) ، وقد أنكر الله على رسوله حين حرم على نفسه العسل فقال ﴿ يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك ﴾ (التحریم) ، والرسالة المحمدية علمت الناس لأول مرة أن حكمة العبادة إقرار العبد لربه بأنه عبده ومطيع لأوامره ﴿ إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ﴾ (غافر ٦٠) . فالدين الاسلامي يعلم المسلمين خاصة وغيرهم عامة أن الله يريد منهم أن يؤمنوا به ولا يشركوا به شيئاً ، وأن يطيعوا أوامره ولا يستكبروا عليه ، فلا جرم أن تظهر طاعتهم له في صور وأساليب متعددة من العبادة . وغاية العبادة في الاسلام اعتياد التقوى والتمسك عليها ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾ . وثمرة الصلاة في الاسلام الكفُّ عن الفحشاء والمنكر ﴿ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾ . أما الصوم فن الوسائل إلى نيل التقوى ﴿ يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾ (البقرة ١٨٣) . وأما الحج فن حكمته أنه ﴿ ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ﴾ . والزكاة تزكّي القلوب وتنزع منها رذيلة البخل وتسد حاجات الفقراء وتقضى ضرورات البائسين لأنها تؤخذ من أغنياء الأمة وترد على فقرائها . قال الله عز وجل ﴿ الذي يؤتي ماله يتزكى وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ﴾ . ومن الدين عند المسلمين النكاح والزواج وقد قال لهم نبيهم ﷺ النكاح من سنتي ومن يرغب عن سنتي فليس مني ، وعند القرآن الحكيم أولاد الانسان وأزواجه قررة أعين له ، وأرشدهم إلى أن يسألوا الله ذلك ﴿ والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قررة أعين ﴾ .

وكان قتل المرء نفسه بما يتقرب به الأقدمون إلى الآلهة ، فكانوا يتذرون

لآلهتهم قرايين بشرية تذبح كالأضاحي استرضاء للآلهة ، فإذا سفكت دماء البشر لهذا الغرض نثرت دماؤهم على الأوثان ، وربما أحرقت لحوم الأضاحي وجمرت بها الأصنام وبخرت بدخانها ، ولأجل ذلك كان اليهود يحرقون لحوم الأضاحي . أما الإسلام فقد بين رسوله الكريم الغرض من الأضاحي وحرمة ذبح الإنسان وتقديمه قربانا وأحل تضحية البهائم إلا أنه نهى أن يرش دم الأضاحي أو تحرق لحومها . وقد ذكر الله عز وجل مافي التضحية من منافع للعباد بقوله ﴿ والبدن جعلناها لكم من شعائر الله ، لكم فيها خير ، فاذكروا الله عليها صوافء ، فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر ، كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون . لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم ، كذلك سخرناها لكم ، ولتسكبروا الله على ما هداكم وبشر المحسنين ﴾ . أما العقيدة الفاسدة في التضحية فقد حملت الناس على أن يحسبوا أنهم يملكون حياتهم وموتهم ويملكون أولادهم على حياتهم ، وزعموا أنهم يملكون أزواجهم ، حياتهم وموتهم . وهذه العقيدة الفاسدة قد جرّت شرا عظيما وفسادا كبيرا في الحياة الاجتماعية ، فأباحوا لأنفسهم الانتحار وقتل الأولاد ووآد البنات وذبح الأبناء على النصب والأوثان ، وانتحار الحلائل أو إحراقهن أنفسهن بعد موت أزواجهن ، وغير ذلك من المفاسد التي يحاها الإسلام واجتنتها من أصولها ، منذ أذن في الناس أن النفوس لله هو الذي يملكها ولا يملكها أحد غيره ، ولا تقتل نفس إلا بحق الله . لذلك لا يحل في الإسلام أكل لحم ذبيحة لم يذكر اسم الله عند ذبحها . والذي يتمتع فان الجنة محرمة عليه . أما في أوروبا المتحضرة وأمريكا المتمدنة فان الانتحار لا يزال أفضل وسائل النجاة من مضايق الحياة وآلامها ، والدول تحاول عبثا أن تأخذ على أيدي المنتحرين فذهب مساعي الحكام والولاية أدراج الرياح ، لأن الناس يزعمون أنهم يملكون أنفسهم فلهم أن يتصرفوا فيها كما يشاءون ، والانتحار عندهم أفضل وسائل النجاة من آلام الدنيا ، ولا يرون أن بعد هذه

الحياة حياة يؤاخذون فيها على الانتحار . وحتى لو أيقنوا أنهم يعيشون بعد ماتهم وينشرون تارة أخرى ، فانهم يستبعدون أن يحاسبوا على انتحارهم وقتلهم أنفسهم . أما الاسلام فقد شدد في أمر الانتحار وعده جريمة عظيمة وحذر عاقبته وعليهم أن هذه الوسيلة الذميمة لا يركن إليها في الخلاص من آلام الحياة وشداؤها ، وأن من انتحر فقد أقدم على ما ليس له به من حق ، لأن الحياة والموت من أمر الله ، ومن تجاوز أمر الله استحق سخطه وغضبه وسيحل به عذاب الله في الحياة الأخرى وهو أشد وأبقى من آلام الدنيا التي أراد المنتحر أن يخلص منها ﴿ ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ﴾ ، ﴿ ولا تقتلوا أنفسكم ، إن الله كان بكم رحيما ، ومن يفعل ذلك عدوانا وظلما فسوف نصليه نارا ﴾ .

كان قتل البنات وأدهن فاشيا بين العرب ، وبين الراجبوت من أهل الهند ، وفي كثير من الممالك . فلما ظهر الاسلام أنكر ذلك وحماه ﴿ وإذا الموءودة سئلت : بأي ذنب قتلت ﴾ . وقتل الأولاد لم يكن جريمة عند العرب ، ولا يزال هذا المنكر باقيا في الأمم المتعدنة : يدفعهم إلى ذلك خشية الاملاق وضيق النفقة ، وربما يبررون ذلك بأن غلال البلاد وحاصلاتها لا تسد حاجات العمران البشري فيقتلون أولادهم دفعا للآزمات الاقتصادية عن البلاد . والعرب وغيرهم لم يكونوا يرون تبعة على من أجهضت حملها وقتلت ولدها . وكان الأغريق يتبعون كل مولود يولد في بلادهم فيقتلون منهم الضعفاء ، والمخدجين وناقصي الخلق . وقد يقذفونهم من قلال الجبال ، ويستحيون منهم الأقوياء . وناسي الخلق . وتحديد الذل Birth Control بجميع طرقه المعروفة في هذه الأيام ليس إلا ضربا من ضروب قتل الأولاد ووآد البنات ، وقد نادى الاسلام في الناس أنه مامن أحد يرزق أحدا وإنما الرزاق هو الله المتكفل بحاجات خلقه ، قال تعالى ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ﴾ وقال : ﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم ،

إن قتلهم كان خطأ كبيرا .

ومن أكبر الجرائم التي اقترفتها الأمم ولا تزال باقية في بلاد لم تبلغها دعوة الاسلام ولم تشرق أنواره في أرضها ، أنهم جعلوا ثراء المال ونقاء الدم وشرف النسب وكرم المحتد ولون البشرة أساس الكرامة ورأس ما يتفاضلون به ويتفاخرون . وقد جعلوا ثراء المال ونقاء الدم وبياض اللون أصولا يرجعون إليها في هذا التفاضل بين أفراد الأمة وبين الطوائف من الأمم ، وسنوا لذلك من القوانين والآداب في المعاشرة والمجتمع ما يلائم أهواءهم ومذاهبهم في النسب . أما الهند فقد عدت الهنادك من أهلها كل من خرج عنهم من الأمم والناس أنجاساً منكيداً ، فإن لمسهم لابس من غيرهم أو صالحهم أو مس أجسامهم رأوا أنهم قد تنجسوا ووجب عليهم أن يغتسلوا لأن من سواهم رجس يجب أن يتطهروا منه . وقسم الهنادك أنفسهم أقساماً ووزعوا بين هذه الأقسام حظوظاً متفاوتة من الشرف فرفعوا بعضهم على بعض درجات لا في الفضائل والأخلاق بل في أمور المعيشة وشئون الحياة وأحكام الحكومة . فالشودر (وهم الطبقة السفلى منهم) يعدون أنجاساً وعبيداً وخداما ، وهم أصحاب المهن الحقيرة ، ويرون أنهم لاحظ لهم من الدين أيضا . وكذلك قدماء الفرس تفرقوا إلى أربع طوائف . وهكذا فعل أهل أوربا فخصوا أنفسهم بأمر الحكومة والسلطان على الأمم ولم يتركوا لمن سواهم إلا أن يستعبدوا ويخضعوا لحكمهم . وبنو إسرائيل عدوا أنفسهم أبناء الله (تعالى الله عما يقولون) ومن سواهم من الأمم أذلة صاغرين . ثم فرقوا بين بني إسرائيل أنفسهم فانزلوا طوائفهم منازل مختلفة وجعلوا بعضهم فوق بعض . وهذه أوربا الراقية التي تدعى دعاوى عريضة في الإغناء والمساواة والمدنية ، أسنا نرى أن الرجل الأبيض قد أثقل كاهله بأعباء الحكم في العالم ويرى أن غير الأوربي لا يستأهل السيادة والحكم ، فالأبيض المثقف هو الذي اختص بالحضارة والاستعلاء ، أما السود (وكل من عداهم يعدونه من

السود) فانهم لا يعدلونهم ولا يساؤونهم، بل إن بعض البيض يربأون بأنفسهم ان يركبوا في اسفارهم مع الاسيوى في عربة واحدة من القطار، وترفعوا عن مجالسته ومساكنته، وقد عزلوا الجنس الأسود Negro في افريقية الجنوبية وامريكا المتحضرة فبنوا لهم احياء منعزلة عن البيض لانهم لاحق لهم بأن يجاوروا البيض. فالأمريكيون الذين يدعون العدالة التامة والإخاء العظيم يعاملون السود من سكان امريكا نفسها أسوأ معاملة ويضيقون عليهم حياتهم كأنهم ليسوا من البشر او من خلق الله. وفي جنوبي افريقية وشرقيها ليس للسود ولا للهنود ولا للأسيويين عامة من الحقوق المدنية والانسانية مثل ما للإنسان في بلاد اخرى. ولم يقصروا جورهم هذا على الأمور الدنيوية، بل إنهم عدوا طورهم وجارزوا الحق إلى الأمور الدينية فبنوا الكنائس للبيض خاصة وجمعواها بمزل عن السود فلا يأذنون للسود بدخول تلك الكنائس. وإن الأبيض يشمخ بأنفه ويربأ بنفسه ان يدخل كنيسة يغشاها السود او الاسيويون والافريقيون، فليس للأسود ان يركع لله مع الغربي الأبيض ابدا.

اما الاسلام فقد محاذ هذه الفوارق والعصبيات الذميمة كلها، وانكر أن يكون التفاضل باللون والدم والنسب^(١) وسوى بين بني آدم كلهم، وهدم كل ما كان يحول بين المرء واخيه من ثراء المال ونقاء الدم ولون البشرة والجاه العريض والنسب الاصيل والمجد الاثيل. وكانت قريش تعز بأبائها وتباهى بأنسائها، فخاطبهم النبي ﷺ يوم وقف فيهم خطيبا في فناء المسجد الحرام يوم فتح مكة فقال لهم: «يا معشر قريش، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء. الناس من آدم وآدم من تراب» (ابن هشام). ثم اعلن الرسول ﷺ في جمع عظيم وحفل حافل يوم حجة الوداع ان لا فضل

(١) نذكر القاريء بأن الأستاذ المؤلف سيد شريف من الدرية المحمدية الناشر

امر بي على عجمي ولا لعجمي على عربي إلا بالتقوى . كلكم أبناء آدم وآدم من
تراب . فلاك الشرف والمجد والتقوى ، والعمل هو الذي يرفع صاحبه او
يضمه . وإن الله قد اذهب عيبة الجاهلية وفخرها بالآباء ، فالمرء إما مؤمن
تقى او فاجر شقي (وخطبة الوداع في جامع الترمذي وسنن أبي داود) وقد
خاطب الرسول فيها عامة الناس بلسان الوحي : ﴿ يا ايها الناس إنا خلقناكم
من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن اكرمكم عند الله
أتقاكم ﴾ وقال سبحانه ﴿ وما اموالكم ولا اولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى ،
إلا من آمن وعمل صالحا فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا ﴾ ثم آخى بين
المسلمين وجعلهم إخوة فقال عز من قائل ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ وقد نادى
الرسول يوم حجة الوداع في جمع من المسلمين عظيم يبلغ عددهم مائة الف او
يزيدون : **د المسلم اخو المسلم** . فهذه المساواة والمواخاة قد محتا الفوارق بين
الهندي والأفغانى والصينى والتركى واليرانى والأندنوسى والعربى ، وبين
الشرقى والغربى ، بل ذهبتا بكل ما يفرق بين الأسود والأبيض من فوارق
الجنسية واللون والدم ، واعلن الله لإحسانه إليهم بقوله ﴿ فأصبحتم بنعمته
إخوانا ﴾ .

إن ابواب بيوت الله مفتوحة في الاسلام لكل مسلم بلا تفریق بينهم في
المهن والأجناس والمراتب الاجتماعية ، لأنهم لا يتفاضلون بالثراء ولا يتفاوتون
في الآباء واختلاف المحدث . وليس في الاسلام نظام طبقات كما بين البراهمة
والشودر (المتبوذين) . فلكل مسلم ان يتلو كتاب الله ، وان يؤم الناس في
الصلاة ، من اى بيت كان ومن اى قوم كان . والتزواج مطلق بين طوائف
المسلمين واجناسهم ، وباب العلم مفتوح لكل داخل ، بل هو نهب مقسم بين
الجميع ، والناس سواء في الحقوق ، وفي احكام القصاص : **الدم بالدم** ،
والنفس بالنفس .

إخوانى الأعزاء . كان بوسدى أن أذكر عن رسالة محمد ﷺ كل

ما أحسنت* به الى الانسانية ، وأن أعدد أفضالها ونعمها على جميع طبقات البشر ، ولكن وقتنا لم يسمح بذلك ، ومثل هذا الموضوع العظيم يحتاج إلى وقت أطول وأوسع من الوقت الذي تحدثت إليكم فيه . وما كنت أحب أن أبسطه لكم فضل الرسالة المحمدية على الرقيق والمستعبدين في الأرض من بني البشر ، والحقوق الممنوحة لهم في الاسلام ، والمستوى الذي رفعهم الاسلام إليه لأول مرة .

وكنت أحب أن ألمّ بما للرسالة المحمدية من جميل نحو النساء ، وما حفظت* من حقوقهن وما رعت من كرامتهن .

كان بوسدي أن أفصل لكم جميع هذا وكثيراً غيره تفصيلاً تبنون منه أن أربا التي تدعى التقدم الفكري لا تزال وراء الاسلام بمسافات طويلة ، وإن تضارعه فيما قدم للانسانية من رعاية وما أسدى إليها من حقوق .

إن من أعظم الجرائم التي عم بها الضلال وطم ، الدعوة إلى التفريق بين الدين والدنيا ، حتى صار يقال : هذا من حكم السلطان ، وهذا من حكم الرحمن . وحتى صاروا يميزون بين ما يكسبون به الدنيا ، وما يكسبون به الدين . وقد أفردوا لكل واحد منهما طريقاً غير طريق الآخر . والرسالة المحمدية هي التي كشفت الستار عن وجه الحقيقة في ذلك فأعلنت في أرجاء الدنيا ما بين أمور الدين وأمور الدنيا من التلازم ، وأن أعمال الدنيا التي يراد بها وجه الله والفوز في الآجلة إنما هي من صميم الدين ، ومن الدين أن يقوم الناس بأموار الدنيا - من تجارة ، وزراعة ، وصناعة ، وحرقة ، وخدمة - بالطريقة السليمة التي هدى إليها الدين وأرشدت إليها تعاليمه . ومن أعظم الخطأ أن يحسب الناس أن الدين منحصر في العبادة من صلاة وصوم ، وفي الفرار من الناس واعتزالهم في مغارة أو جبل للعبادة ، بزعم أن اشتغال المرء بأموار نفسه وشئون أولاده وعياله والمشاركة في مصالح أمته وبلاده وأجابه وخلانه هو من أمور الدنيا لا من أمور الدين . كلا ، بل إن هذه العقيدة قد أعلن رسول الاسلام ﷺ

فسادها وأبدى عوارها بدعوتها وبلاغها من جهة، وبجياتها المثل من جهة أخرى. وقد بين بقوله وعمله أن أمور الدنيا التي تؤدَّى بالطريق الذي هدى إليه الدين تعد من الدين ويثيب الله عليها كما يثيب على العبادات وغيرها مما هو من صميم الدين.

ألا إن ملاك النجاة للإنسان في الإسلام الإيمان والعمل الصالح. أما الإيمان فهو الايقان بالله وحده، والايقان بأن رسله إنما بعثوا لهداية البشر ودلائهم على طريق الله، والايقان بالملائكة الذين هم رسل الله بينه وبين من أرسل إليهم من البشر، وبالكاتب التي أنزلت على الرسل وفيها أحكام الله من الأوامر والنواهي، والايقان بأن الله يحاسب الإنسان على أعماله ويجزيه خيراً عما يعمل من خير أو شراً عما يصدر عنه من شر. فهذه الخمسة هي أساس الإيمان وملاكه، والإيمان أساس العمل، ومن لا إيمان له لا ينتظر منه الاصلاح فيما يصدر عنه من عمل.

والمراد بالعمل أن تكون تصرفات الإنسان صالحة. والأعمال ثلاثة ضروب كما ذكرت في المحاضرة السابقة من هذا الكتاب (١) : الضرب الأول (العبادات)، وهي عبارة عن تعظيم الإنسان لإلهه الذي خلقه، وعن خشوعه له وخضوعه لأوامره وإظهار افتقاره له. الضرب الثاني (المعاملات) وهي ما يتعاطاه الناس فيما بينهم لتبادل مصالحهم واستعمال مرافقهم، ومنها أحكام الدولة وقوانينها التي يراعها الإنسان ويتقيد بها ليسود الأمن ويعم السلام في البلاد. فلا يقع فيها الفساد والفوضى التي تنتهي إلى الهرج والمرج والهلاك والدمار. والضرب الثالث (الأخلاق) وهي القيود التي توجب الآداب والتقيد بها وإن لم تفرض على الناس بالتشريع وأحكامه القانونية، واتباعها تطهر القلوب وتزكو النفوس ويرتفع مستوى المجتمع البشرى ويتقدم في

إنسانيته . وهذه الأربعة - الإيمان ، والعبادات ، والمعاملات ، والأخلاق - هي التي تهيم للمجتمع أسباب النجاة .

سادق وإخواني . سمحوني إذا قلت لكم أن التبتل في الدنيا والعزلة عن المجتمع وحب الخلوة عن الناس ولو لذكر الله ليست بما يحتمه الاسلام ويدعو إليه . والاسلام نشاط دائم وجهاد طويل ، لذلك تراه يحث المسلمين على أن يكونوا دائماً في عمل وسعي ونشاط ، وذلك ينافي السكون الدائم والانصراف عن الحركة والعمل ﴿ وأن ليس للانسان إلا ما سعى ﴾ ، ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾ فالعزلة عن الناس ليست من الاسلام ، بل من الاسلام الاقدام في معترك الحياة واقتحام حلبة الحركة والزحام لنشر دعوة الحق والخير وإصلاح البشر . وبين أيديكم التأمي برسول الله ﷺ وما كان عليه أصحابه ، فاذا عملتم كما عملوا وجاءتم كما جاءهم وثابروا كما ثابروا كنتم مسلمين حقاً كما كانوا وكتب الله لكم مثل الذي كتب لهم من الفلاح في الدنيا والنجاة في الآخرة .

إن محمداً ﷺ لم يدع إلى مثل ما دعا إليه (بوذا) من هجر الدنيا ومعارضة الفطرة بقمع الشهوات ومحولة انتزاعها من النفوس ، بل دعا إلى تعديلها وتسكين ثورتها والحد من شططها والامراف فيها .

ولم يدع إلى مثل ما يقال عن دعوة المسيح من احتقار الثروة والقوة ، بل دعا إلى تحرى الطرق الصالحة في الحصول عليهما وفي حسن استعمالهما .

إنما الاسلام إيمان بالحق وعمل به ، ولذلك تفاصيل وفروع ومساع متفرعة وجهاد عظيم وكفاح متواصل . فترك العمل عكس ما جاء به الاسلام ، والدين الذي يأمر بالفرائض لا يعقل أن يرضى بالإعراض عنها . وإن شئتم تفصيل ذلك فافرأوا سيرة الرسول وادرسوا تراجم أصحابه . أليس الله عز وجل قد وصف نبيه ﷺ وأصحابه بقوله ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ﴾

كان في جهاد عظيم وكفاح مستمر ، وما برح طول حياته الشريفة مختلطاً بالناس متحدثاً إلى أصحابه يجالسهم ويساكنهم ويواكلهم ويشاربهم ويلقاهم بوجه طلق وقلب نقي سليم متعلق بالله وبما يرضى به الله ، وقد تراه راكعاً ساجداً لله ، كما قد تراه عاملاً ساعياً ينتغى الفضل من الله ويكسب رزقه بعمله مع تعلق قلبه بربه لا يلهيه عن ذلك شيء . (رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله) فهو إذا ذكر الله لا يحمله ذلك على ترك الدنيا والعمل فيها وهجر أهله وعياله ، وإذا قام بعمل الدنيا لا ينقطع مع ذلك عن ذكر الله بقلبه وتحري مرضاته في كل ما يعمله .

ألم يأتكم نبي المسلمين وهم يقاثلون الروم في بلاد الشام ؟ إن العدو أرسل عيوناً يتجسسون له أحوال المسلمين في معسكرهم ، ولما عادوا إلى قائدهم قالوا : لقد رأينا عجيباً ، أنهم بالليل رهبان ، وفي النهار فرسان .

إخواني . اليوم آخر عهدي بكم في هذه المحاضرات . وكنت أحسبني قادراً على أن أصف لكم رسول الإسلام ورسائله وصفا كاملاً ، وأني سأوفيهما حقهما مبيناً سيرة الرسول الطاهرة ومناحيها المختلفة في هذه المحاضرات الثمان . وها هي ذى المحاضرة الثامنة قد انتهت وفرغت الآن من إلقائها ، ولكن الرسالة المحمدية قد بقيت منها نواح لم أوفها حقها من البيان .

اللهم صل على محمد وآله وصحبه وسلم

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

فهرس

	صفحة
مقدمة النشر بقلم محب الدين الخطيب	٣
مقدمة المصنف	٦
المحاضرة الأولى : فى أن سيرة الأنبياء هى الاسوة الحسنة للبشر	٧
خصائص النبات أكثر من خصائص الجماد فواجباته أكثر، وخصائص الحيوان أكثر من خصائص النبات فواجباته أكثر ، ومدارك الانسان أرقى فواجباته أعظم	٨
مسئولية الانسان بقدر مواهبه	١٠
حكمة إرسال الله الرسل للبشر	١٢
الفرق بين دعوة الرسل ودعاوى غيرهم	١٣
خلود دعوة الرسل واضمحلال دعاوى غيرهم	١٩
ما من طائفة من الناس أصلحت فساد المجتمع إلا الأنبياء	٢٠
إن الهداية والدعوة لا تثمر وتبقى إلا بالقُدوة والاسوة	٢٤
المحاضرة الثانية : فى أن السيرة المحمدية هى العامة الخالدة	٢٦
امتياز محمد ﷺ بأنه كان شاهداً ومبشراً ونذيراً	٢٧
السيرة المحمدية هى السيرة التاريخية ،	٢٨
سيرة متبوعى الهناذك ليست تاريخية	٢٩
سيرة زردشت و بوذا ليست تاريخية	٣٠
الذى فعله عن كونفوشيوس أقل من الذى فعله عن بوذا	٣١
شكوك العلماء المحققين فى كثير من سير أنبياء بنى إسرائيل	٣١
الكلام على الأناجيل من ناحية التاريخ	٣٢

	صفحة
ليس في أصحاب الدعوات من يمكن التأسي به إلا محمد ﷺ	٣٣
ما يمكن معرفته من أسفار التوراة عن موسى	٣٥
شئون حياة المسيح أخفى من غيره وأغصص	٣٧
يشترط الكمال والتمام والجمع في سيرة من يقتدى به ، ولا يتوفر هذا إلا في السيرة المحمدية ، وبيان البراهين على ذلك	٣٨
الحياة المثالية هي التي يبدأ صاحب دعوتها بنفسه فيعمل بما يدعو إليه	٤٣
الحسنات السلبية والحسنات الإيجابية	٤٤
اشتراط أن تكون سيرة المتبوع : تاريخية ، وجامعة ، وكاملة ، وعملية	٤٥
المحاضرة الثالثة : السيرة المحمدية من الناحية التاريخية . وامتياز	٤٧
الاسلام بحفظ السيرة النبوية وتراجم الصحابة والتابعين والأئمة المنتبوعين	٤٨
عناية الصحابة بحفظ الحديث النبوي وعناية التابعين بتراجم الصحابة	٤٨
الكلام على التابعين ، وأساتذتهم من الصحابة	٤٩
المستشرقون وتشكيكهم في رواية الحديث . والكلام على الحفظ والكتابة	٥١
كتابة الحديث في العهد النبوي	٥٣
التابعون الذين دونوا الحديث تبدأ ولادتهم من سنة ١١	٥٩
جمع الحديث له ثلاثة أطوار	٦٠
علم نقد الحديث من جهة الدراية والفهم	٦٢
سنة مصادر لسيرة النبي ﷺ وهدية	٦٣
كتب السيرة المحمدية تعد بالآلوف	٦٥
مرجليوث أشد المستشرقين تحاملا على الاسلام	٦٦
اعترافات جون ديون پورت وريوند باسورث سميت	٦٧
السيرة النبوية أوثق رواية وأكثر صحة من كل ما كتب في سيرة النبيين	٦٨

- المحاضرة الرابعة : السيرة المحمدية من ناحية كالمها وتامها وشمولها
 ٧٠ لانكون حياة أحد كاملة إلا إذا كانت معلومة للناس، وحياة محمد ﷺ
 من ميلاده إلى ساعة وفاته معلومة التفاصيل بجميع دخائلها
 ٧٢ مثال من كتب الثمائل لتفاصيل ما يعرفه التاريخ عن محمد ﷺ من
 جليل ودقيق
 ٧٣ كذات كين وبأسورث سمث عما يعرفه التاريخ من دخائل محمد ﷺ
 ٧٤ تفاصيل أخرى مما يعرفه التاريخ عنه ﷺ
 ٧٥ ما استقصاه ابن القيم في زاد المعاد من أحوال النبي الخاصة وشؤونه
 اليومية
 ٧٧ لإباحة النبي ﷺ لأصحابه أن يذكروا عنه كل ما يعرفونه بلا تحفظ
 ٧٩ كان الرسول ﷺ معروف الدخائل لأعدائه أيضا، فلم ينقلوا عنه إلا خيرا
 ٨٠ شهادة أبي سفيان قبل إسلامه للنبي ﷺ عند هرقل
 ٨٢ رجاحة عقول العرب تجعلهم لا يتخذون في أمر الرسول، فاتبعوه
 وهم على بينة
 ٨٣ لو كتم الرسول شيئا لسكتم ما في القرآن من مؤاخذته
 ٨٥ كبة هيجنس في المقارنة بين محمد ﷺ والذي قبله
 ٨٧ سنن الأمم السالفة في الأخلاق بادت ولم يبق إلا سنن الإسلام
 ٨٨ المسلمون لا يحتاجون من خارج دينهم إلى أصول وضوابط لأن أصولهم
 كاملة
 المحاضرة الخامسة : السيرة المحمدية من ناحيتها الجامعة
 ٩٠ الأديان الأخرى تتحرى أقوال أنبيائها والمسلمون يتحرون أعمال نبيهم
 ٩٣ حياة محمد ﷺ جمعت ما تفرق في الأنبياء مما امتازوا به
 ٩٥ انتباه أحد البراهمة لهذه الناحية من الحياة المحمدية

	صفحة
ما أعطى الله الرسل جميعا متفرقين قد أوتيه محمد ﷺ وحده	١٠٠
مقارنات بين النبي ﷺ وإخوانه الأنبياء	١٠١
مدرسة محمد ﷺ كانت جامعة للطوائف وعامة للأمم	١٠٥
استعراض نماذج من تلاميذ مدرسة محمد ﷺ	١٠٦
إن العالم لا يتم هدايته إلا بالمصالح الأخير الدنيا	١١٣
المحاضرة السادسة : الناحية العملية من السيرة المحمدية	
كيف نتبع الرسول ، وفيه نتبعه ؟	١١٥
مقارنة بين نناج عظة جبل الزيتون ، و نناج دعوة جبل الصفا	١١٦
ما شهد به لمحمد ﷺ أقرب الناس إليه وأعرفهم به	١١٨
كان ﷺ أول من يعمل بما يأمر الناس به	١١٩
مقارنة بين عظة و أحبوا أعداءكم ، ومعاملة النبي ﷺ لأعدائه	١٢٨
مقارنة بينه ﷺ وبين الأنبياء من آدم إلى عيسى	١٣٧
المحاضرة السابعة : رسالة رسول الاسلام إلى جميع الأنام	
ماهى السيرة الكاملة الجامعة في الرسول ، وماذا بلغ عن ربه ؟	١٣٩
كفالة الله حفظ الرسالة المحمدية لأنها رسالة الحاضر والمستقبل	١٤٠
الاسلام أول رسالة عامة في تاريخ الانسانية	١٤١
الدين إيمان وعمل ، ولم يجتمعا إلا في الاسلام	١٤٣
مقارنات بين رسالة الاسلام والرسالات الأخرى	١٤٤
مقارنة بين الوصايا العشر والآيات ٣٦ - ٣٩ من سورة الامراء	١٤٦
عناية الشرع المحمدى بكرامة الجنس البشرى ومكانته من سائر المخلوقات	١٤٩
الرسالة المحمدية عرفت الناس بأقدارهم وأنزلتهم منازلهم	١٥١
الاسلام وحقيقة التوحيد	١٥٢
فطرة الانسان في الاسلام بريئة في الأصل ولم يولد آثما	١٥٢

	صفحة
الدين والفقرة كلمتان لمسلول واحد	١٥٤
الناس سواسية في الاسلام ، والدنيا كلها لله وحده	١٥٥
الاسلام سووى بين جميع الانبياء ودعا الى الايمان بهم جميعا	١٥٦
دين الله بين الذين غلوا في الانبياء والذين فرطوا فيهم	١٥٧
المحاضرة الثامنة : السيرة المحمدية من الناحية العملية	
فساد الأديان السابقة بسبب التشبيه وتخصيم الصفات الإلهية	١٦٠
فسادها بسبب فصل الصفات الإلهية عن الذات	١٦٣
فسادها بسبب تعديدهم الفاعل بتعدد أفعاله	١٦٥
مذمناً للخير والشر حسن استعمال الأمور أو سوء استعمالها	١٦٦
الهدى والضلال بما كسبت أيدي الناس	١٦٧
تعبد الضالين بتعذيبهم أنفسهم	١٦٩
التضحية والأضاحى والقربان	١٧١
النفوس ملك لله ، فليس للإنسان أن يتمحر أو يحدد النسل	١٧٢
قضاء الاسلام على نظام الطبقات ، وعلى التفاضل بالمال والنسب واللون	١٧٣
من أعظم الجرائم فصل الدين عن الدنيا	١٧٦
الاسلام إيمان بالحق وعمل به	١٧٧

مكتبة العرب
مليها : صلاح الدين البقاعي
ملاش كمال ص. ق. (تذكرة) القاهرة

LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY



32101 074224708

(Clas)
BP188
.2
.N338
1953

المطبعة السلفية

٢١ شارع الفتح بجزيرة الروضة * القاهرة

الثن ١٥ قرشاً